# رسائل السلام

## إلى من هداهم الله إلى حقيقة الإسلام

## ( الصوفيون هم السلفيون )

### ملحق: بحث في مشروعية رفع القباب على أضرحة الصالحين والتبرك بها والدعاء عندها

**د. محمد محمد الشحومي**
الفيتوري الإدريسي الحسني
المرشد العام للرابطة العالمية للشرفاء الأدارسة
رئيس هيئة الإرشاد والمرجعية العلمية للإتحاد العالمي للتصوف



# بطاقة فهرسة



**مكتبة جزيرة الورد**
اسم الكتاب : رسائل السلام
المؤلف : د. محمد محمد الشحومي
رقم الإيداع :

الطبعة الأولى ٢٠١٨

مكتبة جزيرة الورد
القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤
Tokoboko_5@yahoo.com



# تقديم

بقلم صاحب الفضيلة **الأستاذ الدكتور علي جمعة**
مفتي الديار المصرية السابق

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه. وبعد:

فإن العلم بدين الله له ظاهر وباطن، وهو ما يمكن أن نسميه بالشريعة والحقيقة، أو بمقام الإسلام ومقام الإحسان كما ورد في حديث جبريل عليه السلام المشهور.

والإنسان يحتاج إلى تعلم الشرائع وفهم الحقائق، فلا غنى عن أحدهما للوصول إلى الله سبحانه وتعالى. فالشريعة هي الأحكام العامة التي يخاطب بها أهل الإسلام بكل مستوياتهم الفكرية والاجتماعية وغيرها، أمّا الحقائق فهي دقائق يفتح الله بها على من يشاء من عباده.وبين أيدينا كتاب: (رسائل السلام إلى من هداهم الله إلى حقيقة الإسلام) لمؤلفه السيد/الدكتور محمد محمد الشحومي الإدريسي الحسني، جمع فيه بين علمي الظاهر والباطن، حيث تكلم بعبارات واضحة – خالية من الإطالة المملة، والاختصار المخل – عن مجموعة العقائد الأساسية من الإيمان بالله وتنزيهه وصفاته، والإيمان بالملائكة والرسل والكتب واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

كما تناول فيه مؤلفه أحكام الشريعة الظاهرة فتكلم عن العبادات بشيء من الإجمال، فذكر أحكام الصلاة والزكاة والصوم والحج.

كما تعرض في كتابه لعلم الباطن، فتكلم عن التصوف وأصوله وتوثيق الأئمة لأهل الطريق، وأجمل الحديث عن المقامات وما يشمل عليه كل مقام، ثم أوضح ما يجب أن يعلمه من أراد الدخول في الإسلام من معلومات مهمة عنه.فالكتاب جهد مشكور، نافع في بابه،تحتاجه المكتبة الإسلامية، نسأل الله أن ينفع به وبمؤلفه، وأن يجعله في ميزان حسناته ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

**أ.د/ علي جمعة**
**مفتي الديار المصرية**

## الإهداء

إلى البعض من أبناء ملّتنا، الذين يقرؤون القرآن ليل نهار ويمرون بجانب الآيـة القرآنيـة الثالثـة مـن سـورة الأعـراف ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ ، ولا يتدبرون معانيها ولا يعلمون بما جاءت به وهي تأمرهم بأن يتبعوا ما أنزل ربهم إليهم ولا يتبعوا من دونه أولياء وتذكرهم تلك الآية العظيمة بأن القليل منهم هو الذي يتذكر ما جاءت به الآية.

وتقول لهم آية أخرى جاءت في سورة البقرة عن الأسلاف بأن ﴿ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [البقـرة: ١٣٤] وتكررت في الآية ١٤١. ومع علمهم وحفظهم لهذه الآية يقول لك مدعي السلفية: نحن نفهم كتاب الله وسنة نبيه على فهم أسلافنا، وكأن أسلافهم قد أحاطوا بعلم الله الذي لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وهم ومن بعدهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً، وحجّروا القرآن بفهم بشر عاشوا في زمان ومكان محددين مختلفين تماما عن عصرنا، وهم يقرؤون القرآن الذي لا تنقضي عجائبه ولا يعلم تأويله إلا الذي أنزله الذي يعلم ما في أنفسنا ولا نعلم ما في نفسه، ولا ما هو مقصده الإلهي سبحانه وتعالى، خاصة في الآيات المتشابهات التي يفسرها تفسيرا هوائيا أصحاب الزيغ والانحراف، الذين عطلوا عقولهم، وآثروا أن يفكر الأسلاف نيابة عنهم، ففقدوا الثقة في أنفسهم، واحتقروا عقولهم. الذي لولاها لكانوا كمخلوقات لم يكرمها الله مثلهم، خلقت لهم، ووجدت لتعيش تأكل وتشرب وتتكاثر. ولولا هذا العقل لما اختاروا أن يكونوا سلفيون مسلمون، ولولا هذا العقل لما آمنوا بأن القرآن حق والسنة حق والله حق والجنة حق، وكل شيء أحقه الله فهو حق؟!!!!.

نحن هنا لا نريد إلا الإصلاح ما استطعنا، ونعمل على لم الشمل ووحدة الأمة، ونتحرك نحو الاقتراب أكثر وأكثر من إخواننا (مدعي السلفية) من أتباع محمد بن عبد الوهاب النجدي، من أجل معرفة طريقة منهجهم في الفهم والفقه والتفكير، خاصة وأنهم يبدون اهتماما وحرصا على معرفة الدليل النقلي والعقلي القاطع، والبرهان الساطع، والقرينة والحجة والشاهد في كل مسألة من مسائل الدين، عقيدة وشريعة، عبادات ومعاملات، لكنهم للأسف يعتقدون في أسلافهم من الوهابيين العصمة، ولكن دون أن يشعروا بذلك ودون أن يعترفوا به، ومع ذلك يقولون لك: كل واحد من مشايخنا يؤخذ منه ويرد إلا صاحب ذلك القبر ويقصدون به محمداً رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ تقليدا لإمام دار الهجرة الإمام مالك، فما هذا التناقض؟!. يفهمون الكتاب والسنة بعقول أسلافهم ويقولون لك: كل واحد من أولئك الأسلاف يؤخذ من كلامه ويرد؟!، ودور عقولهم هنا فقط هو اختيار هذا ورد هذا. أما أن يكون لهم اجتهاد خاص بمشاكل واقعهم وزمنهم فهذا مستحيل لأن سلفهم من الوهابيين قد أحاطوا علماً بكل ما سيحدث في الأزمنة القادمة

وبكل مشاكلها الغيبية، وما عليهم إلا تطبيق القياس السلفي الجاهز، وتفصيله على كل مشكلة مستجدة ومستحدثة، وكفى السلفيين الاجتهاد والتفكير ووجع الدماغ والفكر، والعقل حقيقة، ما خلقه الله إلا للتأمل والتفكير والبحث عن الحق والتواصي به.

إن السلفيين الوهابيين من أبناء أمتنا، يتكبرون على الحوار والجدال إلا فيما بينهم فقط، وممن هو متشبه بهم، ولا يتشبهون إلا بأسلافهم من مشايخ الوهابية وذلك ديدنهم وشغلهم الشاغل. وعندما تتأملهم في نقاشهم ومسلكهم تشعر بغربتهم عن واقعهم، وتدرك مدى انقطاعهم عن عصرهم، كأنهم من مشبّهات المتاحف التاريخية، وعند الاقتراب منهم بالحوار السمح والجدال بالتي هي أحسن والتواصي معهم بما تراه حقا، يمقتونك ويزدرونك ويحرضون على ازدرائك، مع أن التواصي بالحق أهم طرق الإيمان المنجي من الخسران،

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر]، والإنسان جدالي بفطرته بشهادة القرآن الكريم نفسه: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٤]، والجدل في نظرهم يؤدي إلى الخصومة والغل والحسد والصراع والعداوات. مع أن الجدل هو الذي يعطي للحياة معنى عندما، تتلاقح الأفكار والثقافات والمعارف والعلوم بين الشعوب والقبائل، عبر التعارف والحوار والموعظة الحسنة، والجدل بالتي هي أحسن، كما أمر الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم أن يعض أتباعه، ويجادل المخالفين له في الملة.

السلفيون الوهابيون يزعمون أنهم يطبقون سنة نبيهم لكنهم يكرهون الجدال بالحسنى وغير الحسنى، ونبينا جادل وناقش. لقد حاور النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الكفار والمنافقين وأهل الكتاب حتى الجن تحاور معهم واستمعوا له. وتحاورت الملائكة مع رب السموات والأرض، ولولا الجدال بين المرأة وزوجها لما ظهر الحق والعدل وسماع الشكوى وإنصاف المرأة المجادلة في القرآن.

نحن نعتقد أن مسألة النفور من الحوار والجدال أو الجدل عند السلفيين الوهابيين المعاصرين، يرجع إلى قلة بضاعتهم في فهم واقعهم وكيفية التعامل مع الناس، وإلى إيمانهم بأن مراحل التاريخ جامدة مكررة لا جديد فيها ولا اختلاف عن زمن أسلافهم القدماء، وأن الأفكار عندهم لا تتطور والحياة لا تتغير والوسائل لا تتجدد والمشاكل لا تختلف، كأن التاريخ لا يتحرك إلا مرة واحدة حدثت في فجر الإسلام وعصور الخيرية الثلاثة التي تلته، التي نتفق جميعا على أنها حددت المنهج الصحيح لاستنباط الأحكام الشرعية من الذكر الحكيم ولكن هذا الاعتقاد لا يعني أن التاريخ يعيد نفسه، والناس نسخ مكررة عن تلك الحقبة من العصر الذهبي للإسلام.

والأنكى من ذلك والأمر أن السلفي المعاصر ولد دون رأي حر ومستقل، لأنه تربى على التلقين والتلقي والمشافهة والترديد والتكرار والاجترار، ولم يشجعه أحد منذ بدايته على إبداء الرأي المغاير والمبادرة، لأنه بدأ مقموعاً فكريا، خانعاً مسلوب الإرادة مرتهناً في تفكيره لغيره، شعاره الطاعة العمياء، فكيف تنتظر منه أن يكون له رأي مستقل ويبادر إلى تغيير المنكر في واقعه الحاضر، وهو يعيش في الماضي بأفكار من سبقوه، ويحتقر العقل والتفكير الذي لولاه لما عرفنا أن النقل هو الدين الحق؟ ولكن يبدو أن فاقد الشيء لا يعطيه، وهناك أزمة فكر وفهم في منهج التفكير عند أخينا السلفي الوهابي، فهو يردد ليل نهار أقوال مشايخه الأسلاف الوهابيين من السادة الكبراء تلاميذ محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدي، دون كلل ولا ملل وكأن تلك الأقوال هي والقرآن والسنة سواء بسواء.

نحن لا نفتري على أحد، إذ قلنا أنه كاذب من يقول أن السلفيين الوهابيين المعاصرين، يعتمدون على الكتاب والسنة فقط، باعتبار أن الرسول وحده دون سواه أوحي له القرآن وفهمه، وبعث لينقل للناس رسالة خالقهم، ويعلمهم الحكمة وهي استنباط الأحكام من الرسالة ليتم الاحتكام إليها والحكم بها، بل إن السلفيين الوهابيين يعتمدون على بعض منتقين من شرّاح البخاري ومسلم وأصحاب السنن، ويعتمدون على بعض مفسري القرآن اعتماداً كليا، وكلهم بشر غير معصومين من الخطأ، فكيف يرتهن أحدهم بأفكاره ومعتقده على من كُتب عليه السهو والخطأ والنسيان، وغير المبرأ من التدليس والتلبيس؟، وفي الأخير يقول لك السلفي الوهابي المعاصر أنا أفهم الكتاب والسنة على فهم السلف، مع أن القرآن الكريم لم ترد فيه آية يقول الله فيها : أفلا يتدبرون القرآن على فهم السلف، والأسلاف القدماء رحمهم الله! منعوا تلاميذهم من تقليدهم وقالوا لهم خذوا من حيث أخذنا (أي القرآن والسنة)، ولا تقلدونا ولا تقلدوا الثوري ولا الأوزاعي ولا الشافعي ولا مالك ولا ابن حنبل، وإخواننا السلفيون الوهابيون المعاصرون يقولون لنا هذا الكلام، ولكنهم لا يطبقونه في أنفسهم بل يفعلون عكسه، فمن شب على شيء شاب عليه كما يقول المثل، وهم يعلمون أن التقليد دون تمحيص واع لا يكون إلا للإنسان الذي في عقله خفة وسفه، والذي هو جاهل وعاجز لا يعلم من القرآن والسنة إلا أماني، كما قال جهّال أهل الكتاب من اليهود، ولا يجوز تقليد العلماء إلاّ لمن لا يستطيع الفهم ولا الفقه ولا يستطيع أن يتدبر أمور الدنيا والدين والعاجز عن الاستنباط ومعرفة الحلال والحرام البين والواضح، فالاجتهاد واجب على كل مسلم ومسلمة، بل لا يجوز التقليد إلا باجتهاد في البحث على من يمكن تقليده، أما من يستطيع تدبر كلام الله وسنة نبيه، الحصيف في رأيه وليس عنده زيغ ولا ميل ولا انحراف فينبغي له أن يبحث عن الحق في مظانّه، ولا يرهن تفكيره لغيره ومتى ما وجد الحق اتبعه، لأن الإجماع هو ما وافق الحق وإن كنت وحدك.

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ :٤٦]. وليس هناك تناقض بين العقل والنقل لأن النقل الصحيح لا يناقض العقل الصريح كما ورد عن أغلب العلماء السابقين المحققين رحمهم الله!.

لقد شبه حجة الإسلام الغزالي العقل مع الوحي بأنهما نور على نور، ولم يخاطب الله سبحانه وتعالى في القرآن إلا العقلاء، لا المجانين ولا فاقدي البصر والبصيرة المرتهنين بعقولهم للآخرين ومسلوبي الإرادة والقوة، ورسولنا الكريم يقول: «المؤمن القوي عند الله خير من المؤمن الضعيف»، والضعيف هو الغير واثق من نفسه البليد في إيمانه، فهو الضعيف مادياً ومعنوياً، ولا شك أن الذي يلغي عقله وتفكيره يلغي حريته وآدميته وإنسانيته، لأنه يحتقر عقله، ويحتقر من يفكر ويتدبر ويتأمل ويتعظ، وينزل إلى مرتبة البهائم والدواب غير المكلفة.

إن السلفي الوهابي المعاصر في أمتنا يطبق شعار: (أطفئ سراج عقلك واتبعني)، وهذا الشعار كان شعار الكنيسة المسيحية في القرون الوسطى في أوروبا، وهذا السلفي جعل من السلف الصالح رضوان الله عليهم كالباباوات والأحبار والرهبان الذين إذا ربطوا شيئاً في الأرض فقد ربطه الله في السماء، لأنهم يعتقدون بأن الباباوات ورجال الدين يمثلون الله في الأرض، ويتكلمون نيابة عنه.

إن مشكلة السلفي الوهابي المعاصر من بني ملتنا في أنه يعتمد في منهج تفكيره على الثقة وليس على الدليل كما يعتقد، ونسي أن العلماء الأسلاف هم حمّالوا أدلّة، وليسوا أدلّة، فالحامل للدّليل ليس كالدّليل، والرجال يعرفون بالحق وليس العكس، (أعرف الحق تعرف أهله) كما قال الإمام علي كرم الله وجهه، وليس العكس أيضاً !.

إن السلفيين الوهابيين كما هو واضح من اسمهم وصفتهم، التي تدل على أنهم اقترضوا وتسلّفوا واستعاروا من أسلافهم وآبائهم وأجدادهم عقولهم، ومنحوا فكرهم فرصة التقاعد، وعطلوا العقل فذبل وأصابه الضمور والضعف والخور، حتى تكلس وصدئ وتحجر، فصار لا فائدة مرجوة منه، وأصبح أصحابها نسخاً مكررة لخير سلف عرفه التاريخ الإسلامي وهم حسب اعتقادهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدي وتلاميذه.

لا ينكر إلا من دمر الغبش بصيرته فرانت الجاهلية على عقله وتنكبت أفكاره جادة الصواب، أن العقل ينشط ويزدهر بالإطلاع على كل الأفكار، دون إقصاء، بشرط قراءتها قراءة نقدية عالمة، وهذه المرتبة الأولى من مراتب العقل (العقل الكسبي) التي صنفها حجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي، يليها المرتبة الثانية للعقل وهو العقل الذوقي، الذي تربّى فيه العاقل على الالتزام بما عرف من الحق، ليصل بذلك إلى التقوى، في انتظار أن يمن عليه الله بالعقل الوهبي والعلم اللدنّي، (واتقوا الله ويعلمكم الله). فلا يكفي المجتهد قراءة باب واحد من أبواب العلم، بل يجب عليه الإحاطة بالمصطلحات والتاريخ واستخدام أدوات مساعدة شتى، وهو أمر لا يعترف به السلفيون الوهابيون جملة وتفصيلا. الذين يرون التاريخ على صورة مقلوبة، ولا يخرج المسلم المؤمن المتيقن، من محاورتهم ومحاولة فهمهم إلا بالإحباط والأسى وأحيانا العداوة، بسبب التكفير الذي يناله منهم إذا خالفهم؟.**!**

لا شك أن المسلم المؤمن طالب العلم لا يرى في التفاسير مثلا إلاّ مصادر يستأنس بها، فليست هي النصوص المقدسة؟، وليس كما يدعي السلفيون الوهابيون أنه كلما رجعت إلى الخلف عثرت على النصوص الأفضل، وهكذا فتفسير الطبري خير من ابن كثير، وابن عباس خير من الاثنين، لقربهم من مستودع الحقيقة النهائية..وهو أمر قد يمر على بعض العقول بإغراء مناسب، ولكن تأمله لا يقود إلاّ إلى كارثة فكرية؟، لأن القرآن تحتشد فيه مفاهيم كثيرة وضعت لتضيء حقائقها مع الزمن، وإلاّ اعتبرنا القرآن جاء محصورا لقوم بعينهم وزمن محدد، وهو قول لا يقوله نفس أنصار التيار السلفي الوهابي، وهو دليل جديد على الدوغمائية، أي عدم القدرة على اكتشاف التناقض داخل نفس الفكرة، والإصرار عليها إلى الرمق الأخير، حتى لو قامت كل الأدلة ضدها..والنكبة الأخرى هي الإبحار بزورق ضعيف كالجندول مصمم لجدول رقيق هادئ، في بحر لجِّيٍّ بدون بوصلة وإسطرلاب وخارطة ومتانة قادرة عل تجاوز أعتى الأعاصير المعروفة.

كوارث عقلية متراكب بعضها فوق بعض: تعطيل القرآن الدستور الأساسي للأمة وشريعتها، ثم إلغائه ونسخه وتجميد حركته مع الزمن من حيث لا يشعرون. وتعطيل عقلي في فهم حركة النصوص، والعلماء فقط هم الذين يعرفون أن هناك دوما علاقة بين الحكم والعلة، وأن الحكم يدور مع العلّة وجودا وعدما، وهو ما برع فيه علماء الإسلام قديما ويحتاج للتجديد، أي بناء الفكر الديني على نحو عقلاني معاصر، يستوعب المستجدات ويؤكد الأصول والثوابت، بتأسيس علم خاص يعمل على تجديد الاستنباط وعصرنته، وهو نفس الفكر الذي دفع الإمام أبوحنيفة النعمان في عصره وعن قصد، عدم اعتماد النصوص غير القرآنية إلا من خلال حركة العقل، وأن حديث الآحاد الذي هو أغلب الأحاديث يفيد (غلبة الظن) وهو بذلك لا يكون قطعيا، والمعنى الذي أراده (أبو حنيفة النعمان) بحركته العقلية لفهم النصوص والأحكام، في جو من العقلانية المنظّمة، كلفته حياته مسموما بعد السجن والتنكيل، في جو الاضطراب السياسي والاضطهاد العقلاني وطغيان السلطة واستبدادها، وقد تعرض منهجه العقلاني هذا إلى حرب شعواء شنت عليه من دعاة السلفية القدماء من الحنابلة الذين امتلأت كتبهم بوصف الإمام أبي حنيفة بأفظع النعوث، واتهامه بأبشع الموبقات، غلطوه وفسقوه بل وكفروه، دون دليل أو حجة غير تعقله في استنباط الدليل.

المؤلم حقا هو استمرار هذا النهج في الهيمنة على العقل المسلم، في أمة مصابة بفيروس السلفية الوهابية، التي انتشرت في ربوع الأمة الإسلامية بفعل السيطرة على مقدرات المسلمين المادية (النفط)، ومركزها المقدس(مكة والمدينة وكل الحجاز وبيت المقدس)، فلا شك أن هذا الفيروس أصاب الأمة بوباء فقدان المناعة الحضارية المكتسبة بالإسلام، فشلّت مقاومتها، وما لم تعيد الاعتبار إلى العقل المسلم والعمل على تحريره من أسر السلفية الوهابية، فلا يمكن التوقع بغير غرق العالم الإسلامي، ذلك الغرق الذي نرى بداياته اليوم، وهو يناقش مشكلة إرضاع المراهق، لرفع مشكلة الخلوة مع أجنبية، وهو أمر متوقع لقوم كفوا عن العمل واشتغلوا بالسفاسف والجدل السلفي العقيم

كما كانت نهاية بيزنطة، يناقشون في جو كسول رتيب، من الثرثرة المملة، عن جنس الملائكة؟ هل هم ذكور أم إناث؟، والشاب الذي يختلي بامرأة أجنبية عنده طريقة ممتازة لدفع الحرمة، وليس عليه سوى أن يلتقم ثدي تلك التي تعمل معه في نفس القسم، فيمصه، لتصبح المرأة حرام عليه لوجود نص بذلك؟!، بعد خلع النص من كل إحداثياته وتاريخيته، لنسبح في بحر غامض من النصوص، ولنفتري على الله الكذب وباسم الله ذاته.. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فهل حان الوقت لمراجعة مزعجة للتراث؟؟، ثم تنقيته من الأوبئة الفكرية الموروثة على امتداد التاريخ.

# رسائل السلام إلى من هداهم الله إلى طريق الإسلام

**مدخل في مفهوم الدين القيم :-**

الحمد لله الذي مهّد للإنسان طرق السلام، وجعل الشرائع السماوية مقدمةً لشرعة الإسلام، ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

والصلاة والسلام على من كان للسابقين إماما، وللآخرين حجة وشاهدا ومرامًا، عرّف له ربه سبحانه الإسلام والإيمان كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٤] وعلى آله أئمة الهدى الأعلام وأصحابه الطيبين الكرام ومن تبعهم بإحسان إلى يوم يبعث فيه الأنام.

أما بعد: فالإسلام هو الاستسلام لله سبحانه، وامتثال أمره، والتجرد عما سواه، حالاً ومقالاً، حسًا ومعنًى، واجتناب نهيه، والإيمان بغيبه، ورسله وملائكته، وكتبه، وقدره خيره وشره، حلوه ومره.

وبما أنه لا سبيل إلى معرفة ذلك كله إلاّ بواسطة نبي مبعوث من عند الله تعالى، كان التعريف الصحيح لدين الإسلام: «أن نؤمن بتعاليم خاتم الأنبياءﷺ ونعبد الله وفقًا لهديه» فكل من أعرض عن هدي النبي ولم يتخذه وسيلة(١) إلى معرفة الله تعالى ومعرفة شرعه ففي إسلامه دَخَنٌ، وإن ادعى أنه مطيع لله منقاد لشرعه.

**وإذا عرفنا هذا نقول:**

ليعلم أن جميع الشرائع السماوية السابقة جاءت ممهدة للرسالة الخاتمة، رسالة الأمن والأمان، والسلم والسلام، فقد كان الأنبياء يبعثون إلى مختلف أمم الأرض، كل نبي إلى أمة على حدة وكان يبعث في بعض الأحيان في أمة واحدة عدة أنبياء يأتي بعضهم تلو بعض، كما أن بعضهم ربما بعث إلى عدة أقوام، والإسلام وصفٌ لكل دين أتى به الأنبياء للأمم السالفة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]

وقال: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وما من نبي إلا وقد أوصى أتباعه وأبناءه بالإسلام كما تدل على ذلك آيات كثيرة في كتاب الله تعالى لأن الإسلام حقيقة واحدة في كل زمان وفي كل أمة رغم وجود بعض الاختلافات في طرق عبادتها وقوانينها الشرعية بحسب ما يتطلبه المقتضى لتلك المجتمعات آنذاك.

---

(١) وما الوسيلة إلا السبب المأذون به من الله الموصل إلى مرضاته التي تحقق به العبادة المشروعة حتى تكون هذه العبادة وسيلة إلى مرضات الله سبحانه وتعالى، فكل عبادة وسيلة، وليس كل وسيلة عبادة.

قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، قال الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربي قدّس الله سره، وهداهم من الله هو شرعه ﷺ ، أي الزم شرعك الذي ظهر به نوّابك (الأنبياء) من إقامة الدين، ولا تتفرقوا فيه، فلم يقل: فبهم اقتده بل بهداهم. وفي قوله: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ تنبيه على وحدة أصل الشرائع. وهو الدين، فهو مأمور باتباع الدين، فإن الدين إنما هو من الله لا من غيره. [ الفتوحات: ١/ ١٣٥].

قال المقريزي في كتاب إتحاف الأسماع: «قلت: هذا صحيح، فقد قال تعالى ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ﴾ ، وهداهم من الله وهو شرعه ﷺ، أي إلزم شرعك الذي أظهرته مع نُوابك من إقامة الدين وعدم التفرق فيه، ولم يقل سبحانه: فبهم اقتد، وكذا قال سبحانه ﴿ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا ﴾ [النحل: ١٢٣] وهو الدين، فإن أصل الدين إنما هو من الله تعالى لا من غيره، وأين هذا من قوله ﷺ: « لو كان موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعني؟»» فأضاف الاتباع إليه، وأمر هو ﷺ باتباع الدين لا باتباع الأنبياء، فإن السلطان الأعظم إذا حضر لا يبقي لنائب من نوابه حُكم إلا له، فإذا غاب حكم النائب بمراسمه، فهو الحاكم في الحقيقة غيباً وشهادة، مما قيل في شرفه:

**فإنك شمسٌ والملوك كواكب          إذا ظهرت لم يبدُ منهن كوكبُ**

فانظر ما أبدع هذا الفضل الذي لرسول الله ﷺ، الذي لم ينتبه إليه إلاّ من شاء الله، وقليل ما هم، والله يختص برحمته من يشاء.

وحينما بعث سيدنا محمد ﷺ إلى البشرية، وأتمّ الله به تعاليم الإسلام، ليكون للخلق شريعة ومنهاجًا، حازت رسالته الشمولية والعموم؛ لأن الخلق أصبح مهيئًا لذلك التلقي الذي أراده الله سبحانه وتعالى، وقد نسخ برسالته تلك جميع ما مضى من الشرائع السابقة، وأبقى منها ما اتفق مع أصوله المتسمة بالشمولية والواقعية.

كما قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقد تميز رسول الإسلام ﷺ عن الأنبياء السابقين عليهم السلام بتلك الصبغة، فهو خاتم النبيين؛ إذ لا نبي بعده، وقد كان الختم بين كتفيه كبيضة الحمام إشارة لاختتام الرسالة، وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين.

قال الحكيم الترمذي – رحمه الله تعالى- « فجمع الله تعالى أجزاء النبوة لمحمد ﷺ وتممها له وختم عليها بختمه ، فلم تجد نفسه ولا عدوه سبيلاً إلى ولوج موضع النبوة من أجل ذلك الختم» .

وقال السهيلي: «والصحيح أن الختم كان عند نغض كتفه الأيسر لأنه معصوم من وسوسة الشيطان، وذلك الموضع منه دخولهْ وبه جزم الجلال».

وقد تكفل الله سبحانه بحفظ رسالته إذ قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

وأما الأمم السابقة فقد أوكل إليهم حفظ شرائعهم كما قال سبحانه: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ إيذانا بحتمية مجيء رسالة الإسلام الناسخة الخاتمة. وقد حفظ رسولها من حظ الشيطان، فلم يجعل للشيطان عليه سبيلا؛ بأن أخرج منه ذلك الحظ الذي أعقمته عصمة الرسالة في النبيين، وقد كان الشيطان يلقي بذلك الحظ في قلوب الأنبياء والمرسلين السابقين فينسخه الله إشارة أخرى بنسخ شرائعهم، أما النبي ﷺ فلم يجر عليه ذلك إيذانا بأن شريعته ناسخة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج: ٥٢].

وقد سمي أميًا لما يقتضيه مقام رسالته، حيث إنه أعطي ذات العلوم، وحاز الإمامة في كل مقام، فكان بذلك إمام الأنبياء والمرسلين وخاتم النبيين، ومن أعظم مظاهر ذلك المقام عدم القراءة والكتابة؛ لأن القراءة والكتابة أداة للتعليم، والنبي ﷺ غني عن ذلك بما آتاه الله من المعارف والفهوم ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣].

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ٦].

## الدخول في الإسلام اختياري:

وطريقة الدخول في هذا الدين مؤسسة على الاقتناع والاختيار، لا على الإكراه والإجبار، والبطش والإصرار لقوله سبحانه: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. ولكل أساس من تلك الأسس أركان، وفيما يلي بيان موجز لتلك الأركان.

# الباب الأول : العقائد

**أولا: الإيمان بالله تعالى:**

فأول واجب على العبد أن يعلم بأن لهذا الكون خالقا مبدعًا، خلقه لا لاحتياجه إليه فلو لم يرده لما أبداه، وهو غني عنه وعن كل شيء ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨]، وأن الخلق محتاجون إليه سبحانه، وأنه واحد أحد فرد صمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. وله أسماء مقدّسة وصفات عليّة أمرنا سبحانه أن نؤمن بها.

والدخول في هذا الدين يتحقق بالتلفظ بكلمة الشهادة: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

ومعنى لا إله إلا الله: أن ليس في هذا الكون أحد جدير بأن يعبده الخلق ويسجدوا له ويدينوا له بالطاعة والعبادة ويستعينوا به ويدعوه إلا الله تعالى، فما لهذا الكون من مالك ولا حاكم إلا هو وحده سبحانه ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٥]، وكل شيء مفتقر إليه، مضطر إلى معونته، وهو سبحانه مهيمن على الحواس، ويعجز العقل الإنساني عن إدراك ذاته العليّة المقدسة.

فذات الله تعالى، ذات عليّة عزّ أن تدركها العقول، وجلّ أن تجول فيها الفهوم والأفكار، لا يتعلق بكنهها حديث العلم ولا قديمه، ولا يجمعها لطيف الحد ولا عظيمه، ذات أزلية قديمة، لا تشبه شيئا، ولا يُشبهها شيء، قال الله تعالى:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص].

وهو سبحانه وتعالى قائم بذاته، غني عن خلقه بأسمائه وصفاته. والواجب على كل مسلم أن يعتقد أن الله تعالى متصف بصفات تتناسب مع ذاته المقدسة.

وصفاته سبحانه وتعالى التي يجب الإيمان بها تفصيلا عشرون صفة هي: «الوجود، والوحدانية، والقدم، والبقاء، وقيامه بالنفس، ومخالفته للحوادث، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، والقدرة، والإرادة»، وكونه تعالى «عليما، حيًا، سميعاً، بصيراً متكلمًا، قادراً، مريداً».

وما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من نصوص توهم تشبيه الخالق بالمخلوق كاليد والعين والقدم والروح وغيرها، فالأصل فيها التفويض مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد، ولا تسمى صفات؛ لأن الصفات تكون بالمعاني لا بالجوامد والجوارح كما هو معروف في لغة العرب.

**ثانيا: الإيمان بالملائكة:**

وهو الركن الثاني من أركان الإيمان والملائكة خلائق نورانية، فطروا على أن لا يعصوا لله أمراً، ويفعلوا كل ما يؤمرون به، وهم من رسل الله في التقدير والتدبير، ويقومون بأوامره حق القيام. وهم خلق لا يحصون ولا يموت أحد منهم قبل النفخ في الصور، ولهم لمّاتٌ نورانية للأصفياء والصلحاء.

قال تعالى في وصفهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وهم منقطعون دائما إلى العبادة.

ومن الملائكة رسلٌ وسطاء في تبليغ رسالات ربهم لخلفاء الله في أرضه الذين حقت خلافتهم، وصدق سعيهم، وهم الأنبياء والرسل، يلقون على الناس ما جاءهم به الوحي إرسالاً أو إلهاما، قال تعالى:﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١] وانقطع الوحي بانقطاعهم، وسبب الانقطاع تمام الرسالة بكل ما من شأنه إنقاذ الخلق من سخط الله تعالى والأخذ بأيديهم إلى مرضاته، وقد يلهم الله بعض خلقه من الأصفياء والصديقين والصلحاء، والإلهام بمثابة التوجيه لما فيه السداد والخير والتوفيق للمسلم بما يتطلبه الواقع. فهم بقية الله سبحانه وتعالى بحكم الواسطة (١)لإصلاح خلقه فرادًا وجماعات.

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات – أي الرؤيا- الصالحة». أخرجه ابن ماجه بإسناد صحيح.

وقال أيضا: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة» أخرجه ابن ماجه والترمذي وغيرهما.

وقال أيضا: «قد كان في الأمم محدّثون- يعني ملهمون – فإن يكن في أمتي أحد فعمر بن الخطاب». أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.

قال الحكيم الترمذي – بعد أن أخرج هذا الحديث بنحوه- في تعريف المحدّث ما نصه: «هو من يدعو إلى الله عز وجل على سبيل تلك الشريعة ويدلهم عليها وما يرد عليه على لسان الحق عند الله تعالى، هو بشرى وتأييد وموعظة ليست بناسخة لشيء من الشريعة بل هي موافقة لها، وما خالفها فهو وسواس».

هذا وقد يدّعي بعض الناس الإلهام ولكننا نجتلي هذه الدعوى بأن لا تخالف ما بين الدفتين في القرآن الكريم، وأن يكون صاحبها مشهوداً له بالصدق والاستقامة ويتحقق فيه ما ورد في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ [فصلت: ٣٠ ] .

وقوله تعالى﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٣-٧٦].

ومنتهى غاية الرسل: إيصال الخلق إلى مقام الربانية ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

قال الإمام الرازي في تفسير هذه الآية « كانوا يعلمونه في أنفسهم ويعلمونه غيرهم... حيث إن الربانيين لا يكتفون بالعلم حتى يضموا إليه التعليم لله تعالى في إرشاد الناس إلى طرق الخير، وبالجملة بأن يكون الداعي له في جميع الأفعال طلب مرضاة الله تعالى، والصارف له عن كل الأفعال الهرب من عقاب الله تعالى. وإذا ثبت أن الرسول يأمر جميع الخلق بهذا المعنى، ثبت أنه يمتنع منه أن يأمر الخلق بعبادته، حيث إن الرسول يكون منتهى جهده وجدّه صرف الأرواح والقلوب عن الخلق إلى الحق، وبهذا يمتنع في أحد من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أن يأمر غيره بعبادته» انتهى بتصرف.

قلت: وقد جمع الإمام الفخر بهذا التأويل بين القراءتين المتواترتين (تعلِّمون) و(تعلَمون) حيث إن قراءة (تعلِّمون) يشير ظاهرها إلى التعليم قبل الدراسة بعد الإجماع على قراءة (تدرسون)، كما احتج بذلك أبو عمرو بقراءته (تعلَمون)، وردَّ ذلك بعدة وجوه وكلها بعيدة إلا ما ذكره الفخر.

وظهر لي معنى آخر يجمع بين القراءتين بل ويرجح قراءة الجمهور إذا أولنا بأن العلم في (تعلِّمون) هو العلم الوهبي الإلهامي، علموه فعرضوه على أصول الشريعة لدراسته. وقد جاء التشديد في تعلِّمون إشارة بتلازم العلمين الوهبي والكسبي، وأن العلم الوهبي محكوم بالشريعة الظاهرة في الكتاب والسنة.

قال أبو عبيد – عن قراءة التشديد -: لأنها تجمع المعنيين «تعلَمون» و«تدرسون»، قال مكي: التشديد أبلغ لأن كل معلِّم عالم بمعنى يعلم، وليس كل من علم شيئا معلّمًا فالتشديد يدل على العلم والتعليم، والتخفيف إنما يدل على العلم فقط.

قال ابن أبي جمرة: الرباني لا يخالف الكتاب ولا السنة فيجتمع له العمل بالعلمين اللدني والشرعي.

قلت: والربّاني: «هو من منَّ الله عليه بعلمي الظاهر والباطن» ، أي علم الحقيقة والشريعة، ويدل لذلك قراءة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ التي قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو، ونافع».

ومن الملائكة من يلازم الإنسان في كل حين من أحيانه، ويشهدون كل ما يأتي به من عمل حسن أو قبيح، ويسمعون ويسجلون كل ما يصدر عنه من خير أو شر. قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وعن الصحابي الجليل أبي هريرة – رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «قال الله عز وجل: إذا همَّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة. وإذا همَّ بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فإن عملها فاكتبوها عشراً» أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.

ومن الملائكة: الحفظة، قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾. [ الرعد: ١١].

**ثالثا: الإيمان بالكتب السماوية:**

فالركن الثالث من أركان الإيمان: هو أن نؤمن بما أنزله الله تعالى من الكتب على أنبيائه ورسله، فيجب علينا الإيمان بها إجمالاً، أما الكتب الأربعة فيجب معرفتها بالتفصيل وهي التوراة والإنجيل والزبور والفرقان؛ فقد أنزل الله تعالى التوراة على نبيه سيدنا موسى عليه السلام، والإنجيل على سيدنا عيسى عليه السلام- وهما يحملان كلام الله تعالى قبل تحريفهما من قبل بعض علماء اليهود والنصارى- والزبور على سيدنا داود عليه السلام، وأنزل صحفا على سيدنا إبراهيم عليه السلام، وأنزل القرآن الكريم على نبينا محمد ﷺ(وهو كلام الله سبحانه وتعالى أوحي به إلى سيدنا محمد ﷺ بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، وقد تعبَّد الناس بتلاوته، وتحدّى المشركين بأن يأتوا بسورة من مثله، وهو ليس بحرف ولا صوت.) وأما الكتب الأخرى التي أوتيها سائر الأنبياء نخبر عن أسمائها، وإن كان بعض العلماء ذكر أنها أربعة كتب ومائة، ونحن علينا أن نؤمن أن كل كتاب نزل من عند الله تعالى هو الحق.

**رابعا: الإيمان بالرسل:**

وهو أن نؤمن بأن لله رسلاً من خلقه معصومين مكلفين يفعلون ما أمرهم الله به من تبليغ رسالات ربهم، وهم شهداء على أممهم، وشفعاء لهم. وحقهم علينا تصديقهم والإيمان بهم وتعزيرهم وتوقيرهم. وحق الناس عليهم تبليغهم دعوة ربهم والدعاء لهم، فهم فرطهم وقادتهم إلى الله سبحانه.

وهو الركن الرابع من أركان الإيمان، وسنتحدث فيما يأتي عن عدة أمور:

**الغاية من إرسال الرسل:**

كان الناس أمة واحدة في معرفة الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣]. يعني على الإسلام والإيمان.

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو يعلى والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال: « كان الناس أمة واحدة» قال: على الإسلام كلهم. الدر المنثور للسيوطي (٥٨٢/٢). وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس قال: « كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين» قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله، « كان الناس أمة واحدة فاختلفوا». وقال أبي بن كعب مثل قول ابن عباس كما في الدر المنثور. وكان يقرؤها: «كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين» وأن الله إنما بعث الرسل، وأنزل الكتاب، بعد الاختلاف. ا.هـ.

فاجتالتهم الشياطين، وصدتهم عن الصراط المستقيم ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر: ٣٩]. فمن أجل هذا بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين كما قال سبحانه ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩] ليدلوا الناس على الطريق المستقيم في معرفة المعبود بحق سبحانه وتعالى

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال رسول الله ﷺ لمعاذ: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل فإذا عرفوا الله فأخبرهم...» الحديث، أخرجه مسلم في كتاب الإيمان.وتحقيق مراد الله من خلقه كما قال سبحانه ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فقد بينت هذه الآية مسؤولية الرسل في توجيه تلك الأمانة التي فرضها الله على الإنسان.

ومعنى الأمانة: هي قدرة ما أقدرك الله عليه- أيها الناس- فمن أدى ما في وسعه فقد أدى الأمانة، ومن لم يؤد ما في وسعه فقد خان الأمانة، وأساسها إعمار الأرض بما ينفع الخلق تحقيقا للإستخلاف، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٣٠]، وقد جاءت الشرائع السماوية معرّفة على هذه الأمانة بقانون سماوي متكامل، وضمّنت الثواب في صدق أدائها المتحقق بالجودة والإتقان، ليساهم ذلك الإلتزام الأخلاقي في إصلاح قلب العبد، حتى يبلغ درجة الإنابة إلى الله تعالى، ويكون قد حقق مراد الله منه في ترجمة الخلافة في الأرض.

قال بعض المفسرين في تفسير هذه الآية: ﴿عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ يعني أمانة الخلافة والنيابة، وأردنا أن نحمل أعباء المعرفة والعبودية المشتملة على التخلق بالأخلاق الفاضلة الإلهية المستتبعة للتكليفات الشاقة الطبيعية لتحصل التصفية والتزكية من الأكدار المانعة عن الوصول إلى الملأ الأعلى... اهـ.

ومهمة الأنبياء: تبليغ دعوة الله بالحكمة والموعظة الحسنة المتمثلة في البشارة والنذارة اللتين يكسبهما المكلف من تعلم الكتاب والحكمة والتزكية.

**الحكمة في النبوة والرسالة:**

وقبل أن نشير إلى تلك الحكمة لا بد لنا من التعريف بالنبي والرسول فنقول:

النبي: هو إنسان أوحي الله إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه.

وأما الرسول: فهو إنسان أوحي الله إليه بشرع وأُمر بتبليغه.

قال الحكيم الترمذي: والفرق بين الرسول والنبي: الرسول: هو الذي يتنبأ ويرسل إلى قوم، يخبرهم ويؤدي الرسالة. والنبي: هو الذي يتنبأ ولا يرسل إلى أحد فإذا سئل أخبرهم، وهو في خلال ذلك يدعو الخلق إلى الله تعالى، ويعظهم ويبيّن لهم السبيل في شريعة الرسول... أي يتبع شريعة ذلك الرسول ويدعو الخلق إلى تلك الشريعة.

والحكمة التي أرادها الله تعالى من النبوة والرسالة هي مدى تلقي خطاب الحق سبحانه في النفس البشرية، وتمرينها على هذا التلقي، فبدأ بالفردية، تمهيداً لجمعية التلقي، ثم بكلية التلقي، فالنبوة ممهدة للرسالة والرسالات ممهدة للرسالة الجامعة، فمقام النبوة حاز فردية التلقي، ومقام الرسالة حاز الجمعية، وأفردت الكلية بخاتم الرسالات سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فهو رسول العالمين، وأخذت رسالته هذه الصبغة، بأن تكون ناسخة للشرائع، وليس معنى النسخ تكذيب ما جاءت به تلك الأديان بل تتميمُ ما جاءت به. ويتلخص من ذلك أن الدعوات السابقة كانت مقتصرة على معالجة بعض القضايا المعينة، فجاءت أصول الرسالة المحمدية متكاملة المعاني وناسخة لما لا يصلح من الأحكام التي كانت تعالج أحوالاً تخصُّ قوما أو عشيرة ذات خصائص معينة ومع ذلك فأصول جميع الرسالات جاءت داعية إلى توحيد الله، وحاضَّةً على الإقبال على الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأداء الصوم والحج... وإن اختلفت أوقاتها، وتباينت صفاتها لتنظيم علاقة الفرد بربه.

**منزلة الأنبياء والرسل:**

النبيون والمرسلون هم المثل الأعلى، والأسوة الكاملة، والقدوة الحسنة للخلق، وهم رحمة وشفاء لأممهم، ونبينا محمد ﷺ - دعوة إبراهيم عليه السلام، حيث قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩] وبشارة عيسى عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الصف: ٦]، وهو ﷺ سيد الشفعاء، لأن دعوته للخلق عامة، ودعوة بقية الأنبياء والمرسلين خاصة في أقوامهم.

قال تعالى لنبيه موسى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ٥]. وقال سبحانه لنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم:١].

**طبيعة دعوة الرسل:**

دعوة الرسل على مدار العصور والأزمان واحدة، ومادام الرب سبحانه واحداً فغاية الرسل ودعوتهم واحدة.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقد اقتضت إرادة الله تعالى أن يأتي الرسل ممهدين ومبشرين بالرسول الخاتم، لما تقتضيه فطرة الله التي فطر الناس عليها، الهادفة إلى تتميم مكارم الأخلاق بالتدرُّج والترقي، إلى أن تصل إلى نهايتها. قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] وقال عليه الصلاة والسلام: « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ( أخرجه البيهقي وغيره).

**دعوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم والإقرار برسالته:**

يشترك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع الأنبياء والرسل جميعا في الدعوة إلى التوحيد، إلا أن هناك فارقا واضحاً وامتيازاً بيّناً بين دعوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ودعوة سائر الأنبياء والمرسلين الآخرين. ويظهر هذا الفارق في عموم دعوته صلى الله عليه وآله وسلم ، وكونها خاتمة الدعوات، فالأنبياء والرسل كانوا يبعثون إلى أقوامهم خاصة، وبعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى العالم أجمع، ودعوته جاءت خاتمة للرسالات والشرائع.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨] وقال أيضا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

قال الإمام الألوسي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية « ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ بما ذكر من الشرائع والأحكام وغير ذلك مما هو مناط لسعادة الدارين ومصلحة النشأتين، إلا أن الكافر فوت على نفسه الانتفاع بذلك، فلا يعكر في كونه صلى الله عليه وآله وسلم رحمة بالنسبة إليه ... كما أن الرحمة في حقهم أمنهم ببعثته صلى الله عليه وآله وسلم من الخسف والمسخ والقذف والاستئصال ثم بين رحمه الله: أنه عليه الصلاة والسلام سبب لوجودهم».

وقال إسماعيل حقي في روح البيان: « فإرساله إلى الوجود والشهود رحمة لكل موجود، وكونه كون الخلق وكونه سبب وجود الخلق وسبب رحمة الله على جميع الخلائق فهو رحمة كافية ... ثم قال: ابتداء الوجود رحمة وخاتمته رحمة، قال الشيرازي: « وبعث الأنبياء والرسل ليكونوا مقدمة لظهورك في عالم الملك والشهادة».

فمحمد صلى الله عليه وآله وسلم رحمة للبر والفاجر، فهو للمسلمين رحمة إمداد وإسعاد، وللكافرين رحمة إيجاد وإرشاد، وهو صلى الله عليه وآله وسلم رحمة في الدنيا باتباعه وتطبيق شرعه، ورحمة في البرزخ بعرض أعمال أمته عليه، قال عليه الصلاة والسلام: «حياتي خير لكم تحدثون ويُحدَث لكم فإذا أنا متُّ كانت وفاتي خيراً لكم تعرض علي أعمالكم إن رأيت خيرا حمدت الله، وإن رأيت شراً استغفرت لكم» أخرجه البراز وقال العراقي: إسناده جيد، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

وهو صلى الله عليه وآله وسلم أمان للمسلم في قبره عند السؤال كما ثبت في صحيح البخاري، وهو أمانٌ لجميع الخلق في موقف الحشر، وذلك بالشفاعة العظمى للفصل بين الخلائق، وشفيع لأهل الكبائر من أمته، ووسيلة رفع الدرجات للمؤمنين في الجنة. ويجب على المسلم أن يؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم من ثلاثة وجوه:

١- أنه رسول صادق من عند الله تعالى.

٢- وأن هدايته كاملة، ليس فيها نقص ولا خطأ ولا تحريف أو تبديل.

٣- وأنه آخر نبي جاء للناس من عند الله تعالى إلى أمم الأرض قاطبة إلى يوم القيامة، ولا يتحقق إيمان المرء حتى يؤمن به صلى الله عليه وآله وسلم خاتما للأنبياء والمرسلين.

وبما أن رسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم باقية إلى يوم القيامة، فقد تكفل الله بحفظ أصولها: كتاب الله وسنته صلى الله عليه وآله وسلم. قال تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩].

والمراد بالذكر هنا: القرآن الكريم الذي بيّنت كثيرا من أحكامه وقضاياه السنة النبوية المطهرة... ومن هنا فقد تكفل الله تعالى بحفظ سنة نبيه ﷺ ضمناً، وذلك لأن حفظ المبيّن-يعني القرآن- يقتضي حفظ المُبَيِّن.

**خامساً: الإيمان باليوم الآخر:**

فالركن الخامس الذي أُمِرْنَا أن نؤمن به هو اليوم الآخر، حيث اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون هناك يوم آخر، لتحقيق العدالة الإلهية في الجزاء على الأعمال، لأن الدنيا دار عمل وتكليف، والآخرة ثواب وعقاب.

قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١].

ويجب على المسلم أن يؤمن بأن الله تعالى سيمحو هذا العالم، وكل ما فيه من الخلائق في يوم يعرف بيوم القيامة، ثم يحييهم سبحانه وتعالى مرة أخرى، ويخرجهم من قبورهم بعد أن يجمع أجزاءهم الأصلية، ويرد إليهم أرواحهم، ويوقفهم بين يديه، وذلك هو ما يسمى بالبعث والحشر. قال تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ **[الزلزلة]. وقال سبحانه** ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس: ٧٨-٧٩].

وقال أيضا: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف: ٤٧-٤٩].

ثم يحاسبهم تعالى جميعا على ما كسبوه في حياتهم الدنيا من خير أو شر، بدون نقص ولا زيادة. قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وهو سبحانه يزن لكل واحد من العباد أفعاله من حسنات وسيئات.

قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]

كما يجب على المسلم أن يؤمن بحوض المصطفى ﷺ.

وبالصراط وهو جسر ممدود على متن نار جهنم يرده الأولون والآخرون، من خلص منه دخل الجنة. ويجب أيضاً الإيمان بالجنة دار النعيم. وبالنار دار العذاب، وأنهما موجودتان الآن، وقد أعدهما الله تعالى لجزاء الناس على أعمالهم من خير أو شر.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣١-١٣٣].

سادساً: الإيمان بالقدر خيره وشره

والقدر: هو ماسبق في علم الله تعالى من جميع أمور الخلائق صغيرها وكبيرها، فعلمه تعالى محيط بكل شيء ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

ويجب على المسلم أن يؤمن بأن كل ما يصيب الإنسان هو من عند الله، وأنه مسير في الإرادة الكونية، مخير في الإرادة الشرعية ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان:٣] والعبد مسير لما خلق له، والعبرة بالخواتيم، والتسليم والرضا بقضائه، وتقديره فيها، وأن يكون صابراً على الضراء، شاكراً على السراء، قال رسول الله ﷺ: «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.

وبعد هذا كله أقول: هذه الأركان الستة التي مرَّ الحديث عنها هي العقائد التي بنى عليها الإسلام، وقد لخصت في كلمة واحدة هي «لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ».

فإذا قلت: « لا إله إلا الله» صدّقت بأن «محمداً ﷺ هو رسول من الله إلى عباده»، والذي يستلزمه تصديقك بالرسالة المحمدية: أن تؤمن بكل ما بيّنه محمد ﷺ عن وجود الله تعالى، وصفاته، وملائكته، وكتبه، وأنبيائه، وشرائعه واليوم الآخر، وتسلك الطريق التي هدى إليها لعبادة الله واتباع أحكامه واوامره.

**أمور مهمة لمن يدخل في الإسلام:-**

إن الدخول في الإسلام لمن كان على غيره، أو لم يكن على شيء، تلزمه بأمور، منها:

أولا: إن كان قبلُ نصرانياً، فعليه أن يشهد ويعتقد بالإضافة لشهادتي الإسلام أن المسيح عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه. وليس ابن الله كما تقول النصارى، قال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ﴾ إلى أن قال: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [مريم: ٣٤-٣٦].

وأن مريم عليها السلام ليست أمًا للإله وإنما هي صدّيقة صالحة أحصنت فرجها ونفخ الله فيها من روحه، فأنجبت نبيه وكلمته عيسى عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة:٧٥].

وإن كان قبل يهوديًا فعليه أن يعتقد ويشهد مع شهادتي الإسلام بأن العزير ليس ابن لله، بل هو عبد صالح من عباد الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠].

فعقيدة الإسلام واضحة صريحة بأن الله لا شريك له، ولم يكن له والد، كما لم يتخذ صاحبة ولا ولداً. قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص].

ثانيا: ويجب عليك بعد أن أعلنت الشهادة ما يجب على كل مسلم مكلف من الصلاة مع فورية أدائها بشرائطها المذكورة، وتأثم بتأخيرها. وإن أسلمت حائض فلا تلزمها إلا بعض انقضاء حيضها. هذا بالإضافة إلى سائر أحكام الإسلام من زكاة، وصيام، وحج... عند تحقق شروطها.

ثالثا: يجب عليك الاغتسال، مخافة أن يكون عليك جنابة سابقة، وذلك لحديث أبي هريرة ﷺ أن ثمامة بن آثال الحنفي أسر، وكان النبي ﷺ يغدو إليه فيقول: «ما عندك يا ثمامة؟» فيقول: إنْ تَقتُل تَقتُل ذا دم، وإن تمْنُنْ تمنن على شاكر، وإن تُرِدِ المال نُعْطك منه ما شئت، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحبون الفداء ويقولون: ما نصنع بقتل هذا؟ فمر عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأسلم، فحلّه وبعث به إلى حائط [بستان] أبي طلحة، وأمره أن يغتسل فاغتسل وصلى ركعتين، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد حَسُنَ إسلام أخيكم». [رواه أحمد].

رابعا: ومن الأحكام التي ينبغي عليك أن تعلمها، أنك إذا ما دخلت في الإسلام، وأبت زوجتك أن تسلم، وكانت مشركة غير كتابية، فإن عقد الزواج بينكما يفسخ، وتنتهي العلاقة الزوجية بينكما بعد انقضاء العدة، فإن دخلت زوجتك في الإسلام أثناء العدة، فإنها تعود إلى عصمتك بخلاف ما إذا كانت زوجتك كتابية فإن العقد بينكما يبقى صحيحاً كما هو؛ إذ أنه يصح العقد صحيحاً إن أسلمت معك.

خامسا: كما يسن لك بعد دخولك في الإسلام الاختتان؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد [حلق العانة]، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط، وقص الشارب» [أخرجه البخاري ومسلم].

سادساً: ويحرم عليك تناول لحم الخنزير لأن الله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣ ﴾ [البقرة: ١٧٢-١٧٣].

**سابعا:** ويحرم عليك شرب الخمر والمسكرات بأنواعها؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١ ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

# الباب الثاني : العبادات

بعدما تبين لك أن دين الإسلام أسس على قاعدة الحق، وأقيم على دعائم اليقين، وأشرقت شموس البراهين الساطعة في ضميرك، ناطقة بصدق النبي الأكرم، والرسول الأعظم خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبعد ما اتضح لك ما يُحتِّمه دين الإسلام على معتنقه من الاعتقاد، أذكر لك خلاصة ما يوجبه عليك من العبادات التي تنظم معاملة الإنسان مع خالقه سبحانه وتعالى فأقول بادئ ذي بدء:

العبادة: هي القيام بمقتضى العبودية لله سبحانه وتعالى، وذلك بتمام الخضوع، والطاعة والامتثال للخالق فيما أمرنا به بواسطة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم. ويمكن للمسلم أن يحوّل كل حركة من حركاته ونفس من أنفاسه إلى عبادة يتعبد بها ربه سبحانه وتعالى ويستعينه إذا ما وطد نيته على ذلك، حيث إن كل عمل إرادي (النية) في ديننا يتوجه به العبد فهو عبادة بمعنى العودة لله والإستعانة به؛ لأن العبادة تنقسم إلى عبادة توفيقية فرضت بالهدى الإلهي، وإلى مباحات تنقلب بالنية إلى عبادة.

وقد أبان لنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصول الإسلام الذي أرسله الله به رحمة للعالمين، لإصلاح حالهم في الدنيا والآخرة، بقوله «بني الإسلام على خمس:

١- شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

٢- وإقام الصلاة.

٣- وإيتاء الزكاة.

٤- وصوم رمضان.

٥- وحج البيت من استطاع إليه سبيلا» .

فالشهادة: هي الركن الأول من أركان الإسلام، وبها يتحقق دخول المرء في حظيرته ، كما سيأتي بيان ذلك لاحقاً.

والصلاة: هي الركن الثاني من أركان الإسلام، وهي أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم، والصلاة في الإسلام لها منزلة لا تعدلها منزلة عبادة أخرى، فهي عماد الدين الذي لا يقوم إلا به، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله» أخرجه الإمام أحد في مسنده.

وهي أول ما أوجبه الله تعالى من العبادات، تولى سبحانه إيجابها بمخاطبة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة المعراج من غير واسطة. قال أنس بن مالك ط: فرضت الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة أسري به خمسين، ثم نقصت حتى جعلت خمساً، ثم نودي: يا محمد، إنه لا يبدل القول لديّ، وإنّ لك بهذه الخمس خمسين. رواه أحمد والنسائي والترمذي وصححه.

وهي أول ما يحاسب العبد عليه يوم القيامة، فإن صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله، كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد بلغ من عناية الإسلام بالصلاة أن أمر بالمحافظة عليها في الحضر والسفر، والأمن والخوف ولم يعذر أحداً في تركها، قال تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣٨-٢٣٩].

وشدّد النكير على مَنْ يفرّط فيها، وهدد الذين يضيعونها، فقال سبحانه: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم: ٥٩].

والزكاة: اسم لما يخرجه الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء والمساكين وغيرهم ممن يستحقونها، وسميَّت زكاة لما يكون فيها من رجاء البركة، وتزكية النفس، وتنميتها بالخيرات. قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وهي الركن الثالث من أركان الإسلام وقد قُرنت بالصلاة في كثير من المواطن في القرآن الكريم. ومما جاء في الترغيب في أدائها قوله سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات: ١٥-١٩].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «من أدّى زكاة ماله ذهب عنه شره». أخرجه الطبراني.

وقوله: «إن الله عز وجل يقبل الصدقات، ويأخذها بيمينه فيربّيها لأحدكم كما يربّي أحدكم مُهره [ولد الفرس] حتى إنّ اللقمة لتصير مثل جبل أحد». (أخرجه أحمد والترمذي وصححه).

والصيام: هو الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس مع النية.

وهو الركن الرابع من أركان الإسلام، أوجبه الله تعالى على المسلم العاقل البالغ الصحيح المقيم، ويجب أن تكون المرأة طاهرة من الحيض والنفاس.

وقال الله سبحانه وتعالى في إيجابه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣].

وقال أيضا: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة:١٨٥].

ومما ورد في فضل صيامه قوله عليه الصلاة والسلام: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفّرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر». (رواه مسلم).

وقوله ﷺ: «من صام رمضان إيمانا واحتسابا غُفر له ما تقدم من ذنبه». (رواه أحمد وأصحاب السنن).

وقوله ﷺ: «من صام رمضان وعرف حدوده، وتحفظ مما كان ينبغي أن يتحفظ منه كفّر ما قبله». (رواه أحمد والبيهقي بسند جيد).

الحج: هو قصد مكة لأداء عبادة الطواف والسعي والوقوف بعرفة وسائر المناسك، استجابة لأمر الله، وابتغاء مرضاته.

وهو الركن الخامس من أركان الإسلام، وفرض من الفرائض، فلو أنكر وجوبه منكر كفر وارتد عن الإسلام كسائر الأركان السابقة.

وقد رغب النبي ﷺ في أدائه، فعن أبي هريرة ﵁ قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال:«إيمان بالله ورسوله» قيل ثم ماذا؟ قال:«ثم جهاد في سبيل الله» قيل ثم ماذا؟ قال:«الحجٌ المبرور». (رواه البخاري).

وقال أيضاً: «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه». (رواه البخاري ومسلم).

وقال أيضا: «الحجاج والعمار وفد الله، إن دعوه أجابهم، وإن استغفروه غفر لهم». (رواه النسائي وابن ماجه).

هذا ولا يكون الإنسان تامّ الطاعة لمولاه، أهلاً لأن يتفضل عليه بما أعده لعباده الطائعين من النعيم الدائم، إلا إذا أذعن بقلبه، واعترف بلسانه بالعبودية، وصدّق بجوارحه ووقف خاشعاً وقفة العبد الخاضع في حضرة الملك العظيم القادر، يخشى انتقامه، ويرجو فضله، وهان عليه بذل نفسه وماله وفراق أهله فيما يرضي ربه تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة: ٢٤].

ولا يسعد المجتمع إلا إذا أذعن أفراده، واعتقدوا أن لهم إلهاً قادرا مقتدراً يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، إليه مرجعهم جميعا فينبئهم بما عملوا فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره. أرسل إليهم رسوله صلى الله عليه وآله وسلم يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث.

فذلك اليقين هو الذي يمنع الإنسان عن الشر، ويحمله على عمل الخير، سراً وعلناً، وهذا الاعتقاد هو الذي يجعل المجتمع كتلة واحدة- مصداقاً لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» (أخرجه البخاري) ويجعله محل الرأفة والرحمة والتعاون، مع الإخلاص الذي لا يتم العمل بدونه، إذ الرقيب مطلع على خفايا الصدور- لا مجتمع التعالي، والغلظة، والتقاطع، والغش، والخداع، ومحبة الذات.

والدين إنما جاء لإسعاد الناس في الدنيا والآخرة، ولكن سعادة الفرد لا تتم إلا بسعادة المجتمع، الذي هو جزء منه، وتتحقق تلك السعادة إذا جاهد الإنسان نفسه، ونسي أنانيته، واستسلم لأوامر الله تعالى، وكان ممن قال الله في شأنهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾[التوبة: ١١١] فبذا يسعد المجتمع، وينال الخير في الدنيا والآخرة، والعيان أكبر شاهد على ذلك، فنظرة في تاريخ المجتمع الإسلامي الذي كان هذا شأنه يجعل الإنسان يؤمن بهذا الدين القويم، ولا يرتاب في صحته، وأنه يقوم عليه بنيان السعادة، التي تترتب على اتباعه خير قيام، لذلك نعود إلى موضوعنا، وهو بيان أركان الدين، فنقول:

**الركن الأول: الشهادة:**

وهي الإذعان بالقلب، مع الاعتراف باللسان بأن الله سبحانه وتعالى هو المستحق للعبادة وحده، وأنه الفاعل المختار المتصرف في جميع الشؤون من غير ناصر ولا معين، وأنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وبأن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فكل ما يتلفظ به صادر عن الوحي، وكذلك كل ما يخبر به عن الله إذ العالم بأسرار الكائنات هو الذي اختاره من بين سائر المخلوقات.

**الركن الثاني: الصلاة:**

وهي أفعال وأقوال من العبد بها يظهر خشيته وخضوعه لمولاه، ويسأله الهداية، ويستعيذه من الضلال والغواية.

ولها شروط تتقدمها، يقتضيها ذلك المقام الجليل، والموقف العظيم، موقف مناجاة العبد لربه، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

شروط الصلاة هي:

- العلم بدخول الوقت.
- طهارة البدن والثوب والمكان من النجاسة.
- ستر العورة.
- استقبال القبلة.
- الوضوء .

هذا إجمال بيان الشروط التي يلزم أن تتحقق قبل الشروع في الصلاة، وهاك تفصيل ذلك:

**أولا: أوقات الصلاة:**

إن الله سبحانه فرض على كل مسلم مكلف خمس صلوات في كل يوم وليلة، وهي: الصبح، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، وحدد لكل فريضة منها وقتا يجب أداؤها فيه، فإذا أخرت عنه بلا عذر أثم المؤخر لها، وبقي مطالباً بها إلى أن يؤديها.

الصبح: وقتها من طلوع الفجر الصادق، وهو البياض المنتشر عرضاً في الأفق، إلى طلوع الشمس.

الظهر: وقتها من زوال الشمس عن وسط السماء إلى أن يصير ظل كل شيء مثله بعد الظل الذي كان له عند الزوال.

العصر: من آخر وقت الظهر إلى غروب الشمس.

المغرب: من غروب الشمس إلى مغيب الشفق الأحمر، وهو ما يبقي ظاهرا بعد غروب الشمس من الإحمرار.

العشاء: من مغيب الشفق الأحمر إلى طلوع الفجر.

**ثانيا : الطهارة:**

طهارة البدن بإزالة الحدث والخبث عنه، وطهارة الثوب والمكان بإزالة الخبث عنهما، فالطهارة: هي النظافة من الحدث والخبث.

الحدث وما يزيله: الحدث قسمان حدث أصغر وحدث أكبر.

الحدث الأصغر هو:

- ما خرج من أحد السبيلين ( القبل والدبر)، كالبول والغائط، والريح.
- زوال الإدراك بنوم، أو سكر أو إغماء، أو جنون.
- أن يمس الرجل المرأة البالغة غير المحرم بشهوة.

ويطهر البدن من الحدث الأصغر بالوضوء الذي سنبينه لك لاحقاً

وأما الحدث الأكبر فهو:

- خروج المني في نوم أو يقظة.
- التقاء الختانين ولو من غير إنزال.
- خروج دم الحيض والنفاس من المرأة.
- خروج الولد ولو كان من غير دم.

وتحصل الطهارة من الحدث الأكبر بالغسل، ويطهر كل منهما بالتيمم عند فقد الماء، أو عدم القدرة على استعماله، أو شدة أذى به، أو خوف مرض أو زيادته أو تأخر الشفاء منه.

وأما الوضوء فصفته: أن يغسل المتوضئ يديه إلى رسغيه ظاهراً وباطناً بالماء الطهور ثلاث مرات، بنية سنة الوضوء، قائلا: بسم الله الرحمن الرحيم.

ثم يغسل فاه ثلاث مرات، ثم يغسل أنفه ثلاثاً أيضا يجذب الماء بنفسه إلى حيث لا يضره وصول الماء، ثم يطرده بحركة زفيره. ثم يغسل وجهه ثلاثا أيضا، والوجه هو: ما بين منبت شعر الرأس المعتاد وأسفل الذقن طولاً، وشحمتي الأذنين عرضاً.

ثم يغسل يديه إلى آخر مرفقيه ثلاثا، مقدمًا اليمنى على اليسرى، مع الدلك، وهو: إمرار إحدى اليدين على الأخرى، ثم يمسح رأسه بماء جديد، ثم يمسح أذنيه بماء جديد، فيمسح بسبابتيه داخل أذنيه، وبإبهاميه ظاهرهما.

ثم يغسل رجليه إلى كعبيه ثلاثاً مقدمًا اليمنى على اليسرى، وبذا يتمُّ الوضوء.

**صفة الغسل:**

أن ينوي الغسل، ثم يغسل يديه، ويزيل ما على بدنه من نجاسة إن كانت، ثم يتوضأ، ثم يغسل رأسه ثلاثا ويخلل شعره، ثم يفيض الماء على بدنه ثلاثا، ويجب غسل كل ما أمكن غسله بلا مشقة من ظاهر بدنه ولا بد من دلك بدنه إن أمكن، إلا إذا كانت قوة دفع الماء شديدة فإنها تكفي عن الدلك.

**صفة التيمم المندوبة:**

أن يعمد المتيمم إلى ظاهر من جنس الأرض، كالتراب، والرمل، والحجر، فيضع كفيه عليه بنية أن الله تعالى يبيح له الصلاة، ثم يمسح بهما وجهه، ثم يضعهما ثانيا، فيمسح بكف اليسرى اليد اليمنى إلى المرفق، وبكف اليمنى اليد اليسرى إلى المرفق، فبذلك ترفع صفة الحدث المانعة من صحة الصلاة، فضلا من الله، وتخفيفا على عباده، ويقول أثناء نية التيمم: نويت استباحة الصلاة أو عبادة يشترط لها الطهارة.

**الخبث وما يزيله:**

**الخبث أو النجاسة قسمان: غليظة، وخفيفة:**

فالنجاسة الغليظة هي: الخمر، والدم المسفوح، ولحم الميتة وجلدها قبل دَبْغِهِ، وفضلات الحيوان الذي لا يؤكل لحمه، كالكلاب والوحوش ولعابها، وكل خارج من بدن الإنسان إن كان ناقضا للوضوء. وهو ما خرج من القبل والدبر والدم إلا ما عسر الاحتراز منه.

والخفيفة هي: بول الحيوانات التي يؤكل لحمها كالغنم، والبقر، والجاموس، وكذا بول الفرس والبغل وفضلات الطيور التي لا يؤكل لحمها، كالحداة والغراب، والصقر.

والفرق بين النوعين أن النجاسة الخفيفة إذا أصابت أقل من ربع البدن أو الثوب تصح معها الصلاة، والغليظة لا تصح معها الصلاة إذا زادت عن قدر الدرهم.

والدرهم في السائل يقدر بمساحة مقعر الكف، وفي غيره بالوزن، ومع هذا فالمصلي بأحدهما يكون مسيئاً لا محسناً.

**ماتُزال به النجاسة:**

الأشياء التي يحصل بها إزالة النجاسة خمسة:الغسل، والفرك، والدلك، واليبس، والمسح.

فالبدن والثوب إذا تنجسا بغير المني لا يطهران إلا إذا غسلا بماء طاهر، وهو ماء البئر وماء السماء وماء البحر، وماء النهر، وماء الثلج، وماء البرد، وماء العين التي تنفجر من نفسها. وإذا تنجسا بالمني فإن كان يابسا طهر كل منهما بالفرك، وإن كان غير يابس طهرا بالغسل.

والسيف والأواني الناعمة الملساء إذا تنجست تطهر بالمسح بخرقة نظيفة إذا كان الماء يفسدها.

والأرض إذا تنجست طهرت بيبسها، وذهاب أثر النجاسة بالنسبة للصلاة، أما التيمم فلا يصح عليها إلا إذا عمها الماء ثلاثا.

**كيفية إزالة النجاسة:**

إذا كانت النجاسة مجسمة طهر محلها بزوال عينها، فلا يضر بقاء أثر شق زواله كاللون والريح، وإذا كانت غير مجسمة طهر محلها بالغسل حتى تنظف.

**ثالثا: ستر العورة:**

وعورة الرجل ما تحت سرته إلى ما تحت ركبته، وعورة المرأة جميع بدنها، ما عدا الوجه والكفين وزاد الحنفية: القدمين.

**رابعا: استقبال القبلة:**

استقبال القبلة – وهي الكعبة- حيثما كان، من أول شروعه في الصلاة إلى فراغه منها بواسطة البوصلة أو النجم ليلا والشمس نهارًا أو باتباع غيره إن كان يجهل القبلة أو لا اعتناء له بها، وقبلة أهل المشرق غربية، وقبلة أهل المغرب شرقية.

كيفية أداء الصلاة:

تحتوي كل صلاة على أربعة أمور:

١- الإحرام.

٢- ركعتين أو أكثر مع ما تستدعيه الركعة من القيام والقراءة والسجود.

٣- التشهد.

٤- السلام.

**صفة الإحرام:**

أن يقف المصلي فاتحا قدميه بمقدار شبر أو أربع أصابع، ولا يلصقهما وأن يكون وقوفه في مكان طاهر، ساتراً عورته، مستقبل القبلة، طاهرا قاصدا الصلاة، ثم يرفع يديه حذاء أذنيه، قائلا: الله أكبر. ثم يضع اليمنى على اليسرى تحت سرته أو فوقها. والمرأة تضع باطن كفها اليمنى على ظاهر اليسرى، تحت ثدييها، أو أن يسدل يديه بجنبيه وهي صلاة أهل المدينة كما أخبر الإمام مالك ط وهي الهيئة الأصح عند المالكية.

**الصفة المندوبة للركعة وما يرتبط بها من القيام والقراءة والسجود:**

يقف المصلي على الحالة التي انتهى إليها من إحرامه، ثم يقول سراً: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ثم يقرأ الفاتحة وهي: {الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين} وسورة من القرآن، إذا كانت الركعة أولى أو ثانية، فإن كانت ثالثة أو رابعة اقتصر على الفاتحة، وإن ترك السورة في الأولى والثانية لم تبطل الصلاة وأن تكون القراءة جهرا في الركعتين الأولتين من صلوات المغرب والعشاء والصبح وأن تكون سرا فيما عداها.

ثم يركع وينحني، حتى يأخذ ركبتيه بيديه قائلا: الله أكبر حال انحنائه، فإذا أتم الانحناء قال: سبحان ربي العظيم ثلاث مرات. ثم يرفع من ركوعه حتى يستوي قائما قائلا: سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد، فإذا أتم الاستواء واطمأن سجد، فيضع ركبتيه على الأرض، ثم ينحني إليها فيضع كفيه موجهاً أصابعهما نحو القبلة، ثم يضع وجهه بينهما، ماساً الأرض بجبهته وأنفه، قاصدا الخضوع والتذلل لله سبحانه وتعالى، ويجافي بطنه عن فخذيه، وذراعيه عن ركبتيه، والمرأة تنخفض وتلصق بطنها بفخذيها قائلا: الله أكبر، حال انحنائه، فإذا وضع أعضاءه قال: «سبحان ربي الأعلى» ثلاث مرات، ثم يستوي من سجوده جالسا، فيفترش رجله اليسرى ويجلس عليها وينصب اليمنى، ويضع يمناه على فخذه اليمنى ويسراه على فخذه اليسرى، باسطا أصابعه، جاعلاً أطرافها عند ركبتيه قائلا: الله أكبر، فإذا اطمأن كبّر وسجد مرة أخرى، فإذا رفع من السجدة الثانية استوى جالسا إن كانت الركعة ثانية أو أخيرة، وقائما إن لم تكن كذلك. وهذا القدر يسمى ركعة.

**صفة التشهد والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم:**

إذا استوى المصلى جالسا بعد رفعه من السجدة الثانية، من ركعة ثانية أو أخيرة، استمر جالسا على هيئة الجلوس الذي بين السجدتين، وقرأ: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

فإن لم يكن التشهد في الآخر اكتفى بذلك وإلا زاد الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالصيغة الآتية: اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما بركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد. ولا بأس أن يقول بعد ذلك: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم والمؤخر لا إله إلا أنت»فقد ثبت في الصحيح أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يفعل ذلك.

**صفة السلام:**

بعد التشهد الأخير يلتفت المصلي إلى يمينه بوجهه وهو جالس كما قدمنا، قائلا: السلام عليكم ورحمة الله، ثم يلتفت إلى الجانب الأيسر، قائلا: السلام عليكم ورحمة الله كذلك، قاصدا الخروج من الصلاة.

ومن هذه الأمور تتكون ماهية الفرائض والسنن، وإن اختلفت في عدد الركعات.

وقبل أن أبين صفة أداء كل فريضة من الفرائض الخمس أبين سنة من سنن الدين، وأسّاً من أسس الفلاح في المجتمع الإنساني وتعارفهم واشتراكهم في اتحاد الوجهة، وذلك بأن يجتمع المصلون في مكان الصلاة، ويختاروا واحداً منهم يقف أمامهم ويصلي بهم، وهم يتقيدون بحركاته ، ويتحتم ذلك يوم الجمعة، فيجتمع أهل البلد في مكان واحد وقت الزوال، ويقوم فيهم إمامهم خطيباً، فيخطب خطبتين يحثهم فيها على مكارم الأخلاق، وعلى التعاون على مصالح الدنيا والآخرة، ويأمرهم بتقوى الله، ثم يصلي بهم ركعتين بنية صلاة الجمعة، بدل الظهر في ذلك اليوم، ويجتمع الناس للصلاة في المسجد إذا سمعوا الأذان، فهو للإعلام بدخول الوقت، وكيفيته أن يرفع المؤذن صوته بقدر الإمكان قائلا:

الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمدا رسول الله، أشهد أن محمدا رسول الله. حي على الصلاة، حي على الصلاة. حي على الفلاح، حي على الفلاح. الله أكبر الله أكبر. لا إله إلا الله.

فإذا اجتمع الناس للصلاة قام أحدهم وأقام الصلاة، وكيفية الإقامة كالأذان إلا أنها بصوت أخفض، لأنها لإسماع الحاضرين حوله، ويزيد بعد قوله: حي على الفلاح: « قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة»، وإن شاء أفرد كلمات الإقامة وذلك أفضل فيما عدا التكبير، فإذا أقيمت الصلاة تقدم الإمام، وشرع في الإحرام واصطف الناس وراءه وشرعوا معه متابعين له. وفيما يأتي بيان الصلوات الخمس المفروضة.

**صلاة الصبح:**

وهي ركعتان، فإذا أتمهما المصلي جلس وتشهد، وصلى على النبي عليه الصلاة والسلام، فإن صلى في جماعة صلاة جهرية فالإمام وحده هو الذي يقرأ والمأمومون يستمعون لقراءته.

فإذا كبر للركوع كبروا معه وتبعوه، فإذا رفع منه قال: سمع الله لمن حمده، وقال المؤتمّون: ربنا ولك الحمد، ثم تابعوه إلى كمال الصلاة.

وينبغي للمسلم أن يصلي ركعتين قبل صلاة الصبح، وإن كان لا يتحتم عليه ذلك، ولكنه مرغّب فيه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في فضلها: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها» [أخرجه مسلم والترميذي].

صلاة الظهر:

هي أربع ركعات سرا، فإذا أتم الركعتين الأوليين جلس وتشهد، ثم قام وأتى بالأخريين، وتشهد وصلى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وآله ثم يخرج من صلاته بالتسليم.

**صلاة العصر:**

صلاة العصر أربع ركعات سرا، كصلاة الظهر.

صلاة المغرب:

هي ثلاث ركعات الأولى والثانية جهرا ، يتشهد بعدهما، ثم يأتي بثالثة سرا يتشهد بعدها ويصلي على النبي وآلهﷺ ويسلّم.

**صلاة العشاء:**

هي أربع ركعات، كصلاة الظهر والعصر. إلا أن الركعتين الأوليين فيها جهرا

وقد طلب الشارع بعد صلاة العشاء أن تصلي ثلاث ركعات شفعاً ووتراً، ويصلي ركعتين قبل هذه الثلاث على سبيل الاستحباب.

**تنبيه:**

القراءة والتشهد والتكبيرات، وكل ما تقدم من الأقوال، يجب أن تكون باللغة العربية من القادر عليها، وغير القادر على العربية يأتي بدل القراءة بالتسبيح والتهليل حتى يتعلم نطق سورة الفاتحة بالعربية فإن تعلم سورة الفاتحة واجب على كل مسلم، والأولى أن تعرف صفة الصلاة نظرياً وعملياً وذلك برؤية المسلمين حين يصلون، أو بتعلم ذلك ممن يريك ذلك بالفعل لا بالقول، مع المحافظة على هذه الرسالة أو نحوها.

**فصل في سجود السهو:**

حكمه: سنة لا تبطل الصلاة بتركه عند الشافعية وعند المالكية تبطل إن كان مترتبا على ثلاث سنن فلم يسجد ويكون في الأحوال التالية:

أ- عند ترك مأمور به غير فرض أو ركن:

ب- فعل منهي عنه تبطل الصلاة، بتعمده.

ج- للشك في الزيادة أو النقص.

**٢- كيفية سجود السهو:**

سجود السهو سجدتان كسجدة الصلاة يسبح فيهما كتسبيح الصلاة أو يقول: سبحان الذي لا يسهو ولا ينام.

**٣- ترك المأمور به نوعان:**

- النوع الأول: ترك ركن ، وله حالتان:

- الأولى: إن ذكره في أثناء الصلاة وجب تداركه بالعود إليه مالم يأت بمثله ويسجد للسهو فإن كان قد أتى بمثله ناب ذلك المثل عنه، وأُلغِيَ ما بينهما، وأتى بركعة وسجد للسهو.

- الثانية: إن علمه بعد انتهاء الصلاة فله حالتان:

- الأولى: أن يطول الفصل أو يتكلم بكلام أجنبي كثير فعليه أن يعيد الصلاة لبطلان الصلاة الأولى(١).

- الثانية: أن لا يطول الفصل فيجب عليه أن يتداركه إن كان في الركعة الأخيرة، أو أتى بركعة ليتم بها صلاته، إن كان السهو في غيرها.

- النوع الثاني: ترك السنة – كترك القنوت أو التشهد الأول فيسجد لتركه عمداً أو سهواً. وعند المالكية لا يسجد لترك القنوت.

**٤- فعل المنهي عنه وله صور:**

- الأولى: أن تبطل الصلاة بفعله ككلام كثير أو حركات كثيرات فهذا لا يسجد له، لأن ذلك الفعل أخرجه من الصلاة فلم يكن مصلياً.

- الثانية: أن يبطل بعمده لا بسهوه كزيادة ركوع أو سجود فيسجد له.

- الثالثة: أن لا تبطل الصلاة بعمده، كالالتفات والخطوتين فلا يسجد له، ويستثنى من هذه الصورة نقل ركن قولي إلى غير محله..فيسجد له.

---

(١) طول الفصل يحده العرف، فما رآه الناس طويلا فهو طويل، أما الكلام الكثير فحده ست كلمات.

**٥- الشك في الزيادة أو النقص- وله أحوال:**

أ- إن شك في الزيادة سجد ترغيماً للشيطان.

ب- إن شك في النقص بنى على اليقين وهو الأقل فيأتي بالباقي ويسجد للسهو.

**٦- محله :(اختلف في محله):**

أ- فعند المالكية- يكون قبل السلام في حالة النقص وبعده في حالة الزيادة- وإن زاد ونقص فقبل السلام.

ب- وعند الشافعية قبل السلام مطلقاً.

ج- وعند الحنفية بعد السلام الأول، ويسجد ويقرأ التشهد من جديد ويسلم على اليمين واليسار.

د- وعند الحنابلة يجوز الأمران – قبل السلام وبعده – على المشهور.

**مسائل متفرقة:**

١- لو ترك التشهد الأول فله أحوال:

أ- أن ينتصب قائماً فلا يعود له، فإن عاد عالماً ذاكراً بطلت صلاته عند الشافعية؛ لأنه ترك فرضاً لسنة. وقد أساء عند المالكية مع صحة صلاته.

ب- إن كان جاهلا هذا الحكم، أو عاد نسيانا لم تبطل وعليه سجود السهو.

ج- إن لم ينتصب قائماً، ولكن كان إلى القيام أقرب يعود ويسجد للسهو.

د- إن كان للجلوس أقرب، عاد إليه ولا يسجد.

٢- لو نسي قنوتاً وذكره في سجوده لم يعد له، فإن تذكره قبل تمام سجوده، بأن لم يكمل وضع أعضائه السبعة عاد، ويسجد للسهو إن بلغ حد الراكع، هذا في حالة السهو كما تقدم، أما إن تركه عامداً فلا يعود إليه إذا بلغ حد الراكع فإن عاد بطلت صلاته وعليه سجود السهو ولا سجود لترك القنوت عند المالكية مطلقاً.

٣- لو شك في ترك فعل سجد، أو شك في ارتكاب منهي عنه فلا سجود، لأن الأصل عدم الفعل.

٤- لو سها وشك هل سجد أم لا؟ فليسجد لسهو السهو.

٥- ولو شك هل صلى ثلاثاً أو أربعاً؟ أتى بركعة وسجد؛ لأنه يبني على اليقين وهو الأقل ولو زال شكه قبل سلامه يسجد للتردد الذي حصل له في أثناء شكه.

٦- لو صلى متردداً واحتمل كونه زائداً فإنه يسجد لاحتمال الزيادة، أما إذا لم يحتمل كأن شك في ثالثة هي أو رابعة فتذكر فيها؟ لم يسجد، وأما إن تذكر في الرابعة سجد لتردده حال قيامه إلى الرابعة، هل هي الرابعة أو خامسة.

٧- لو شك في ترك فرض بعد السلام لا يسجد لأن الأصل مُضِيُّها على الصحه.

**- قاعدة: «سهو المأموم حال القدوة لغير الأركان يحمله الإمام، وأما بعدها فلا يحمله»، ويتفرغ عن هذه القاعدة مسائل:**

١- ظن المقتدي سلام إمامه فسلم فبان خلافه، سلم معه ولا يسجد، لأنه سها حال القدوة فيتحمله إمامه.

٢- لو تذَّكر في تشهده ترك ركن غير النية والتكبير قام بعد سلام إمامه إلى تداركه بركعة، ولا يسجد للسهو؛ لأن سهوه حال قدوته يتحمل إمامه، بخلاف ما لو شك في تركه بعد سلامه، فإنه يسجد؛ لأنه أتى به بعد سلام إمامه.

٣- لو شك المسبوق هل أدرك ركوع الإمام أم لا؟ قام وأتى بركعة وسجد للسهو للتردد فيما انفرد به، ولو تذكر بعد قيامه أنه أدرك الركوع، فيسجد كذلك لاحتمال الزيادة فيما فعله حال تردده.

٤- لو سلم المسبوق بعد سلام إمامه ظناً منه أنه قد أتم صلاته- فله صورتان:

- الأولى: أن لا يطول الفصل ولم يتكلم بكلام أجنبي، فعليه أن يتم صلاته ويسجد لسهوه، لأن سهوه كان بعد انقطاع القدوة.

- الثانية: أن يطول الفصل أو يتكلم بكلام أجنبي كثير فعليه أن يعيد الصلاة.

٥- من سُبق بركعة أو نحوها، وسجد إمامه للسهو فعليه أن يتابعه، فإذا فرغ من صلاته سجد لسهو إمامه لأن سجوده الأول كان لمجرد المتابعة. والله تعالى أعلم.

**تتمة:**

الشارع يندبك أيها المسلم إلى الطاعات في جميع الأوقات، ويعدك عليها بالأجر، مثل الرواتب فإذا استطعت أن تصلي قبل الظهر ركعتين أو أربعاً وركعتان بعده كذلك، وركعتان قبل العصر، وبعد المغرب ركعتين، واثنين بعد العشاء قبل الوتر، كان ذلك حسناً، وكلما زدت من نوافل الصلاة كان لك من الأجر بقدر ذلك، فإن في الإكثار منها مزيدَ خيرٍ لنفسك، وإقبالاً على ربك.

**الركن الثالث: الزكاة:**

وهـي مقـدارٌ مخصـوص مـن المـال يؤخـذ مـن أغنيـاء المسـلمين، ويصرف على فقرائهم، وذوي الحاجة منهم، تطييباً لنفوسهم، وصله ومواساةً لهم، ونزعاً لمادة الحسد والبغضاء من قلوبهم – فطالما استعبد الإنسانَ إحسانٌ.

**والزكاة أنواع هي:**

- زكاة النعم، وهي: الإبل والبقر والغنم.
- زكاة الزرع: وهي كل زرع يؤخذ منه ثمر، أو حبّ يقتات به.
- زكاة النقد: الذهب والفضة وما يلحق بهما.
- زكاة عروض التجارة.
- زكاة الفطر.

فتجب زكاة النوع الأول إذا أكل طول السنة من النبات المباح لا المملوك، فإذا بلغت الإبل خمساً وجبت فيها شاة، وإذا بلغت البقر ثلاثين فيجب فيها من أولادها تبيع، وهو ابن سنة، ودخل في الثانية، وإذا بلغت الغنم أربعين وجبت فيها شاة، بالغة عاماً ويشترط أن يمضي حول، وهي في ملك صاحبها، ويختلف الواجب بزيادة العدد في النعم بتفصيل مخصوص تعرفه في رسالة أخرى أوسع من هذه.

وتجب زكاة النوع الثاني إذا بلغت مقدارها (٦٥٣) كغم تقريبا فأكثر، ومقدار الواجب فيه هو عشر الثمرة إذا لم يسق الزرع أو سقي بغير آلة، ونصف العشر إذا سقي بآلة.

وتجب زكاة النوع الثالث إذا بلغ الذهب منه عشرين مثقالا فأكثر، أي ما يعادل (٨٥) غراماً والفضة مئتي درهم فأكثر«ما يعادل ٥٩٥ غراماً»، سواء كان مضروباً أو سبيكة، ومقدار الواجب فيها ربع العشر«٢,٥%». ويشترط له أيضاً مضي الحول عليه وهو في ملك مالكه.

وتجب زكاة النوع الرابع بمرور الحول عليه، فتقوَّم في رأس الحول بحصر المال الذي اشتريت به التجارة من أي نوع كان، فإذا بلغت قيمتها نصاب النقد وجبت فيها زكاة النقد، وهي ربع العشر، وإذا لم تبلغ لم يجب فيها شيء، والديون تجب فيها الزكاة بمضي الحول عليها، ولكن لا يجب إخراج زكاتها إلا إذا قبضها المالك بالفعل.

وتجب زكاة النوع الخامس بغروب شمس آخر يوم من رمضان بإدراك ليلة عيد الفطر فيجب على الشخص أن يدفع عن نفسه، وعن كل فرد من المسلمين تلزمه نفقته، صاعاً، وهو ما يعادل (٢٤٠٠ غم) من الحنطة أو الشعير أو التمر وغيره من غالب قوت البلد، ويجوز إخراج القيمة.

**الركن الرابع: صوم رمضان:**

وهو إمساك بنية عن إدخال أي شيء في جوفه من منفذ مفتوح، وعن الاتصال الجنسي من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، بقصد عبادة الله مع انتفاء موانع الصوم كالجنون والحيض والنفاس، يفعل ذلك كل يوم من شهر رمضان، وفي الليل يباح له كل ما يباح في غير رمضان. أوجب الله ذلك على عباده المؤمنين، وصفاً للقلب، وقمعاً للنفس الأمارة بالسوء عن شهواتها، وتذكيراً لها بإخوانها الجائعين، لتحنو عليهم، ومن لم يذق ألم الضر يظن جميع الناس في هناء. وقد رخص الله للمسافر، أن يفطر بشرط أن يكون السفر مسافة ثمانية وأربعين ميلاً. يغني (٨٩) كيلو متر.

ورُخص للمريض، والحامل والمرضع إن خافتا على أنفسهما أو ولدهما ويجب عليهما القضاء كما رخّص للكبير العاجز عن الصيام الإفطار، وعليه دفع دية عن كل يوم.

**الركن الخامس: الحج:**

أوجب الله على كل بالغ عاقل يملك الزاد والراحلة أن يذهب إلى بيته المحرم – الكعبة- ويتجرد من الثياب المخيطة إن كان رجلاً بنية عبادة الله. وأما المرأة فتحرم بثيابها العادية. ويطوف حول البيت سبع مرات، ويسعى بين الصفا والمروة سبع مرات، ويقف ينتظر يوم عرفة بعضاً من الزمن بأي مكان من عرفة، وفي ذلك الموقف تتجلى وحدة المسلمين في أبهى صورها إذ يلتقي الشامي بالمغربي، والهندي بالتركي والمصري بالأمريكي، فترتبط القلوب، وتتحد الكلمة، وتتبادل المصالح العامة بين المسلمين من العلوم والآراء فيما يعود عليهم بالخير والمنفعة، إلى أسرار أخرى لا يسعنا بسطها الآن.

وزد على ذلك تذكيرهم بيوم الحشر يوم يقومون حفاة عراة، فيتذكرون ذلك الهول، ويلتفتون إلى ما فرط منهم، ويعودون على أنفسهم باللائمة، ويطلبون من الكريم الذي لبّوا نداءه، وأموا بيته، أن يغفر لهم فيستجيب لهم، ويرحم ضعفهم. ومن أجاب الكريم عاد بالنوال، وفاز بتحقيق الآمال.

وهناك واجبات أخرى في الحج ستتعرف عليها لاحقاً في رسائل موّسعة إن شاء الله تعالى.

ثم من المؤكد على المسلمين- من غير إيجاب – أن يؤدوا شكر من كان سببا في نعمتهم فيزورونه صلى الله عليه وآله وسلم، فيعودون وقد اتحفوا بالأنوار، وفازوا بالجوار، وقويت رابطتهم فزادت محبتهم، وجددوا العهد بالرسول، وفازوا من مولاه بالقبول.

# الباب الثالث : الإحسان

بعد أن ذكرنا أركان الإسلام وعماد الدين التي إن أقامها الإنسان ووقعت موقع القبول من الله تعالى، فاز الإنسان ونجح، وسعد في دنياه وأخراه وأفلح، ولكي ترتقي هذه الأعمال وتحل محل القبول من الله سبحانه، لا بد أن يتحرى العبد فيها الإخلاص والخشوع، مع كمال التواضع لله والخضوع فلا بد من تزكية النفس وتربيتها وتأديبها، للوصول بها إلى هذه الأخلاق، وتحقيق ذلك إنما يتم في الأساس الثالث من أسس هذا الدين الحنيف، ألا وهو الإحسان الذي يطلق عليه اسم التصوف أيضا. فالتصوف يزكى النفس من الدنس، ويطهر الأنفاس من الأرجاس، ويرقي الأرواح إلى مراقي الفلاح، ويوصل الإنسان إلى مرضاة الرحمن، وهو إلى جانب هذا ركن من أركان الدين، وجزء متمم لمقامات اليقين، خلاصته تسليم الأمور كلها لله، والالتجاء في كل الشؤون إليه مع الرضى بالقدور، من غير إهمال في واجب ولا مقاربة لمحظور.

ولقد أحسن الإمام النووي رحمه الله في تبيينه وأجمل إذ قال في المقاصد:

**أصول طريق التصوف:**

هي خمسة: تقوى الله في السر والعلانية، واتباع السنة في الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرضى عن الله تعالى في القليل والكثير، والرجوع إلى الله في السرّاء والضراء.

فتحقيق التقوى: بالورع والاستقامة،

وتحقيق إتباع السنة: بالتحفظ وحسن الخلق،

وتحقيق الإعراض عن الخلق: بالصبر والتوكل

وتحقيق الرضى عن الله: بالقناعة والتفويض،

وتحقيق الرجوع إلى الله تعالى: بالشكر له في السراء والالتجاء إليه في الضراء.

وأصول ذلك كله خمسة: عُلوٌّ الهمة، وحفظ الحرمة، وحسن الخدمة، ونفوذ العزيمة، وتعظيم النعمة.

فمن علت همته ارتفعت رتبته، ومن حفظ حرمة الله حفظ الله حرمته، ومن حسنت خدمته وجبت كرامته، ومن نفذت عزيمته دامت هدايته، ومن عظم النعمة شكرها ومن شكرها استوجب المزيد.

وأصول العلامات خمسة: طلب العلم للقيام بالأمر، وصحبة المشايخ والإخوان للتبصر، وترك الرخص والتأويلات للتحفظ، وضبط الأوقات بالأوراد للحضور، واتهام النفس في كل شيء للخروج من الهوى والسلامة من العطب.

فطلب العلم آفته: صحبة الأحداث سناً وعقلاً وديناً مما لا يرجع إلى أصل ولا قاعدة. وآفة الصحبة: الاغترار والفضول. وآفة ترك الرخص والتأويلات: الشفقة على النفس. وآفة اتهام النفس: الأنس بحسن أحوالها واستقامتها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآ﴾ [الأنعام: ٧٠].

وأصول ما تُداوى به علل النفس خمسة: تخفيف المعدة بقلة الطعام والشراب، والالتجاء إلى الله تعالى مما يعرض عند عروضه، والفرار من مواقف ما يخشى الوقوع فيه، ودوام الاستغفار مع الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم آناء الليل وأطراف النهار باجتماع الخاطر، وصحبة من يدلك على الله.

**ثم قال رحمه الله مبيناً الطريق الموصلة إلى الله تعالى:**

«وهو بالتوبة من جميع المحرمات والمكروهات، وطلب العلم بقدر الحاجة إليه، والملازمة على الطهارة، وأداء الفرائض والرواتب في أوَّل وقتها جماعة، وملازمة ثمان ركعات الضحى، وست بين المغرب والعشاء، وصلاة الليل والوتر، وصوم الاثنين والخميس، وثلاثة أيام البيض، والأيام الفاضلة، وتلاوة القرآن بالحضور والتدبر، والإكثار من الاستغفار والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وملازمة أذكار السنة صباحاً ومساء».

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على سيدنا محمد منبع الأنوار ومعدن الأسرار، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، ولأهمية التزكية وفقه التصوف المستمد من الكتاب والسنة نوجز ما يلي:-.

**العلوم الشرعية ثلاث:**

علم يتعلق بإصلاح الظاهر - ويسمى علم الشريعة وعلم الحكمة. وعلم يتعلق بإصلاح الباطن - ويسمى علم التصوف وعلم الطريقة. وعلم وهبي- يسمى علم الحقيقة - وهو الثمرة والغاية.

فكل علم لا يبلغ صاحبه لعلم الحقيقة فهو ناقص. إذ أن ثمرة العلم العمل، وثمرة العمل الحال، وثمرة الحال الذوق والوجدان، وهو نهاية العرفان ولابد من شيخ مرب ينقل المريد من علم الشريعة إلى علم الطريقة مع تحقيق الشريعة وإلا بقى فى أحدهما على الدوام.

فالشريعة، تصلح الظواهر، والطريقة تصلح الضمائر، والحقيقة تصلح السرائر أو نقول الشريعة أن تعبده، والطريقة أن تقصده، والحقيقة أن تشهده. وتقول الشريعة للطالبين، والطريقة للسائرين، والحقيقة للواصلين، أو تقول الشريعة لطالب الأجور والطريقة لطالب الحضور، والحقيقة لرفع الستور. أو تقول الشريعة للعوام، والطريقة للخواص، والحقيقة لخواص الخواص.

ومرجع الشريعة الى امتثال الأمر واجتناب النهى، ومرجع الطريقة إلى تخلية وتحلية فالتخلى، التطهير من الرذائل، والتحلي الاتصاف بالفضائل. وإن شئت قلت التخلية هى التنزه عن أخلاق البهائم والشياطين، والتحلية التخلق بأخلاق الروحانيين.

فأخلاق البهائم، الاهتمام بالأكل والشرب والنكاح، وأخلاق الشياطين، الحسد والمكر والخديعة والغش والكبر والغضب والحدة والقلق والشح والفظاظة وحب الجاه والمال والرياسة، وأخلاق الروحانيين سلامة الصدر وسخاوة النفس وحسن الخلق والتواضع والحلم والتأني والسكينة والطمأنينة والشفقة والرحمة والسهولة والليونة.

فمن جمع هذه العلوم فهو النجم الثاقب، ومن اكتفى بأحدهم فهو ناقص:

فيا من ذكره شرف للذاكرين، ويا من شكره فوز للشاكرين، ويا من طاعته نجاة للمطيعين، صلّ على محمد وآله الطيبين الطاهرين، واشغل قلوبنا بذكرك عن كل ذكر، وألسنتنا بشكرك عن كل شكر، وجوارحنا بطاعتك عن كل طاعة، فإن قدرت لنا فراغا من شغل فاجعله فراغ سلامة لا تدركنا فيه تبعة، ولا تلحقنا فيه سآمة يا رب العالمين.

**ملخص فقه التصوف من الكتاب والسنة الصوفيون فقط على منهج السلف الصالح فلا (سلفيون) غيرهم:**

الحمد لله الذي حفظ عباده من الغرور والتكلف، وصان فكرهم وألسنتهم من اللغو والتعسف، وأشهد أن لا إله إلا الله خص بالحقائق كل صادق منصف، وأغلق على الجفاة طريق المعرفة والتصوف، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله إمام الزهد والتعفف، اختص صفوته بالتزكية، تربية على منهج الحق بعد أن بيّن وعلّم وعرّف، اللهم صلي وسلم على السيد الكامل من خص بالكمال وحسن التصرف، وعلى آله الأطهار منابع الحقيقة، وموارد الطريقة، ورضي الله عن أصحابه أعلام الرشاد، وأئمة السداد. أما بعد:

فيا عباد الله أوصيكم ونفسي الخاطئة بتقوى الله وأحضكم على التمسك بالأئمة الفضول، ورّاث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتلاميذ أهل بيته العدول، خاصة سلفنا الصالح من أئمة قرون الخيرية وعصر الصحابة والتابعين، من جمع الله لهم بين علمي الشريعة والحقيقة، فكانوا حرز الوقاية، من الغي والغواية التي نفثها الشيطان، وتنفست بها الأنسام، فأحيوا القلوب من مواتها، وأنقذوا النفوس من عثراتها، وضيقوا بالصدق والتقوى مناسم الشيطان، فأجفلت الشرور، وأحكمت الأمور فأقبل الصادقون على الله بالسريرة الصادقة والحكمة الناطقة، وأشرقت أسرار الشريعة على الجبين، وظهر نور القرآن المبين على ألسنة الموحدين، بحلل الإيمان، وأسرار القرآن، فازدهى المجتمع بالترابط والتوافق، إمامهم الصادق الأمين صلى الله عليه وآله إتباعا وحبا، وتعشقا وقربا، ترسموا الشريعة في كل مواقفها، إسلام وإيمان وإحسان، دعوة صدق من صادق، ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

**أنت أزكى الأنام في كل خير        للمزكين منك جاء الزكاء.**

كان صلى الله عليه وآله وسلم يعلمنا الكتاب كما أنزل، ثم يعلمنا الحكمة وهي استنباط الأحكام من الذكر الحكيم لنحكم بها على كل شيء ونتحاكم إليها في كل أمر، ثم يزكينا وهي التربية على الالتزام بما عرفنا من الحق

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾. ففي التزكية عز وحكمة لأن مريدها أفنى السِّوى، وانطوى في حامل اللواء صلى الله عليه وآله وسلم، فخُلعت عليه حلته، وظهرت على أسارير وجهه بهجته، قَالَ اللَّهُ ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة:١١٩]، فلم يعرفوا سوى الله، ولم يتحققوا إلا بالله فهم عباد الله وخاصته، أصبحوا أرضا يلقى عليها كل قبيح، ولا يبرز منها إلا كل مليح، دخلوا في كل خُلق سنِّي، وخرجوا من كل خلق دني، همهم الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق، لا يكدرهم شيء، ويصفو بهم كل شيء، صفوا من الكدر، وامتلؤوا من الفكر، وانقطعوا إلى الله من البشر، واستوى عندهم الذهب والمدر، ضبطوا القِوَى، فكبحوا الهوى، أولئك الصوفية الأخيار إمامهم المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ووليهم علي كرم الله وجهه، وسلفهم الحسن البصري، وأويس القرني الذي قال الرسول في حقه فيما رواه مسلم عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (إن خير التابعين رجل يقال له أوس وله والده وكان به بياض فمروه فليستغفر لكم).وفي رواية أخرى (كان عمرُ بنُ الخطابِ، إذا أتى عليه أمدادُ أهلِ اليمنِ، سألهم : أفيكم أُوَيسُ بنُ عامرٍ ؟ حتى أتى على أُوَيسٍ. فقال: أنت أُوَيسُ بنُ عامرٍ ؟ قال : نعم . قال : من مرادٍ ثم من قَرَنٍ ؟ قال : نعم . قال : فكان بك برصٌ فبرأت منه إلا موضعَ درهمٍ ؟ قال : نعم . قال : لك والدةٌ ؟ قال : نعم . قال : سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ « يأتي عليكم أُوَيسُ بنُ عامرٍ مع أمدادِ أهلِ اليمنِ من مرادٍ ، ثم من قرَنٍ . كان به برَصٌ فبرأ منه إلا موضعُ درهمٍ . له والدةٌ هو بها بَرٌّ . لو أقسم على اللهِ لأَبَرَّه . فإن استطعتَ أن يستغفرَ لكَ فافعلْ » . فاستغفِرْ لي . فاستغفَر له . فقال له عمرُ : أين تريد ؟ قال : الكوفةُ . قال : ألا أكتبُ لكَ إلى عاملِها ؟ قال : أكونُ في غَبراءِ الناسِ أَحَبُّ إليَّ . قال : فلما كان من العامِ المُقبلِ حجَّ رجلٌ من أشرافِهم . فوافق عمرُ . فسأله عن أُوَيسٍ . قال : تركْتُه رَثَّ البيتِ قليلَ المتاعِ . قال : سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول « يأتي عليكم أُويسُ بنُ عامرٍ مع أمدادِ أهلِ اليمنِ من مرادٍ ثم من قَرَنٍ. كان به برَصٌ فبرأ منه إلا موضعُ درهمٍ. له والدةٌ هو بها بَرٌّ. لو أقسم على اللهِ لأبَرَّه . فإن استطعتَ أن يستغفرَ لك فافعلْ » فأتى أُويسًا فقال: استغفرْ لي. قال: أنتَ أحدثُ عهدًا بسفرٍ صالحٍ . فاستغفِرْ لي . قال : استغفرْ لي . قال : أنت أحدثُ عهدًا بسفرٍ صالحٍ . فاستغفِرْ لي . قال : لقيتَ عمرَ؟ قال : نعم . فاستغفرْ له . ففطِن له الناسُ . فانطلق على وجهِه . قال أسير : وكسوتُه بُردةً . فكان كلما رآه إنسانٌ قال : من أين لأُويسٍ هذه البُردةُ ؟) رواه مسلم في صحيحه عن الصحابي أسير بن جابر، ورواه السيوطي عن الصحابي أبي هريرة في اللآلي بالمتن التالي

(بينما النبي ﷺ بفناء الكعبة إذ نزل عليه جبريل فقال : يا محمد إنه سيخرج في أمتك رجل يشفع فيشفعه الله في عدد ربيعة ومضر فإن أدركته فاسأله الشفاعة لأمتك ، فقال : يا جبريل ما اسمه وما صفته قال أما اسمه فأويس وأما صفته وقبيلته فمن اليمن من مراد ، وهو رجل أصهب مقرون الحاجبين أدعج العينين بكفه اليسرى وضح أبيض ، فلم يزل النبي ﷺ يطلبه فلم يقدر عليه فلما احتضر النبي ﷺ أوصى أبا بكر وأخبره بما قال له جبريل في أويس القرني فإن أنت أدركته فاسأله الشفاعة لك ولأمتي ، فلم يزل أبو بكر يطلبه فلم يقدر عليه ، فلما احتضر أبو بكر الصديق أوصى به عمر بن الخطاب وأخبره بما قال له رسول الله ﷺ، وقال: يا عمر إن أنت أدركته فاسأله الشفاعة لي ولأمة رسول الله، فلم يزل عمر يطلبه حتى كان آخر حجة حجها عمر وعلي بن أبي طالب فأتيا رفاق اليمن فنادى عمر بأعلى صوته: يا معشر الناس هل فيكم أويس القرني ؟، أعاد مرتين فقام شيخ من أقصى الرفاق فقال : يا أمير المؤمنين نعم هو ابن أخ لي ، هو أخمل أمرا وأهون ذكرا من أن يسأل مثلك عن مثله، فأطرق عمر طويلا حتى أن الشيخ ظن أنه ليس من شأنه ابن أخيه، قال عمر: أيها الشيخ ابن أخيك في حرمنا هذا ؟ قال الشيخ: هو في وادي أراك عرفات، فركب عمر وعلي حتى أتيا وادي أراك عرفات فإذا هما برجل كما وصفه جبريل للنبي ﷺ أصهب مقرون الحاجبين أدعج العينين رام بذقنه على صدره شاخص ببصره نحو موضع سجوده قائم يصلي وهو يتلو القرآن فدنيا منه فقالا له وقد فرغ: السلام عليك ورحمة الله، قال: أنبأنا عبد الله بن عبد الله فقال له علي: قد علمنا أن أهل السموات وأهل الأرض كلهم عبيد الله، قال: أنا راعي الإبل وأجير القوم، فقال له علي: لسنا عن هذا سألناك من رعيك وإجارتك إنما نسألك بحق حرمنا هذا إلا أخبرتنا باسمك الذي سماك به أبوك، قال: أنا أويس القرني، فقال له علي: يا أويس إن رسول الله ﷺ ذكر أن بكفك اليسرى وضحا أبيض فأوضح لنا فيه فإذا هما إياه، فأقبل علي وعمر يقبلانه، فقال علي: يا أويس إن رسول الله ﷺ ذكر أنك سيد التابعين وأنك تشفع يشفعك الله في عدد ربيعة ومضر، فقال لهما أويس فعسى أن يكون ذلك غيري، قال له علي: قد أيقنا أنك أنت هو حقا يقينا، فرفع يده إلى السماء ثم قال: اللهم إن هذين ابنا عمي بحياتي عليك فاغفر لهما وللمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات، ثم إن عمر قال له: أين الميعاد بيني وبينك إني أراك رث الحال حتى آتيك بكسوة ونفقة من رزقي، فقال له أويس: هيهات هيهات إن بيني وبينك عقبة كؤدا لا يجاوزها إلا كل ضامر عطشان مهزول، ما ترى يا عمر إن علي طمرين من صوف ونعلين مخصوفتين ولي نفقة ولي على القوم حساب، قال: فإلى متى آكل هذا وإلى متى يبلى هذا، فأخرج عمر الدرة من كمه ثم نادى: يا معشر الناس من يأخذ الخلافة بما فيها، فقال أويس من جدع الله أنفه يا أمير المؤمنين، فقال له عمر: والله ما نكبت مصرا ولا ظلمت فيه ذميا ولا أكلت منها حمى أرض، قال أويس: جزاك الله خيرا يا عمر عن هذه الأمة وأنت يا علي فجزاك الله خيرا عن هذه الأمة فتعيشان حميدين وتموتان سعيدين، فقالا له: أوصنا يرحمك الله

فقال: أوصيكما بتقوى الله والعمل بطاعته والصبر على ما أصابكما فإن ذلك من عزم الأمور وأوصيكما أن تلقيا هرم بن حيان فتقرآه مني السلام وخبراه إني أرجو أن يكون رفيقي في الجنة، قال: فودعاه فلم يزل عمر وعلي يطلبان هرم بن حيان فبينما هما مارين في مسجد النبي ﷺ إذا هما بهرم بن حيان قائم يصلي فانتظراه فلما انصرف سلما عليه فرد عليهما السلام ثم قال لهما: من أين جئتما ؟ قالا: جئنا من عندأويس القرني وهو يقرئك السلام ويقول لك: إني أرجو أن تكون رفيقي في الجنة، فلم يزل هرم بن حيان في طلب أويس فبينما هو بالكوفة مار على شاطئ الفرات إذا هو برجل أصهب مقرون الحاجبين أدعج العينين يغسل طمرين له من صوف فدنا منه هرم بن حيان فقال: السلام عليك يا أويس فأجابه بمثل ذلك من السلام وقال له: يا هرم بن حيان، قال له هرم: كيف الزمان عليك ؟ قال له أويس:كيف الزمان على رجل إذا أصبح يقول: لا أمسي ويمسي يقول: لا أصبح، يا أخا مراد إن الموت وذكره لم يتركا لأحد فرحا، وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يتركا للمؤمن صديقا، فقال له هرم: يا أويس أنا معرفك فإن عمر وعليا وصفاك لي فعرفتك بصفتهما فأنت من أين عرفتني ؟ قال له أويس : إن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها في الله ائتلف وما تناكر في الله اختلف، قال له أويس : يا هرم اتل علي آيات من كتاب الله عز وجل ، فتلا عليه هذه الآية (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين) فخر أويس مغشيا عليه فلما أفاق قال له : إني أريد أصحبك وأكون معك، فقال له أويس : لا يا هرم ولكن إذا مت لا يكفنني أحد حتى تأتي أنت فتكفنني وتدفنني، ثم إنهما افترقا ولم يزل هرم بن حيان في طلب أويس حتى دخل مدينة من مدائن الشام يقال لها دمشق، فإذا هو برجل ملفوف في عباءة له ملقى في صحن المسجد فدنا منه فكشف العباءة عن وجهه فإذا هو أويس قد توفي ، فوضع يده على أم رأسه ثم قال : وا أخاه هذا أويس القرني مات ضائعا فقال له : من أنت يا عبد الله ومن هذا ؟ فقال : أما أنا فهرم بن حيان المرادي وأما هذا فأويس القرني ولي الله ، قالوا : فإنا قد جمعنا له ثوبين نكفنه فيهما ، فقال لهم هرم : ما له بثمن ثوبكم حاجة ولكن يكفنه هرم بن حيان المرادي من ماله، فضرب هرم بيده إلى مردة أويس القرني فإذا هو بثوبين لم يكن له بهما عهد عند رأس أويس، على أحدهما مكتوب : بسم الله الرحمن الرحيم براءة من الرحمن الرحيم لأويس القرني من النار، وعلى الآخر مكتوب : هذا كفن لأويس القرني من الجنة

فالحمد لله الذي نور الذاكرين بذكره، وأنطق ألسنتهم بشكره، وسخر جوارحهم لطاعته، فهم في رياض الأنس يرتعون، وإلى أوكار المحبة يأوون، ذكرهم الله فذكروه، وأحبهم فأحبوه، ورضي عنهم فرضوا عنه، رأس مالهم الافتقار، ونظام أمرهم الاضطرار، علّمهم دواء الذنوب، وعرّفهم طب القلوب، فأضحوا مصابيح أنوار حجته، وباتوا مفاتيح خزائن حكمته، إمامهم وقدوتهم النور الساطع، والقمر الطالع، سيد العجم والعرب، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، الثمرة الزكية من الشجرة المباركة التي أصلها التوحيد وفرعها التقوى منهجها الكمال الوسطي المعتدل ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٥] ، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠]

فصلى الله عليه وآله وسلم في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله، صلاة تلوح في السماوات آثارها، وتعلو في جنان الخلد أنوارها، وتطيب في مشاهد الأنبياء أخبارها، وعلى آله الطيبين الطاهرين، والرضى على أصحابه المطهرين المجتبين، حفاظ الشريعة وحماة الدين، ومن قال بقولهم ونسج على منوالهم إلى يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.
فأهل التصوف هم وراث السر المحمدي، ذلك السر الرباني الذي سرى في البتول الزهراء وعليٍّ والحسن والحسين عليهم السلام، وعبد الله بن عباس، والعشرة المبشرين، والأئمة المهديين رضوان الله عليهم أجمعين، وأزهر السر في أوس ويحيى بن زيد والحسن البصري وأصحاب اليقين وأهل التمكين أوضح معناه الكتاب: ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥]، وحدد وعاءه الخطاب من الصادق الأمين صلى الله عليه وآله وسلم على ألسنة الناقلين، فيما رواه البخاري في الصحيح: عن أبي هريرة ط قال: «أخذت من رسول الله وعائين وعاء بثثته، ووعاء لو بثثته لقطع مني هذا الحلقوم» صححه السخاوي في المقاصد الحسنة عن أبي هريرة.

وقد أثنت العصور والدهور على أهل التصوف لما علم منهم من التقى والنقاء، والصفاء والوفاء، وحسن الطوية والاجتهاد في الطاعات، ومجاهدة النفس على كبح الشهوات. قال الإمام مالك: «من تفقه ولم يتصوف فقد تفسّق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق». كما في حاشية العلامة علي العدوي على شرح الإمام أبي الحسن في الفقه المالكي (١٩٥/٢) وكما في شرح عين العلم وزين الحلم للإمام ملا علي قاريء (٣٣/١). وقال الإمام الشافعي ﷺ: صحبت الصوفية فانتفعت منهم بكلمتين: سمعتهم يقولون: الوقت كالسيف فإن قطعته وإلا قطعك، ونفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل. وقال سفيان الثوري لولا أبو هاشم الصوفي: «ما عرفت دقائق الرياء» كما في الفتاوى الحديثية لابن حجر (٣٢٧). ونقل ابن الحاج في حواشيه على الدر الثمين عن التستري في رسالته العلمية أن الحسن البصري قال: أول من تكلم في التصوف والفقر الإمام علي عليه السلام، وقال ابن الحاج ويعلم من ذلك أن أول من وضع علم ذلك هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، كما في التراتيب الإدارية (٣٧١/٢). وقال الإمام أحمد: «عليك بمجالسة هؤلاء القوم فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد». وقال أيضا: «لم أعلم أحدا أفضل منهم»، كما في الجزء الخامس من كتاب الفروع لابن مفلح الحنبلي والتراتيب الإدارية للكتاني (١٣٧/٢). وقال الحافظ أبو نعيم فأما التصوف فاشتقاقه عند أهل الإشارات والمنبئين عنهم بالعبارات من الصفاء والوفاء، فالصوفي من كفي من حاله، ونُعم من ماله وأعطي من عقباه، وحُفظ من حظ دنياه، إنهم أعلام الهدى لعدولهم عن الموبقات، واجتهادهم في القربات، وتزودهم من الساعات وحفظهم للأوقات، فسالك منهجهم ناج من الغمرات، وسالم من الهلكات، أهـ، كما في الحلية (١٨/١).

وأما ابن تيمية فإنه وصف الصوفية بأنهم صديقو هذه الأمة كما في رسالته «الصوفية والفقراء» وذلك في أول كتابه التصوف الواقع في الفتاوى برقم (١١). وقال الإمام الذهبي في الموقظة: «... وهو مقام خطر إذا القادح في محقّ الصوفية داخل في حديث «من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة». وقال الإمام الشاطبي عن الصوفية «فقد علم منهم المحافظة على حدود الشريعة ظاهرا وباطنا، وهم القائمون بأحكام السنة على ما ينبغي، المحافظون على إتباعها...» كما في الموافقات (٢٠٧/٢). وقال ابن خلدون وهذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء لم تزل عند سلف الأمة وكبارهم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية.

فالصوفية غرر الناس، طهرهم الله من الأرجاس في كل عصر ومصر، مأوى الخيرات ومآزر البركات، على أيديهم انتشر الإسلام، وعمّ الأنام الوئام ربطوا القلوب بمحبة علام الغيوب فلم يستحوذ عليهم الشيطان، ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣]. ورثوا العلوم كابرا عن كابر، عن أكابر الصحابة كالإمام علي وأبي بكر الصديق وحارثة ثم القاسم بن محمد، وجعفر الصادق، فهم حماة الشريعة وورّاثها، ومنبع الحقائق وأساطينها، سرَرْ الناس، ومفخرة الجلّاس، برزت على أكتافهم دولة الإسلام، وارتفعت على سواعدهم ألوية السلام وبعد أن ساءت الأحوال واضمحلت الأفعال، وكثرت الأقوال قويت لهجة المارقين، على الصفوة من المتقين، فأصبح منهج التقرب سبّة، واتباع منهجهم خيبة، وأنّى للقاصد في هذا الزمن أن يبلغ شأوهم، أو يسلك دربهم فضلا عن أن يوسم بهم، ويحسب من أشياعهم، فأين الثرى من الثريا، ومجمل التاريخ يمج ذلك التبجح، ويصد ذلك التصفح السافر والغي الظاهر في خيار الأمة، وقد نسي أنه حقق ما حذر منه المصطفى ﷺ بقوله في الحديث الذي أخرجه الترمذي وصححه العراقي: (إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حلّ بها البلاء... وذكر منها ... ولعن آخر هذه الأمة أولها...). فمن بنى منهجه على التصوير والتحقير والتكفير حقق فيه قول المصطفى ﷺ فيما أخرجه أبو نعيم بسند جيد عن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رئيت عليه بهجته وكان ردءا للإسلام، غيّره الله إلى ما شاء، انسلخ منه ونبذه وراء ظهره وخرج على جاره بالسب ورماه بالشرك» قلت يا رسول الله أيهما أولى بالشرك، الرامي أم المرمي، قال: (بل الرامي). صدقت يا سيدي يا رسول الحق يا نور العوالم صلى الله عليك وآلك وسلم، لقد نسي رامي الصوفية عواره وأسس فكره إزاء تلك الطائفة الطاهرة، على عبارات مدسوسة، وآراء مشبوهة في كتب المتأخرين، وأخلاق المدعين لمنهج المتقين، في العصور الغابرة أو عصره الحاضر،

فلا سند لهم يعودون إليه يعود لما قبل القرن السابع الهجري، وأغلبها أقوال فندها علماء عصرهم وأقام على قائليها الحجة، وبعد ذلك يدعون أنهم (سلفيون)، فبأي سلف تقتدون، والصوفية تقتدي بمنهج الصحابة والتابعين من أخيار قرون الخيرية التي قال فيهم الرسول الذي لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وآله وسلم: (خيرُ القرونِ قرْني، ثمَّ الَّذين يلونَهم، ثمَّ الَّذين يلونَهم، ثمَّ يأتي قومٌ يشهدونَ ولا يُستشهدونَ، وينذرونَ ولا يوفونَ، ويظهرُ فيهم السِّمَنُ) صححه ابن رجب في جامع العلوم والحكم عن عدد من الصحابة، لذا أصبح لزاما على أهل العلم أن يكشفوا النقاب عن أحوال تلك الطائفة بالنقول المنصفة لبيان الحق من الباطل، والصادق من المختل، وقبل أن نبرز الحقائق، منارا لدليل واضح لكل موفق، في جميع طبقات المجتمع، علينا أن نبين أن الخلق الحسن مقياس الفضيلة، والفضيلة شاهد على أهل الرذيلة، فالصوفي لا يجسم الحق، ولا يحقر الخلق، ولا يكفر الناس، والثائر عليهم هو من خوارج الخلف، اتسم بالفضاضة والغلظة، وادعاء الدعاوي العريضة، وانتحل رداء أهل الفضيلة، ففضحته المنابر، فأغلقت عليه البصائر ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف:٣٦]. نعت الحق سمته، فقال سبحانه: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ [المائدة:٤١]. وقال أيضا: ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧].

فالصوفي مفوض في التسليم أو التأويل، والزائغ متقول على دلائل التنزيل، ينفي المتشابه في القرآن، ليغرر بالسذج والطغام، فيدعي أرباب هذا الفكر الإثبات للصفات وأن سواهم معطلة نفات، افتراء وزورا، هذا منحى سنبينه مفصلا أثناء الحديث عن منهج هذه الطائفة إن شاء الله تعالى.

وأما المنحى الآخر فإنهم يتهمون الصوفية بأنهم حلولية، فهذه دعوى باطلة عارية عن الصواب،لأن منهج الصوفي محق السوى، والحلول يقتضي إيجاد السوى، فالتهمة عائدة إلى من رمى، قال عمر الأصفهاني رحمه الله: التصوف هو التّبرّي عمن دونه، والتخلي عمن سواه. وقال الإمام النووي في رسالته المقاصد: أصول التصوف خمسة:

أولها: تقوى الله في السرّ والعلانية.

وثانيها: إتباع الكتاب والسنة.

وثالثها: الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار.

ورابعها: الرضا عن الله في القليل والكثير.

وخامسها: الرجوع إلى الله في السرّاء والضراء. ا.ه.فالصوفي لا يعتقد نفعا ولا ضرا لأحد لا في الدنيا ولا في الآخرة، لا في الحياة ولا في الممات، وأن كل ما يجري بتدبير الحق. وذلك مع إيمان الصوفي بضر ونفع السبب بإذن الله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، وقال ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى:٥١].

تعلم الصوفي من هدي الحق مراد الحق من الأسباب، ففي مقام السبب يمضي إلى التوكل على الله، وفي مقام التوكل على الله يمضي إلى السبب. وعلم ذلك في كتاب المسلمين مسطور، وأسرار تلك المعاني في صدور المخلصين موفور، الدّين علم وحلم وذوق وفهم ورأفة ورحمة، وليس الدين شقاشق أقوال، وسفها وانتحال أحوال، وغلظة وتشددا وعنادا، وكبرا وبطرا، وجحدا للسداد فمن كان كذلك يصدق فيه قوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»، أي رفض كل تأويل لا يوافق تأويلهم وتخطئة كل حقيقة لا توافق رأيهم. وعلم التصوف مبني على أصول التشريع، ومقامه إحساني، مبني على تزكية الذوق الإيماني الرفيع، وهم للذوق فاقدون وبالفقه جاهلون، ولا نملك إلا أن نحض المسلمين على حسن الظن في الله، والصدق مع أولياء الله، وعدم الالتفات إلى من خذله الله وأشقاه، بالتجرؤ على أصفياء الله، بالسباب والشتم وقول الزور، والكذب على رسول الله، من خلال الكتيبات أو في الصحف أو الإذاعات المسموعة أو المرئية، حتى أصبح في مخيلة أبسط رجل في المجتمع أن التصوف مروق عن الدين، وفلسفة الهنود واليونانيين، وما هذا إلا محض افتراء، جاء به المنغمسون في الشهوات، والبعيدون عن طريق المجاهدات، وقد طفحت كتب الأئمة الأعلام بالتعريف بهذا العلم وعن مسمى هذه الطائفة، وعن رجالاتها وعن أحوالهم، قال الإمام ابن عجيبة في معراج التشوف إلى حقائق التصوف: علم التصوف هو سيد العلوم ورئيسها، ولباب الشريعة وأساسها كيف لا، وهو مقام الإحسان الذي هو مقام الشهود والعيان، كما أن علم الكلام تفسير لمقام الإيمان، وعلم الفقه تفسير لمقام الإسلام، وقد اشتمل حديث جبريل عليه السلام على تفسير الجميع، فإذا تقرر أنه أفضل العلوم، تبين أن الاشتغال به أفضل ما يتقرب به إلى الله تعالى لكونه سببا للمعرفة الخاصة التي هي معرفة العيان.وهو علم ذوقي تربوي يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، أو تصفية البواطن من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل، أو غيبة الخلق في شهود الحق، أو مع الرجوع إلى الأثر في أوله علم ووسطه عمل وآخره موهبة. وثمرته النهوض إلى الطاعة والهروب من المعصية.أما عن أصوله فقال التستري: (أصول طريقنا سبعة: التمسك بالكتاب، والاقتداء بالسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى، وتجنب المعاصي، ولزوم التوبة، وأداء الحقوق). وأركانه أربعة كما ذكرها الإمام الشعراني: وهي: (الرجوع والعزلة والسهر وقلّة الكلام).أما عن اشتقاق الكلمة فيقول الإمام الأفخم والعلم الألمع سيدي أحمد الرفاعي الكبير – قدس سره – في البرهان المؤيد (ص٦٣)

أن الأصل في تسمية الصوفية يعود إلى بني صوفة، الذين كانوا قوم زهد وعبادة وصلاح، فنسب إليهم العباد والزهاد والصالحون، ومورد هذا الاستنباط مما حكاه ابن هشام في سيرته (١/ ١٦٥)، من أنه كان الغوث بن مر بن أدٍّ بن طابخة بن إلياس بن مضر يلي الإجازة للناس بالحج من عرفة، وولده من بعده، وكان يقال له ولولده «صوفة» وإنما ولي ذلك الغوث بن مر لأن أمه كانت امرأة من جرْهم، وكانت لا تلد، ونذرت لله إن هي ولدت رجلا أن تتصدق به للكعبة، عبدا لها يخدمها ويقوم عليها فولدت الغوث، فكان يقوم على الكعبة في الدهر الأول مع أخواله من جرهم، فولي الإجازة للناس من عرفة، لمكانه الذي كان به من الكعبة، وولده من بعده، حتى انقرضوا، فقال مرّ بن أدٍّ لوفاء نذر أمه:

**إني جعلت ربِّ من بنيّ ربيطة بمكة العلية**

**فباركنّ لي بها ألية واجعله لي من صالح البرية**

وذكر الإمام ابن حجر الهيثمي في الفتاوى الحديثية (ص ٣٢٥ – ٣٢٩) من أقوال العلماء في تعريف الصوفية عدة أقوال واختار أنهم منسوبون للصفة التي كانت في مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم لفقراء المهاجرين.وقيل: إلى الصف الأول بين يدي الله عز وجل، بارتفاع هممهم، وإقبالهم على الله بقلوبهم.وقيل: إلى الصوف، لأنه لباسهم غالبا، لكونه أقرب إلى الخمول والتواضع والزهد، ولكونه لباس الأنبياء صلى الله عليهم وسلم، وقد جاء أن نبينا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم كان يركب الحمار ويلبس الصوف، وفي حديث: (مرّ بالصخرة من الروحاء سبعون نبيا حفاة، عليهم العباءة يؤمون البيت الحرام)، وفي آخر: (يوم كلم الله موسى عليه السلام كان عليه جبة من صوف، وسراويل من صوف، وكساء من صوف)، وأصل ذلك ما رواه ابن حبان في صحيحه بسند صحيح: (برقم ٦٢١) أن النبي ﷺ مرّ على ثنية فقال: (ماهذه؟) قيل: ثنية كذا وكذا، قال: (كأني أنظر إلى موسى يرمي الجمرة على ناقة حمراء خطامها من ليف، وعليه جبة من صوف). ا.هـ.وقال الحسن البصري: لقد أدركت سبعين بدريا لباسهم من الصوف، وقال اليافعي: وهذا القول الثالث هو المنسوب للاشتقاق اللغوي، أعني النسبة إلى الصوف، وقيل: أصل هذا الاسم (صوفي) من الصفاء، أو من المصفاة، قال أبو الفتح البستي رحمه الله:

**تنازع الناس في الصوفي واختلفوا وظنه البعض مشتقا من الصوف**

**ولست أمنح هذا الاسم غير فتى صافي فصوفي حتى سمي الصوفي**

وبهذا تبين أن كلمة التصوف مهما اختلف في نسبتها فقد وسمت بها طائفة صالحة مباركة. وقد نقل ابن حجر رحمه الله عن العارف الشهاب السهروردي في علة اختفاء هذا الاسم في عهد الرسول ﷺ والتابعين أن شرف الصحبة لرسول الله ﷺ لا تعدلها نسبة.وقد ذكر الإمام أبو نصر السراج في كتابه اللمع (ص٤٢)

مثل ذلك، وقال: ألا ترى أنهم (أي الصحابة) هم أئمة الزهاد والعباد، والمتوكلين والفقراء والراضين والصابرين والمخبتين، وغير ذلك، وما نالوا جميع ذلك إلا ببركة الصحبة مع المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، فاستحال أن يفضلوا بفضيلة غير الصحبة التي هي أجل الأحوال، ثم ذكر الإمام ابن حجر الهيثمي: أن من رأى الصحابة وأخذ عنهم العلم أحق باسم التابعي لذلك، ثم لما بعد عهد النبوة، واختلفت الآراء، وكدّر شرب العلوم شُربُ الأهوية، وتزعزعت أبنية المتقين، واضطربت عزائم الزاهدين وغلبت الجهالات وكثف حجابها، وكثرت العادات وتملك أربابها تزخرفت الدنيا وكثر خطامها، تفردت طائفة بأعمال صالحة وأحوال سنية، واغتنموا العزلة، واتخذوا لأنفسهم زوايا يجتمعون فيها تارة، وينفردون أخرى، أسوة بأهل الصفة، تاركين للأسباب، مبتهلين إلى ربّ الأرباب، أثمر لهم صالح الأعمال سني الأحوال، وتهيأ صفا الفهوم بقبول العلوم، وصار لهم بعد اللسان لسان وبعد العرفان عرفان، كما قال حارثة: (أصبحت مؤمنا بربّي حقا)، لما كوشف بمرتبة في الإيمان غير ما عهد، فصار لهم بمقتضى ذلك علوم يعرفونها، وإشارات يعهدونها، فحرروا لأنفسهم اصطلاحات تشير إلى معارف يعرفونها، وتعرب عن أحوال يجدونها، فأخذ ذلك الخلف من السلف، حتى صار ذلك رسما مستمرا، وخيرا مستقرا في كل عصر وزمان، فظهر هذا الاسم بينهم، وتسموا به، فالاسم سمتهم، والعلم بالله صفتهم، والعبادة حليتهم، والتقوى شعارهم وحقائق الحقيقة أسرارهم، ثم قال رحمه الله: (ثم ظهرت البدع فحصل التداعي من الفرق، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهادا، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف. وذكر السهروردي أن الصوفي هو الذي يضع كل شيء في موضعه، ويدبر أوقاته وأحواله كلها للعلم يقيم الخلق مقامهم، ويقيم أمر الحق مقامه، ويستر ما ينبغي ستره، ويظهر ما ينبغي إظهاره، كل ذلك مع حضور عقل، وصحة توحيد، وكمال معرفة، ورعاية صدق وإخلاص، وقد صار قائما في الأشياء بإرادة الله تعالى، لا بإرادة نفسه فلا يرى فضيلة في صورة فقره، ولا في صورة غناه، وإنما يرى الفضيلة فيما يوافقه الحق فيه، ويدخله عليه، ويعلم الإذن من الله في الدخول في الشيء، قال الإمام الأكبر محيي الدين بن عربي رحمه الله: (التصوف هو الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا وباطنا)، وقال الإمام القشيري في رسالته: (جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه، وجعل قلوبهم معادن أسراره واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغياث للخلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق، صفاهم من كدورات البشرية، ورقاهم إلى محل المشاهدات، بما تجلى لهم من حقائق الأحدية ووفقهم للقيام بآداب العبودية) اه.وقد أغرى ذلك أهل العلم بالإكثار من ذكرهم، والثناء عليهم في كتبهم.فهذا الخطيب البغدادي يقول في ترجمة عبد الله بن المبارك الصوفي الزاهد: (وكان من الربانيين في العلم، ومن المذكورين في الزهد، خرج من بغداد يريد ثغر المصيصة فصحبه الصوفية) كما في تاريخ بغداد (١٠ / ١٥٧).وهاهو الحافظ الخليل يقول في كتابه الإرشاد: (لابن المبارك من الكرامات ما لايحصى، يقال: إنه من الأبدال، وقد صُدرت تراجم الصوفية باسمه).

ويقول الإمام الرباني والمحدث الكبير سفيان بن عيينة: نظرت في أمر الصحابة وأمر ابن المبارك فما رأيت لهم فضلا عليه إلا بصحبتهم النبي ﷺ، وغزوهم معه. كما في الكواكب الدرية (١٧٦/١)، وصفة الصفوة (٤ / ١٤٧).وهذا ابن دقيق العيد يقول: (حضرت بالمنصورة مع الشيخ أبي الحسن الشاذلي وما رأيت أعرف بالله منه). كما في تأييد الحقيقة العلية للسيوطي (ص ١٣١).وقد ذكر الحافظ السيوطي في كتابه الموسوم ب( حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة) (١٤١٤/٤)، والمقريزي في الخطط (٤١٥/٢): (أن صلاح الدين الأيوبي أول من أنشأ خانقاه للصوفية بمصر، ووقف عليها أوقافا كثيرة، وكان سكانها يعرفون بالعلم والصلاح، وولي مشيختها الأكابر ومن ترجي بركتهم، مع ما كان له من الوزارة والإمارة وتدبير الدولة وقيادة الجيوش وتقدمة العساكر).أ.هـ. وقال حجة الإسلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: - وهو الذي اختبر طريق التصوف ولمس نتائجه وذاق ثمراته- يقول: (لقد علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقتهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق) أ.هـ. كما في المنقذ من الضلال (ص ١٣١) ويقول أيضا: (الدخول مع الصوفية فرض عين؛ إذ لا يخلو أحد من عيب إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام). وهنا أقول أن التقوى لا تعني فقط معرفة الحق بل الالتزام به، أي تربية النفس على ما عرفت من الحق وإلزامها به، تحقيقا للعلم اللدني الذي لا يتحقق إلاّ بالتقوى (واتقوا الله ويعلمكم الله)، وذكر ابن كثير المفسر والمحدث والمؤرخ المعروف في كتابه البداية والنهاية: (١١٠/١٣) في ترجمة الموفق بن قدامة الحنبلي الصوفي صاحب المغني – الذي يعدّ مصدرا مهما من مصادر الفقه الحنبلي – مانصه: ( وكانت له أحوال ومكاشفات).ونصّ الحافظ الذهبي أن ابن قدامة ممن سلك طريق التصوف على العارف بالله عبد القادر الجيلاني كما فسر أعلام النبلاء (١٦٦/٢٢) وذكر نحو كلام ابن كثير.وأما ابن تيمية فقد أثنى على أئمة التصوف في أكثر من موطن في الفتاوى (٥١٦/١٠-٥١٧) حيث يقول وبالحرف الواحد: أما المستقيمون السالكون كجمهور مشايخ السلف مثل الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسري السقطي، والجنيد البغدادي وغيرهم من المتقدمين، ومثل الشيخ عبد القادر الجيلاني – قدس الله روحه- والشيخ حماد أبي البيان . (وأضيف) (وأضيف من عندي كذلك الشأن عند الشيخ أحمد زروق والشيخ عبدالسلام الأسمري الفيتوري الإدريسي والشيخ أحمد التيجاني والشيخ محمد ماضي أبوالعزائم والشيخ الخدّيم أحمد بمب، والشيخ أحمد ابن إدريس وغيرهم من المتأخرين) فهم لا يسوِّغون للسالك ولو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج من الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه أن يعمل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت، وهذا هو الحق الذي دلّ عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف، ومن هذا الكثير في كلامهم .وقد ذكر في كتابه شرح حديث النزول (ص ٣٥٢-٣٥٣) ما نصه: (الجنيد ط سيّد الطائفة، إمام هدى) إلى أن قال: (ومن خالفه فمن أهل الضلال) كما وقد ذكر في الجزء العاشر من الفتاوى (ص ٦٨٦)، (وكان ﵁ سيد الطائفة ومن أحسنهم تعليما وتأديبا وتقويما) اهـ.

فمن هذه النصوص السابقة تبين لنا أن التصوف ليس مستنبطا من أصول لا تمت إلى الإسلام بصلة، ولا منتسبا إلى أصول غير إسلامية وعربية، كما يزعم أعداء الإسلام من المستشرقين وتلامذتهم الذين ابتدعوا أسماء مبتكرة، فأطلقوا اسم التصوف على الرهبنة البوذية، والكهانة النصرانية، والشعوذة الهندية، فقالوا: تصوف بوذي، وتصوف هندي، وتصوف نصراني، وتصوف فارسي، يريدون بذلك تشويه اسم التصوف من جهة، واتهام التصوف بأنه راجع في نشأته إلى هذه الفلسفات الضالة، وإشغال المسلمين بالأسماء عن المسميات، وبالقشور عن اللبّ والجوهر، مع أن ذلك قد نفاه وأنكره بعض المستشرقين أنفسهم، حيث ذكر المستشرق نيكلسون نقلا عن المستشرق (نولدكه) منكرا أن تكون الكلمة راجعة إلى أصل يوناني أو بوذي أو غيره، ثم قال: لا يوجد دليل إيجابي يرجع افتراض أن الكلمة مشتقة من الأصل اليوناني (صوفوس، أو صوفيزم) ومعناها بلغتهم (الحكمة)، في حين أن نسبتها إلى الصوف تؤيدها نصوص من أقوال الكتاب المسلمين أنفسهم.فهذا هو الحق الذي ليس عنه محيص، وليس بعد الحق إلا الضلال. لذلك وجب على كل مؤمن مخلص أن ينصح المؤمنين بالتحري مما يقرؤون ويسمعون وأن يعرفوا الحق ليعرفوا الرجال، كما قال علي عليه السلام: (نعرف الرجال بالحق، ولا نعرف الحق بالرجال).فينبغي علينا ألا نسم تلك الطائفة الطاهرة بما نراه في زماننا هذا من التستر خلف تلك الطائفة، فقد حذّر الإمام ابن حجر الهيثمي رحمه الله وغيره من أولئك المتسترين تحت عباءة الرجال، تسموا باسمهم، وليسوا منهم في شيء، بل هم في غرور وباطل وغلط، يتسترون باسم الصوفية توقيا تارة، ودعوى أخرى.وبعض هؤلاء ينهجون منهج أهل الإباحة ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله، وأن الترسم بمراسم الشريعة رتبة العوام، وهذا هو عين الإلحاد والزندقة، إذ كل حقيقة ردتها الشريعة زندقة، وبعضهم يقول بالحلول، ويزعمون أن الله تعالى حلّ فيهم، ويحل في أجسامهم مصطفيها، ويسبق إلى فهومهم معنى من النصارى في اللاهوت والناسوت، تعالى الله أن يحل في شيء أو يحلّ به شيء، ومنهم من يستحل النظر إلى المحرمات إشارة إلى هذا الوهم، وبعضهم يزعمون أنهم مجبورون على الأشياء لا فعل لهم مع الله، ويسترسلون في المعاصي وكل ما تدعو إليه النفوس، ويركنون إلى البطالة ودوام الغفلة والاغترار بالله، والخروج من الملة وترك الحدود والأحكام والحلال والحرام، وقد سئل سهل ط عن رجل يقول أنا كالباب لا أتحرك إلا إذ حرك، فقال: هذا لا يقوله إلا أحد رجلين إما صديق إشارة إلى أن قوام الأشياء بالله مع إحكام الأصول ورعاية حدود العبودية، وإما زنديق إحالة للأشياء على الله، وإسقاطا للوم عن نفسه، وانخلاعا عن الدين ورسمه. اهـ. كما في الفتاوى الحديثية.وبعد هذا تبين لنا الحق من الباطل، فعلى كل جاهل بأمر هذه الطائفة أن يحسن الظنّ فيهم، فقد تضافرت أقوال أهل العلم أن من لا يحسن الظن فيهم يخشى عليه من سوء الخاتمة. والعياذ بالله.

وخلاصة لما تقدم نقول: إن التصوف أحد أركان الدين الثلاثة (الإسلام، الإيمان، الإحسان)، فمثلما اهتم الفقه بتعاليم شريعة الإسلام، وعلم العقيدة بالإيمان، فإن التصوف اهتم بتحقيق مقام الإحسان (وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) رواه مسلم في صحيحه، وهو منهج أو طريق يسلكه العبد للوصول إلى الله، أي الوصول إلى معرفته والعلم به، (قال ابن عطاء الله السكندري في الحكم العطائية: وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به، وإلا فجَلَّ ربُّنا أن يتصل به شيء، أو يتصل هو بشيء)، وذلك عن طريق الاجتهاد في العبادات واجتناب المنهيات، وتربية النفس وتطهير القلب من الأخلاق السيئة، وتحليته بالأخلاق الحسنة. وهذا المنهج يقولون أنه يستمد أصوله وفروعه من القرآن والسنة النبوية واجتهاد العلماء فيما لم يرد فيه نص، فهو علم كعلم الفقه له مذاهبه ومدارسه ومجتهديه وأئمته الذين شيدوا أركانه وقواعده (كغيره من العلوم) جيلاً بعد جيل، حتى جعلوه علما سموه علم التصوف، وعلم التزكية، وعلم الأخلاق، فألفوا فيه الكتب الكثيرة بينوا فيها أصوله وفروعه وقواعده، ومن أشهر هذه الكتب: قوت القلوب للشيخ أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي، والحِكَم العطائية للشيخ ابن عطاء الله السكندري،وقواعد التصوف، للشيخ أحمد زروق، وإحياء علوم الدين للإمام الغزالي، والرسالة القشيرية للإمام القشيري، والوصية للشيخ عبد السلام الفيتوري الإدريسي الحسني،وكتاب العقد النفيس في نظم جواهر التدريس للشيخ أحمد بن إدريس الميسوري الإدريسي، وكتاب من جوامع الكلم للشيخ محمد ماضي أبو العزائم وغيرها.

**ماذا قال كبار الفقهاء في التصوف:**

إذا أردنا أن نعرف التصوف في الاصطلاح فلا بد من الرجوع إلى أقوال مشايخ وفقهاء الصوفية في ماهية التصوف وكذلك أقوال أصحاب الطرق.ومنذ نشأة الصوفية إلى يومنا هذا حدث في التصوف تشعبات كثيرة وكثرت أقوالهم في حقيقة التصوف إلى ما يزيد على ألف قول، وكل قول من هذه الأقوال يشير إلى أهم جانب في التصوف عند قائله سواءً بالنظر إلى الطريقة أو الخلق أو الغاية، أو بالنظر إلى حاجة الصوفي أو من حوله وبالنظر إلى حاله والخطأ الذي يريد أن يقومه ولا تخلو أقوالهم من جانب في الجوانب التالية :

١ - التصوف بمعنى الزهد: قال سمنون : التصوف أن لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء.وقال معروف الكرخي: التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق.وقال النوري البغوي: المتصوف من لا يتعلق بشيءٍ ولا يتعلق به شيء.وقال ذو النون المصري: الصوفي من لا يتعبه طلبٌ ولا يزعجه سلب.

٢ - التصوف بمعنى الأخلاق: قال أبو محمد الجريري : التصوف الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني .وقال الكتاني: التصوف خُلق فمن زاد عليك في الخُلق زاد عليك في الصفاء.

٣- التصوف بمعنى الصفاء: -قال سهل بن عبد الله : الصوفي من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله عن البشر واستوى عنده الذهب والمدر. وقال بشر الحافي: الصوفي من صفا لله قلبه . وقال الشبلي : التصوف الجلوس مع الله بلا هم.

٤-التصوف بمعنى المجاهدة: قال الجنيد : التصوف عنوة لا صلح فيها. والمراد بالعنوة الجد والتعب والمراغمة .وقال عمرو بن عثمان المكي : التصوف أن يكون العبد في كل وقت بما هو أولى به في الوقت.

٥-التصوف التزام بالشريعة: -قال أبو حفص عمرو بن سَلَمة النيسابوري: حسن آداب الظاهر عنوان حسن آداب الباطن لأن النبي ﷺ قال: «لو خشع قلبه لخشعت جوارحه». وقال الجنيد : التصوف بيت والشريعة بابه،وقال محمد بن أحمد المقرئ: التصوف استقامة الأحوال مع الله،وقال أبو عمر بن الجنيد: التصوف الصبر تحت الأمر والنهي.

٦ - التصوف بمعنى التسليم الكامل لله:قال الأستاذ أبو سهل الصعلوكي: التصوف الإعراض عن الاعتراض.وقال أبو محمد رويم بن أحمد بن يزيد: التصوف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريده. وقال أبو يعقوب المزايلي عن التصوف: حال تضمحل فيه معالم الإنسانية.

٧- التصوف بمعنى الإخلاص « الغاية وجه الله»:قال الجنيد : التصوف أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة . وقال ذو النون المصري: أهل التصوف هم قوم آثروا الله عز وجل على كل شيء ، فآثرهم الله على كل شيء.وقال أبو الحسين النوري : التصوف ترك نصيب النفس جملة ليكون الحق نصيبها.

٨- التصوف بمعنى الارتباط الروحي بالله:قال أبو نصر الحصري: الصوفي الذي لا تقله أرض ولا تظله سماء. وقال أبو الحسن الخرقاني: ليس الصوفي بمرقعته وسجادته، ولا برسومه وعاداته بل الصوفي من لا وجود له .ونُسب إلى الجنيد قوله : التصوف هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به.

٩- التصوف ترك التكلف والشكليات:قال الجنيد : إذا رأيت الصوفي يعنى بظاهره فاعلم أن باطنه خراب,وقال حماد الدينوري : التصوف أن تظهر الغنى وأن تؤثر أن تكون مجهولاً حتى لا يعرفك الخلق وأن تكف عن كل ما لا خير فيه.

١٠- التصوف بمعنى الطريق المخصوص للسالكين: قال الجنيد : الصوفية هم أهل بيت واحد ، لا يدخل فيهم غيرهم. وقال أبو سليمان الداراني التصوف أن تجري على الصوفي أعمال لا يعلمها إلا الحق وأن يكون دائماً مع الحق على حال لا يعلمها إلا هو.

وبالنظر في الأقوال المتقدمة نجد أن كل تعريف من تعريفات أئمة التصوف والمنتسبين إليه يشير إلى جانب من الجوانب، وهذه الجوانب مجتمعة تشير إلى جوانب عظيمة من جوانب هذا الدين فالتصوف السني ينبغي أن يتوفر فيه جميع ما ذكر من زهد وإخلاص ومجاهدة وخلق كريم وتسليم لرب العالمين والتزام بشرعه وترك للتكلف، وأن يلتزم المنتسب إلى الله تعالى بالعبادة الدائمة لله عز وجل كما أمر، والبعد عن كل ما نهى الشارع عنه، وعن البدع المضلة وعن الفكر الغريب والفلسفات الباطلة.وبعد عرض تلك التعريفات يترجح تعريف ابن خلدون للتصوف لأنه يدل دلالة واضحة على معاني التصوف المتعددة وعلى أحوال الصوفية واهتماماتهم وهو (العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والإنفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة).

**ومما قاله كبار فقهاء السلف في التصوف نورد ما يلي:-**

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى (توفي سنة ٦٧٦ ه) في رسالته «مقاصد الإمام النووي في التوحيد والعبادة وأصول التصوف»: (أصول طريق التصوف خمسة:

١-تقوى الله في السر والعلانية.

٢- اتباع السنة في الأقوال والأفعال.

٣- الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار.

٤-الرضى عن الله في القليل والكثير.

٥- الرجوع إلى الله في السراء والضراء.

وها هو ذا حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي(توفي سنة ٥٠٥ هـ)، رحمه الله تعالى: يتحدث في كتابه «المنقذ من الضلال» عن الصوفية وعن سلوكهم وطريقتهم الحق الموصلة إلى الله تعالى فيقول: (ولقد علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السيرة وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق..ثم يقول ردا على من أنكر على الصوفية وتهجم عليهم: وبالجملة فماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها- وهي أول شروطها- تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله).ويقول أيضاً بعد أن اختبر طريق التصوف ولمس نتائجه وذاق ثمراته: (الدخول مع الصوفية فرض عين، ألا يخلو أحد من عيب إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام).

وقال العلامة الكبير والمفسر الشهير الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى (توفي سنة ٦٠٦ هـ) في كتابه (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين): الباب الثامن في أحوال الصوفية: (اعلم أن أكثر من حصر فرق الأمة لم يذكر الصوفية وذلك خطأ، لأن حاصل قول الصوفية أن الطريق إلى معرفة الله تعالى هو التصفية والتجرد من العلائق البدنية، وهذا طريق حسن..) وقال أيضا: (والمتصوفة قوم يشتغلون بالفكر وتجرد النفس عن العلائق الجسمانية، ويجتهدون ألا يخلو سرهم وبالهم عن ذكر الله تعالى في سائر تصرفاتهم وأعمالهم، منطبعون على كمال الأدب مع الله عز وجل، وهؤلاء هم خير فرق الآدميين).وقال أبو الفضل عبد الله الصدّيق الغماري: إن التصوف كبير قدره، جليل خطره، عظيم وقعه، عميق نفعه، أنواره لامعة، وأثماره يانعة، واديه قريع خصيب، وناديه يندو لقاصديه من كل خير بنصيب، يزكي النفس من الدنس، ويطهر الأنفاس من الأرجاس، ويرقي الأرواح إلى مراقي الفلاح، ويوصل الإنسان إلى مرضاة الرحمن. وهو إلى جانب هذا ركن من أركان الدين، وجزء متمم لمقامات اليقين.خلاصته: (تسليم الأمور كلها لله، والالتجاء في كل الشؤون إليه. مع الرضا بالمقدور، من غير إهمال في واجب ولا مقاربة المحظور. كثرة أقوال العلماء في تعريفه، واختلفت أنظارهم في تحديده وتوصيفه، وذلك دليل على شرف اسمه ومسماه، ينبئ عن سموغايته ومرماه.. وإنما عبر كل قائل بحسب مدركه ومشربه. وعلى نحواختلافهم في التصوف اختلفوا في معنى الصوفي واشتقاقه.ثم: إن التصوف مبني على الكتاب والسنة، لا يخرج عنهما قيد أنملة.والحاصل: أنهم أهل الله وخاصته، الذين ترتجى الرحمة بذكرهم، ويستنزل الغيث بدعائهم، فرضي الله عنهم وعنا بهم .ومن أوصاف هذه الطائفة: الرأفة، والرحمة، والعفو، والصفح، وعدم المؤاخذة.أما تاريخ التصوف فيظهر في فتوى للإمام الحافظ السيد محمد صديق الغماري رحمه الله، فقد سئل عن أول من أسس التصوف؟ وهل هوبوحي سماوي؟ فأجاب: (أما أول من أسس الطريقة فلتعلم أن الطريقة أسسها الوحي السماوي في جملة ما أسس من الدين المحمدي، إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هوأحد أركان الدين الثلاثة التي جعلها النبي ﷺ بعد ما بينها واحدا واحدا ديناً بقوله: هذا جبريل عليه السلام أتاكم يعلمكم دينكم، وهو الإسلام والإيمان والإحسان.

فالإسلام طاعة وعبادة، والإيمان نور وعقيدة، والإحسان مقام مراقبة ومشاهدة، وأول من تسمى بالصوفي في أهل السنة أبو هاشم الصوفي المتوفي سنة ١٥٠ وكان من النساك، ويجيد الكلام، وينطق الشعر كما وصفه الحفاظ.وقال سلطان العلماء (العز) عز الدين بن عبد السلام (توفي سنة ٦٦٠ هـ) رحمه الله تعالى: (قعد القوم من الصوفية على قواعد الشريعة التي لا تنهدم دنيا وأخرى، وقعد غيرهم على الرسوم، مما يدلك على ذلك ما يقع على يد القوم من الكرامات وخوارق العادات، فإنه فرع عن قربات الحق لهم، ورضاه عنهم، ولوكان العلم من غير عمل يرضي الحق تعالى كل الرضى لأجرى الكرامات على أيدي أصحابهم، ولولم يعملوا بعلمهم، هيهات هيهات) المصدر: «نور التحقيق» للشيخ حامد صقر .وقال العلامة الشيخ محمد أمين الكردي:ينبغي لكل شارع في فن أن يتصوره قبل الشروع فيه ليكون على بصيرة به، ولا يحصل التصور إلا بمعرفة المبادئ العشرة المذكورة. فحدّ التصوف: هو علم يُعرف به أحوال النفس محمودها ومذمومها، وكيفية تطهيرها من المذموم منها، وتحليتها بالاتصاف بمحمودها، وكيفية السلوك والسير إلى الله تعالى، والفرار إليه. وموضوعه: أفعال القلب والحواس من حيث التزكية والتصفية.وثمرته: تهذيب القلوب، ومعرفة علام الغيوب ذوقاً ووجداناً، والنجاة في الآخرة، والفوز برضا الله تعالى، ونيل السعادة الأبدية، وتنوير القلب وصفاؤه بحيث ينكشف له أمور جليلة، ويشهد أحوالاً عجيبة، ويُعاينُ ما عميت عنه بصيرة غيره. وفضله: أنه أشرف العلوم ؛ لتعلقه بمعرفة الله تعالى وحبه، وهي أفضل على الإطلاق.ونسبته إلى غيره من العلوم: أنه أصل لها، وشرط فيها، إذ لا علم ولا عمل إلا بقصد التوجه إلى الله، فنسبته لها كالروح للجسد، وواضعه: الله تبارك تعالى، أوحاه إلى رسوله ﷺ والأنبياء قبله ؛ فإنه روح الشرائع والأديان المنزلة كلها.واسمه: علم التصوف، مأخوذ من الصفاء، والصوفي: مَن صفا قلبُه من الكدر، وامتلأ من العِبَر، واستوى عنده الذهبُ والمَدَر، واستمداده: من الكتاب والسنة والآثار الثابتة عن خواص الأمّة.وحكم الشارع فيه: الوجوب العيني ؛ إذ لا يخلو أحد من عيب أومرض قلبي، إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ومسائله: قضاياه الباحثة عن صفات القلوب، ويتبع ذلك شرح الكلمات التي تُتَداول بين القوم (كالزهد والورع والمحبة والفناء والبقاء).ويقول العلامة الشريف الجرجاني في (التعريفات): التصوف مذهب كله جد فلا يخلطونه بشيء من الهزل، وهو تصفية القلب عن مواقف البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة الدعاوي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بعلوم الحقيقة واستعمال ما هو أولى على السرمدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله تعالى على الحقيقة، واتباع رسول الله ﷺ في الشريعة. ويقول الدكتور أبو الوفا التفتازاني في كتابه (مدخل إلى التصوف الإسلامي): ليس التصوف هروبا من واقع الحياة كما يقول خصومه، وإنما هو محاولة الإنسان للتسلح بقيم روحية جديدة، تعينه على مواجهة الحياة المادية، وتحقق له التوازن النفسي حتى يواجه مصاعبها ومشكلاتها.وفي التصوف الإسلامي من المبادئ الإيجابية ما يحقق تطور المجتمع إلى الأمام

فمن ذلك أنه يؤكد على محاسبة الإنسان لنفسه باستمرار ليصحح أخطاءها ويملها بالفضائل، ويجعل فطرته إلى الحياة معتدلة، فلا يتهالك على شهواتها وينغمس في أسبابها إلى الحد الذي ينسى فيه نفسه وربه، فيشقى شقاء لا حد له. والتصوف يجعل من هذه الحياة وسيلة لا غاية، وبذلك يتحرر تماما من شهواته وأهوائه بإرادة حرة.**و**هذا مؤسس علم الإجتماع المؤرخ صاحب المقدمة ابن خلدون (توفي ٨٠٨ هـ)**:** يقول في كلامه عن علم التصوف: (هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة. وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية) المصدر: مقدمة ابن خلدون.

ومن كبار العلماء المتأخرين يقول الشيخ محمد أبو زهرة**:**نحن في عصرنا هذا أشد الناس حاجة إلى متصوف بنظام التصوف الحقيقي وذلك لأن شبابنا قد استهوته الأهواء وسيطرت على قلبه الشهوات.. وإذا سيطرت الأهواء والشهوات على جيل من الأجيال أصبحت خطب الخطباء لا تجدي، وكتابة الكتاب لا تجدي، ومواعظ الوعاظ لا تجدي، وحكم العلماء لا تجدي، وأصبحت كل وسائل الهداية لا تجدي شيئا.إذ لا بد لنا من طريق آخر للإصلاح، هذا الطريق أن نتجه إلى الاستيلاء على نفوس الشباب، وهذا الاستيلاء يكون بطريق الشيخ ومريديه، بحيث يكون في كل قرية وفي كل حي من أحياء المدن وفي كل بيئة علمية أو اجتماعية رجال يقفون موقف الشيخ الصوفي من مريديه.

ومن كبار أئمة السلف من قرون الخيرية عن الإمام أبو حنيفة**:** نقل الفقيه الحنفي صاحب الدر المختار: أن أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى قال: (أنا أخذت هذه الطريقة من أبي القاسم النصر أباذي، وقال أبوالقاسم: أنا أخذتها من الشبلي، وهومن السري السقطي، وهومن معروف الكرخي، وهومن داود الطائي، وهوأخذ العلم والطريقة من أبي حنيفة ط، وكل منهم أثنى عليه وأقر بفضله. «ثم قال صاحب الدر معلقا»: فياعجباً لك يا أخي ! ألم يكن لك أسوة حسنة في هؤلاء السادات الكبار؟ أكانوا متهمين في هذا الإقرار والافتخار، وهم أئمة هذه الطريقة وأرباب الشريعة والطريقة؟ ومن بعدهم في هذا الأمر فلهم تبع، وكل من خالف ما اعتمدوه مردود مبتدع. ولعلك تستغرب عندما تسمع أن الإمام الكبير، أبا حنيفة النعمان رحمه الله تعالى، يعطي الطريقة لأمثال هؤلاء الأكابر من الأولياء والصالحين من الصوفية.يقول ابن عابدين رحمه الله تعالى، في حاشيته متحدثا عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى، تعليقا على كلام صاحب الدر الآنف الذكر: (هوفارس هذا الميدان، فان مبنى علم الحقيقة على العلم والعمل وتصفية النفس.

وقد وصفه بذلك عامة السلف، فقال أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في حقه: إنه كان من العلم والورع والزهد وإيثار الآخرة بمحل لا يدركه أحد، ولقد ضرب بالسياط ليلي القضاء، فلم يفعل. وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى: ليس أحد أحق من أن يقتدى به من أبي حنيفة، لأنه كان إماما تقيا نقيا ورعا عالما فقيها، كشف العلم كشفا لم يكشفه أحد ببصر وفهم وفطنة وتقى. وقال الثوري لمن قال له: جئت من عند أبي حنيفة: لقد جئت من عند أعبد أهل الأرض). وقال فيه الشافعي الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة.ويقول إمام المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التسليم، الإمام مالك رحمه الله تعالى (توفي ١٧٩ هـ): (من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق) المصدر: حاشية العلامة علي العدوي على شرح الإمام الزرقاني على متن العزيه في الفقه المالكي. وشرح عين العلم وزين الحلم للامام ملا علي قاري.ويقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى (توفي ٢٠٤ هـ):(صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين، وفي رواية سوى ثلاث كلمات قولهم: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك. وقولهم: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل. وقولهم: العدم عصمة). المصدر «تأييد الحقيقة العلية» للامام جلال الدين السيوطي .وقال الشافعي أيضا: (حبب إلي من دنياكم ثلاث: ترك التكلف، وعشرة الخلق بالتلطف، والاقتداء بطريق أهل التصوف) المصدر: «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث عل ألسنة الناس» للامام العجلوني.وكان الإمام أحمد بن حنبل (توفي ٢٤١ هـ) رحمه الله تعالى قبل مصاحبته للصوفية يقول لولده عبد الله رحمه الله تعالى: ( يا ولدي عليك بالحديث، وإياك ومجالسة هؤلاء الذين سموا أنفسهم صوفية، فإنهم ربما كان أحدهم جاهلا بأحكام دينه. فلما صحب أبا حمزة البغدادي الصوفي، وعرف أحوال القوم، أصبح يقول لولده: يا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم، فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة). المصدر: «تنوير القلوب» للعلامة الشيخ أمين الكردي.وقال العلامة محمد السفاريني الحنبلي رحمه الله تعالى عن إبراهيم بن عبد الله القلانسي رحمه الله تعالى أن الإمام أحمد رحمه الله تعالى قال عن الصوفية: (لا أعلم قوما أفضل منهم. قيل: إنهم يستمعون ويتواجدون، قال: دعوهم يفرحوا مع الله ساعة...). المصدر:«غذاء الألباب شرح منظومة الآداب» لمحمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي.وقال الشيخ تاج الدين عبد الوهاب السبكي(توفي سنة ٧٧١ هـ) رحمه الله تعالى: في كتابه «معيد النعم ومبيد النقم» تحت عنوان الصوفية: (حياهم الله وبياهم وجمعنا في الجنة نحن وإياهم. وقد تشعبت الأقوال فيهم تشعبا ناشئا عن الجهل بحقيقتهم لكثرة المتلبسين بها، بحيث قال الشيخ أبومحمد الجويني: لا يصح الوقف عليهم لأنه لا حد لهم. والصحيح صحته، وأنهم المعرضون عن الدنيا المشتغلون في أغلب الأوقات بالعبادة... ثم تحدث عن تعاريف التصوف إلى أن قال: والحاصل أنهم أهل الله وخاصته الذين ترتجى الرحمة بذكرهم، ويستنزل الغيث بدعائهم، فرضي الله عنهم وعنا بهم).

الحمد لله على نعمائه وكفاية آلائه، حمدا يعرج به براق التوفيق إلى جناب المحمود في مقام الحق، يرفعنا بإذن الله إلى رفيع درجات التحقق بشكر الوهاب الذي سخر لنا ما في السموات وما في الأرض جميعا منه علنا نبلغ أسباب التقوى ومدارج العقل لنكون من الذين تواصوا بالحق الذي عقلوه عنه بمنته وفضله، فالتزموا بما شرّع وأنزل التزام الذين تواصوا عليه بالصبر. والصلاة والسلام على حبيبنا وقدوتنا محمد رسول الله الصادق الأمين، الذي بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة ثم التحق بالرفيق الأعلى رشيدا، مخلفا فينا راية الحق باهرة شمّاء، من تمسك بها هدي واسترشد، ومن زاغ عنها ضل سعيه في الحياة الدنيا ولن يجد من دون الله ملتحدا، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأوليائه من أهل الذوق الصافي الصوفي المحمدي الذين تتنزل بحضورهم الرحمات، وتتجاوب بذكرهم السموات ذلك لأنهم العباد والزهاد والذكّار، يملؤون الأرض والسماء بأريج عطر طيب يفوح شذى من عطر المحبين الطيبين، ذلك لأنه عطر المحبة، عطر أولياء الله الصالحين الذي لا يشم شميمه إلا من كان خالصا القلب تقيا.

**ما يجب على المريد معرفته حجة في الرد على منكري التصوف:**

الحمد لله على نعمائه وكفاية آلائه، حمدا يعرج به براق التوفيق إلى جناب المحمود في مقام الحق، يرفعنا بإذن الله إلى رفيع درجات التحقق بشكر الوهاب الذي سخر لنا ما في السموات وما في الأرض جميعا منه علنا نبلغ أسباب التقوى ومدارج العقل لنكون من الذين تواصوا بالحق الذي عقلوه عنه بمنته وفضله، فالتزموا بما شرّع وأنزل التزام الذين تواصوا عليه بالصبر.والصلاة والسلام على حبيبنا وقدوتنا محمد رسول الله الصادق الأمين، الذي بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة ثم التحق بالرفيق الأعلى رشيدا، مخلفا فينا راية الحق باهرة شمّاء، من تمسك بها هدي واسترشد، ومن زاغ عنها ضل سعيه في الحياة الدنيا ولن يجد من دون الله ملتحدا، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأوليائه من أهل الذوق الصافي الصوفي المحمدي الذين تتنزل بحضورهم الرحمات، وتتجاوب بذكرهم السموات ذلك لأنهم العباد والزهاد والذكّار، يملؤون الأرض والسماء بأريج عطر طيب يفوح شذى من عطر المحبين الطيبين، ذلك لأنه عطر المحبة، عطر أولياء الله الصالحين الذي لا يشم شميمه إلا من كان خالصا القلب تقيا.

خصصنا هذه الفقرة لأهل الطريق ومحبي المنهج الصوفي الكريم، لذلك سيكون الحديث بلغة تفهمونها، حديث الحجة لمن يريد الحجة، فكلكم يؤمن بالتصوف منهجا وبالطريق سبيلا وبالقرآن رائدا وبالرسول قائدا وبالله ربا وبالإسلام دينا، بيد أنكم تتبعون طرقا وتنتهجون سبلا عرفت في تاريخ الإسلام باسم الصوفية، والذين في قلوبهم مرض دفعهم للتأرجح بين المحكم والمتشابه من آيات الله، بغيتهم الفتنة والتفريق بين المسلمين عن قصد أو جهل، لذلك هم ينكرون هذا الاسم ويزعمون أنه بدعة وضلالة ويقولون محتجين بقول الرسول صلي الله عليه وآله وسلم «وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»، (وهو حديث ضعيف لم يرد عند أحد قبل ابن تيمية)، ليكون الحكم عليكم حكما بالنار، لا لشيء إلا لأنكم ابتدعتم في «زعم هؤلاء القوم» بدعا ما أنزل الله بها من سلطان تحت ما عرف بالتصوف

ولهذا سنبدأ بالأصل الذي زعم الزاعمون أنه بدعة، فإن ثبت الأصل تمت الفروع حتى التحقت بالسماء لتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وإن اهتز الأصل ولم يكن له قرار كان فرعه ضاويا هزيلا لا يحمل ثمرة ولا يورِّق غصنا. ومن هذا يكون السؤال:

**التصوف.. ما هو وما هو مصدره؟**

اللغة العربية المباركة التي اختارها الخالق ليخاطب بها عباده وعبيده وختم بهذا الخطاب رسالاته، فتشرفت بالذكر المبارك الحكيم، تبين لنا من تتبع دلالة المفردة، أن الاسم مستمد من زيٍّ معيّن من لبس القميص الصوفي الخشن زهدا، ولكن الذين في قلوبهم مرض، يتخذون من هذا الاسم هزوا، ويتخذونكم به سخريا، ذلك لأنهم يجعلونكم بهذا الاسم شركاء مع الخروف ويقولون «لو كان التصوف بالصوف لطار الخروف»، بيد أن الذين يسخرون من هذا الاسم، فاتهم أن لكل زي دلالة اعتبارية تميز أشخاصا بصفة معينة .فما هي شارات الصوفي وما هي شارات من تصوف؟ : العلماء الذين بحثوا عن تاريخ التصوف فردوه إلى أصوله من القرآن والسنة وحياة الصحابة، وأرجعوا دلالات لبس الصوف إلى عدد من المضامين التربوية، ذلك لأن الأصل في صدر الإسلام أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتقللون من متاع الدنيا، وكانوا فيها من الزاهدين، حتى أن الواحد منهم كان يبيت الليالي ذوات العدد من غير أن يدخل في جوفه طعام، وكانوا في ذلك يتأسّون بالرسول صلي الله عليه وآله وسلم، الذي آثر أن يجوع يوما ويأكل يوما غير أن الله عرض عليه بطحاء مكة ذهبا فآثر أن يكون عبد الله ورسوله، فتأسيا بهذا الرسول الكريم الذي بعث في الأميين وهو منهم ليتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة فكان الصحابة يعيشون هذا الخلق الكريم وهذا النهج التربوي السليم، حتى إذا انقضى عصر النبوة وانقضى عصر الخلافة الراشدة وجد الناس الذين عاصروا الصحابة أن عددا من المسلمين قد استهوتهم الدنيا وأخذوا من بهرجها ما أنتج لهم، وشغلتهم بل وصرفتهم عن كثير من مهمات أمورهم الدينية في مختلف المجالات، فحاول الربانيون فيهم أن يعودوا بهم إلى ما كان عليه الرسول صلي الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام وأصحابه رضوان الله عليهم، ليكونوا بذلك من الغرباء الذين يُحيون ما اندثر من سنته صلي الله عليه وآله وسلم، حتى يكونوا على ما كان عليه المصطفى صلي الله عليه وآله وسلم وأصحابه، فدعوا الناس إلى التَّقلُّل من الدنيا، ودعوا الناس إلى الرجوع إلى الحق، وأظهروا ذلك بعمل ملحوظ مشاهد، ومن ذلك لبسهم ما اخشوشن من الثياب، وقد وجدوا أن الصوف هو أكثر الثياب تحملا لمتطلبات الزهد والتقشف فاتخذوه زيا، وهذا الزي الذي اتخذه كبار الزهاد في صدر الإسلام هو الذي عرفت به طائفة من المسلمين فيما بعد، وحينها تقعّدت قواعد المذاهب الإسلامية على مختلف مناحي العلم، سواء كان علما عقديا أو علما فقهيا، ولهذا نشأ أن كلمة صوفي عرفت بالضبط سنة خمس وسبعين من الهجرة، يعني في القرن الإسلامي الأول، والصحابة يومئذ متوافرون لأن آخر الصحابة مات سنة مائة وواحدة، والفرق بين مائة وواحدة وخمس وسبعين فرق كبير

من هنا فإن الذي يزعم أن كلمة صوفي وتصوف ما عرفت إلا بعد أن انقضى عهد الصحابة، نقول له زعمك باطل وعلمك قاصر ذلك لأن المسلم إذا حكم في مسألة ما، عليه أن يتحقق ويدقق ويجمع أصولها حتى لا يتهم بالتقصير فيما يقول. فأول من سمي بالصوفي هو أبو هاشم يحيى بن زيد بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. أبو هاشم الصوفي يحيى الشهيد الذي ثار كثورة أبيه زيد، وزيد هذا هو ولد علي بن الحسين (زين العابدين) وأخ محمد الباقر، ومحمد الباقر هو والد جعفر الصادق الذي عاصر أبا حنيفة ومالك وكان من مشايخهم، ولهذا عندما يقرأ الدارس عن تاريخ التصوف يجد أن كلمة صوفي هذه لم تقتصر على أبي هاشم هذا، وإنما عرفها الحسن بن يسار المشهور بالحسن البصري، وهو بصري النشأة مدني المولد، إذ ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب ط، فقد ولد سنة إحدى وعشرين في منزل أم سلمة أم المؤمنين لأن أمه كانت مولاة لأم سلمة وأبوه له ولاء لبني هاشم في المدينة فتربى الحسن في بيت النبوة، ويقول ابن سعد صاحب الطبقات وهو أقدم تاريخ معروف عند أهل العلم، أن أم الحسن هذه كانت تغيب عن البيت في بعض حاجاتها فيبكي الحسن وهو طفل فتحمله أم سلمة أم المؤمنين فيدر ثديها له فيرضع منه فهو رضيع لبان النبوة. وقد عاش الحسن ط في المدينة حتى استشهد سيدنا عثمان ﵁ وذلك في عام خمسة وثلاثين من الهجرة، فكأنه عاش في المدينة أربع عشرة سنة ثم ارتحل بعد ذلك إلى البصرة وعرف بالحسن البصري وتعلمون أنه تعود إليه كل طرق التصوف تقريبا لماذا؟، لأنه عاصر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﵁ وأخذ عنه الكثير من العلم حتى إن سيدنا عليا عندما ذهب إلى الكوفة وهناك التقى بسهل بن حنيف واليه على الكوفة، أمره أن يخرج القصَّاص (الحكواتي) من مسجد الكوفة، وخرج سيدنا علي ليطوف على هذه الحلق التي تذكر فيها القصص، حتى وقف عند حلقة هذا الشاب المسمى بالحسن بن يسار، فالتفت إلى سهل بن حنيف فقال: يا سهل من هذا الغلام الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء، قال ذلك الحسن بن يسار فقال أما هذا فأثبته في مكانه، ومنذ ذلك الحين أخذ الحسن من الإمام علي الكثير من العلم والمعرفة، ولأن سيدنا الحسن البصري ط لم يلبس غير الصوف، سئل في ذلك فقال: يا هؤلاء أقصروا، فوالله لقد شهدت سبعين بدريا (من أهل بدر)، كلهم يلبس الصوف حتى إذا نزلت السماء عليهم شممت منهم رائحة الضأن. إذن لبس الصوف ليس بالشيء الجديد. فعلام يدل لبس الصوف؟، هذا ما بحثه الباحثون فقالوا.. إن لبس الصوف دلالة على الصفاء ولهذا فمن صافى الحق صافاه ليكون بذلك صوفيا، وقيل لبس الصوف إشارة ودلالة على التزام لابسيه بالصلاة في الصف الأول لأنهم من الذين يجالسون الحق على الدوام بحيث لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وقالوا بل إن الصوف يدل على أن أهله من صفوة الله الذين آثروا ما عند الله على ما في هذه الدنيا فقلبوا لها ظهر المجن وعاملوها معاملة قاسية، لأنها دار فناء، ولدار البقاء عملوا.

ولهذا نستطيع أن نقول إن التصوف منهجا للزهد والنسك والذكر والصفاء ومنهجا ليكون الإنسان من صفوة الله ومنهجا ليكون من أهل الصف الأول، فالتصوف بهذه المرتكزات قديم قدم الإسلام، معروف ما عرف الإسلام، لأن الإسلام قد جاء عبر القرآن الكريم والسنة النبوية بهذه المفاهيم، ولهذا لم يتكلم علماء التصوف كثيرا عن الهيئة بقدر ما تحدثوا عن أركان التصوف، وهو مقسم عندهم إلى أربعة أركان إذا قام على دعائمها قام البناء شامخا، وإذا انهارت هذه الدعائم انهار البناء تبعا لانهيار دعائمه، ولهذا كان الركن الأول لمنهج المتصوفة هو السهر فلن تجد صوفيا إلا وله نصيب من الليل، لأن الليل موضع الخلوة الزمانية بين الأحبة وحبيبهم، وهو من أدعى الأوقات للإجابة والقبول، وهو الصلة التي تربط الإنسان بفيوضات عطاء ربه، ولهذا جعله الله تبارك وتعالى ظرفا زمانيا مليئا بالأسرار واللطائف، وأمر عباده الصالحين أن يقوموا من الليل ساهرين، ولهذا نجد في كثير من آيات القرآن الكريم الدعوة إلى السهر والدعوة إلى قيام الليل ذلك لأن لليل أهلاً لهم، فيه راحة وسكن، وقد أدب الله رسوله ورباه فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل:١-٤]، لماذا؟ ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل ٥-٦]. هذه الناشئة من الليل التي هي أشد وطئاً، هي التي عرفها أهل التصوف وهي التي دعوا الناس إليها ليكونوا من أولئك الذين قال فيهم الله عز وجل: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۝٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ۝٦٤﴾ [الفرقان ٦٣ ٦٤]، فهؤلاء الذين يبيتون لربهم، أي يقفون ليلهم ركعا سجدا، يبتغون فضلا من الله ورضوانا، ذلك لأن قيام الليل بالعبادة من سيماء الصالحين ومن علامات عباد الله المقربين، من هذا كان السهر ركنا ركينا وأصلا ثابتا من أصول التربية الإسلامية التي جاءت عبر القرآن الكريم باعتباره النهج الإلهي القويم.

أما الركن الثاني في منهج المتصوفة هو الجوع ، الذي إذا تأملناه، نجد أن القرآن الكريم عبر عنه بالصيام، والصوم هو إمساك النفس عن شهواتها المعتادة كشهوتي البطن والفرج، فمن جاع اتصل بالله عبر حبل متين، ذلك لأن الجائع يكون قريبا من ربه فتزكو نفسه وتسمو روحه ويستيقن قلبه الإيمان، ليكون بذلك من المقربين فالجوع وارد، ولو ذهبنا نعدد الحوادث والأحاديث التي تتحدث عن الجوع لطال بنا المقام ولهذا نشير إشارة عابرة إلى أن الرسول صلي الله عليه وآله وسلم كان أسوة في الجوع

وكان أسوة في الصيام، فانظروا إليه في غزوة الخندق يعصب بطنه بالحجر، ويأتي إليه محمد بن مسلمة وقيل حذيفة بن اليمان يقول له إن عقبة كؤوداً حالت بين المسلمين وبين حفر الخندق، فجاء رسول الله ﷺ وهو جائع لم يذق طعاما منذ أمد وقد عصب حجرا على بطنه يتقوى به، فحمل المعول وضرب الصخرة ضربة فبرقت برقا شديدا، فقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس»، ثم ضربها ثانية فبرقت فقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح الروم»، ثم ضربها ثالثة فقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح الجزيرة العربية» ثم انهالت الصخرة وانقضت، وهذا الربط بين الحالة التي كان عليها الرسول ﷺ وبين هذا الفتح المبين، وبين هذه البشرى التي ذكرها الرسول ﷺ يبشر بها هؤلاء الصحابة الأجلاء، يلفت النظر إلى أن من جاع يكون متصلا بالله أي في حالة كونه ذاكرا له يفتح له ويبشر ببشارات تأتي في مستقبل أيامه، وقد صدق رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم فيما بشر به، وبهذا نجد أن الجوع ديدن الصالحين ونجائب المقربين، منذ عهد الرسول صلي الله عليه وآله وسلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

أما الركن الثالث فهو العزلة :التي يعبر عنها الشارع بالاعتكاف، وهي السنة التي كاد الناس أن ينسوها، ولها أصل أصيل وركن ركين بدءا من تربية المصطفى قبل مبعثه صلي الله عليه وآله وسلم ليكون رسولا وليعد لمقام الرسالة، أعده الله لهذا المقام الرفيع بالعزلة، حتى إن قريشا كانت تقول إن محمدا قد عشق ربه، فكان يذهب ليختلي في غار حراء الشهر والشهرين والثلاثة ثم يعود إلى أهله فيتزود لمثلها، حتى إذا فاجأه الوحي وجده في خلوته معتزلا بغار حراء، ولهذا فإن الخلوة استجماع للفؤاد لمجالسة رب العالمين ولذلك فإن أبا يزيد البسطامي العالم المرشد الجليل كان يقول (من علامات صدق المريد في طلبه الحق فراره من الخلق، ومن علامات صدق فراره من الخلق وجوده للحق، ثم رجوعه مرة أخرى ليرشدهم إلى الله)، وهذه هي نفس الطريقة التي سار عليها الرسول صلي الله عليه وآله وسلم، فقد اعتزل الخلق فوجد الحق فعاد بالحق رسولا يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ولهذا نجد أن هذا المنهج يدل عليه القرآن، وما كان عليه الرسول صلي الله عليه وآله وسلم، ولا يزعم أحد أن التربية التي كان عليها رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم تتعارض مع الإسلام، وإلا لكان هذا طعن في الوسيلة التي أعد بها الله رسوله صلي الله عليه وآله وسلم، ثم إن الرسول صلي الله عليه وآله وسلم يحتفظ بهذا الركن عبر هذا الاعتكاف، وهل الاعتكاف إلا الخلوة، التي قد تستمر أربعين يوما أو تسعين يوما حسب حالة الإنسان المعتكف وحسب علاقته بأهل الدنيا، وإن كان متفرغا جاز له أن يمكث ما شاء من الزمن، كأهل الصفة فإنهم كانوا متفرغين لا عمل لهم، فهم يذكرون الله تعالى بالغداة والعشي كما وصفهم جل شأنه، والرسول صلي الله عليه وآله وسلم كان يحبهم ويجالسهم

ولهذا عندما جاء صناديد قريش وكبراؤهم ليناقشوا رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم عام الوفود سنة ثمان من الهجرة، قالوا لرسول الله ﷺ نحن نريد أن نسلم ولكن بشرط هو أن تجعل لنا مجلسا بعيدا عن هؤلاء العبيد والضعفاء، حتى تعرف العرب به فعلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا مع هؤلاء فإذا نحن جئنا فأقمهم عنا وإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت فقال لهم الرسول ﷺ: نعم.. فنزل قول الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ٢٩﴾ [الكهف:٢٨-٢٩]. فالمعنيون بالآية الأولى هم أهل الصفة والمعنيون بالآية الثانية هم صناديد وكبراء قريش فانظروا واعتبروا يا أولي الألباب لتكريم الله لأوليائه وإهانته وزجره لأعدائه. أما الركن الرابع الصمت فهو حكمة، وقليل فاعله وإذا تتبعتم الأحاديث النبوية الشريفة وجدتموها كثيرا ما تحث على الصمت وهذه أمثلة منها فقد قال الرسول صلي الله عليه وآله وسلم: «من كان يؤمن بالله فليقل خيرا أو ليصمت» أورده البخاري في صحيحه من حديث رواه عن الصحابي أبو شريح العدوي الخزاعي الكعبي، وقال عليه الصلاة والسلام «من يتكفل لي ما بين لحييه وفخذيه ضمنت له الجنة» رواه الترمذي في صحيحه عن الصحابي سهل بن سعد الساعدي، وقال صلي الله عليه وآله وسلم في الحديث الطويل: «وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم» رواه الترمذي في سننه عن الصحابي معاذ بن جبل، وسئل الرسول صلي الله عليه وآله وسلم عن أكثر ما يدخل النار فقال: «الأجوفان الفم والفرج». رواه ابن حبان في صحيحه عن الصحابي طلق بن علي. وقال عليه وآله الصلاة والسلام، (من صمت نجا) رواه المنذري في الترهيب والترغيب عن عبد الله بن عمر، وقال صلي الله عليه وآله وسلم «من كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ومن كثرت ذنوبه فالنار أولى به» رواه الذهبي في ميزان الإعتدال عن عبد الله بن عمر، ويكفيك قول الله تعالى في محكم آياته ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء:١١٤]، ومعناها ألا تتكلم فيما لا يعنيك وأن تقتصر على ما يهمك وقد جمعت أركان التصوف في قول بعضهم:

**بيت الولاية قسمت أركانه    سادتنا فيه من الأبدال**

**ما بين صمت واعتزال دائم    والجوع والسهر النزيه الغالي**

وإذا علمنا أن هذه الأركان تثبت بالكتاب والسنة وكل أهل الطرق متمسكون بها، ولكنهم نجدهم قد اختلفوا في مناحي التربية ومنهج السلوك.

وهنا نشأ التقول عليهم من أعدائهم محتجين بالآية الكريمة ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، يقولون وهم يستندون إلى هذه الآية إن هذه السبل هي الطرق الكثيرة (قادرية، رفاعية، سمّانية، عروسية عيساوية إدريسية عزمية..... إلخ) وكأن الله لم ينزل آية تعدد سبل الخير فقد قال الله تعالى أيضا ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩]، والجهاد جهادان، جهاد في سبيل الله، وجهاد في سبيل الحق، والله سبحانه وتعالى قد ربط بين هداية الإنسان المسلم إلى السبل الخيرة بالجهاد فيه، فالجهاد فيه أرفع من الجهاد في سبيله، وإذا كان المجاهدون في سبيله أحياء عند ربهم يرزقون فالمجاهدون فيه أرقى حياة منهم. فقد قال الرسول صلي الله عليه وآله وسلم «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس في الله». رواه ابن رجب في نور الاقتباس عن جابر بن عبد الله، ومعناه التحلي بالفضائل عن الرذائل، وهو مقام الصدّيقية التي هي دون النبوة وفوق الشهادة، والمشار إليها بقوله تعالى ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩]، ومن هذه الآية نعلم أن من قتل في الجهاد في سبيل الله كان صديقا لأنه أمات النفس الأمارة في ذات الله، ومن أمات النفس الأمارة بالسوء فيه، أحيا النفس الراضية المرضية فيه، وهي التي تعرج بصاحبها إلى عالم الملكوت فيتلقى من عالم الملكوت نورا من نور الله يستقر في قلبه ويضيء طريق الحق والهداية فيكون عمله كله لله. وهذه النفس الراضية المرضية التي أحيتها طاعة الله ورسوله يشير إليها الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيل آياته بقوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [الأنفال:٢٤]، وسيدنا أبو بكر كان أول المستجيبين لهذا النداء الرباني فنجده عندما أتى بماله للرسول صلي الله عليه وآله وسلم وقال له الرسول صلي الله عليه وآله وسلم: «ماذا تركت لأهلك؟».. قال «تركت لهم الله ورسوله» وعندما أتى عمر بماله وكان يريد أن يباري ويسامي أبا بكر قال له الرسول صلي الله عليه وآله وسلم «ماذا تركت لأهلك يا عمر؟» قال: «نصف مالي».. قال: «الفرق بينكما كالفرق بين قوليكما يا عمر يا ابن الخطاب لم يفضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بشيء وقر في قلبه».

كما روى أبو داود في سننه عن عمر بن الخطاب (أمرَنا رسولُ اللهِ ﷺ يومًا أن نتصدقَ فوافق ذلك مالًا عندي فقلتُ اليومَ أسبقُ أبا بكرٍ إن سبقتُه يومًا فجئتُ بنصفِ مالي فقال رسولُ الله ﷺ: ما أبقيتَ لأهلك قلتُ مثلَه قال وأتى أبو بكر بكلِّ ما عندَه فقال له رسولُ الله ﷺ: ما أبقيتَ لأهلِك قال أبقيتُ لهم اللهَ ورسولَه قلتُ: لا أسابِقُكَ إلى شيءٍ أبدًا)، فالذي أمات نفسه في الله هو الذي أهدي إلى سبيل الحق والرشاد. ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت:٦٩]، فاللام هنا لام تأكيد، والنون جاءت أيضا للتأكيد، أي تؤكد أن من جاهد في الله هداه إلى أحد هذه السبل وطرق الرشاد المختلفة، فتعدد هذه المدارس التربوية عند المتصوفة واختلاف أسمائها، يشبه تماما مناحي التفكير عند علماء المسلمين في مجالات العقيدة والفقه، فنجد العقيدة الأشعرية نسبة لأبي الحسن الأشعري، والعقيدة الماتريدية نسبة للماتريدي، والعقيدة الواسطية نسبة لواسط، وهو المكان الذي ألف فيه ابن تيمية هذه العقيدة، وأما في مجال الفقه فنجد هناك ثمانية وعشرين مذهبا والذي عليه الناس اليوم ثمانية مذاهب، فهذا كله يدل على أن هناك تعدداً في مناحي التفكير عند العلماء، وكلهم نجدهم متفقين على أن القرآن والسنة مصادر للتشريع لكن كل واحد من هؤلاء الأئمة يفهم من هذين المصدرين ما يتخذه طريقا للاستنباط والتفسير، وإذا كان هذا واقع في تاريخ العلوم الإسلامية فلا غرابة أن تنسب مناحي التفكير في التربية إلى واضعيها الذين عرفوا بها.

بعد هذا البيان نجد كثيرا من خصوم هذا المنهج الرباني يدّعون أنه لا يتصوف إلا من كان جاهلا، فالصوفية عندهم هي منهج العوام، ولكن العلماء مدعوون قبل غيرهم إلى التزام المنهج الصوفي، ومدعوون ليس بكلام شيخ وإنما بكلام الله عز وجل الذي يقول في كتابه العزيز: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴾ [آل عمران:٧٩]، وهذه (الربانية) ليست الفقه وحده ولا العقيدة وحدها، وإنما الرباني هو الذي جمع بين العلم والعمل، لذلك لا يمكن أن يكون الواحد ربانيا إلا إذا كان على جانب من العلم والعمل، فالعالم بدون عمل لا يصير ربانيا فلا بد أن يجمع بينهما. «بما كنتم تعلمون»، فهذه دعوة إلى العلماء قبل الدارسين، والدارسون مدعوون من بعد العلماء، فخيار الناس إما عالم أو متعلم، والربانية هذه التي أمر الله بها المسلمين معناها أن يكون المؤمن على علاقة قوية بالله، بحيث يتخذ منهجا في التربية ساميا، ولن يجد أقوم من منهج المتصوفة المستمد من القرآن والسنة، ومن مقومات الربانية أن يكون المؤمن ملتزما بتلك القواعد الأربع (السهر، والجوع، والعزلة، والصمت.( فلن تكون ربانيا بغيرها قط،.. لماذا؟: لأن هذه القواعد الأربعة تفضي بك إلى التخلق بأخلاق الله والرسول إذا أين نجد أخلاق الله هذه كي نتخلق بها؟،

الإجابة تجدونها في القرآن الكريم، فإن الرسول صلي الله عليه وآله وسلم كان خلقه القرآن، وخلق الرسول من أخلاق الله، لأجل هذا من عايش القرآن وكان نسخة حية له كان حجة لغيره ممن يدعوهم إلي الله، إذا علمنا هذا كله فينبغي أن نعلم إلى جانبه أن هذه الدعوة إلي الربانية لها نتائج، ومن النتائج الأولى أن الإنسان إذا ذكر الله كثيرا جالسه لأن الله سبحانه وتعالى يقول «أنا جليس من ذكرني». أخرجه السمهودي في الغماز على اللماز، ومن جالس الحق أنس به ومن أنس به عرفه، لأن الأنس علامة معرفة، وإذا عرفه قربه وإذا قربه ناجاه وإذا ناجاه أكرمه وإذا أكرمه تخلق بأخلاقه وإذا تخلق بأخلاقه تعالى حققه بما ينبغي أن يتحقق به من حقيقة الإيمان وأنوار الفرقان ليتغذى بجمال من جميل.

لهذا فيا أحباب الله ويا أحباب رسول الله، لا تلتفتوا لكلام هؤلاء الذين عميت أبصارهم وبصائرهم وكلهم لا يخلو أحدهم من حسد أو جهل، أما عمى أبصارهم فلأنهم لم يروا ما ترونه أنتم من هؤلاء المشائخ، فقد سئل الرسول صلي الله عليه وآله وسلم عن علامة الأولياء فقال لهم: «الذين إذا رؤوا ذُكِرَ اللهُ» أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، وأنتم تستشعرون ذلك، وربما وقع البعض منكم مغشيا علية عند رؤية الشيخ، وهذا لم يذكر الله فحسب بل إنه رأى جلال الله وعظمته عند رؤية الشيخ، وأما عمى بصائرهم فلأنهم لا يتذوقون ولا يتأثرون بكلام هؤلاء العارفين كما تتذوقونه أنتم، وربما خرّ البعض منكم مغشيا عليه متأثرا بكلامهم لأنهم يلمسون الرشد والحقائق بعبارات بليغة مؤثرة في كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ولقد قال بعضهم مسليا إياكم:

**علم التصوف علم ليس يدركه ... إلا أخو فطنة بالحق معروف**

**وكيف يعرفه من ليس يشهده ... وكيف يشهد ضوء الشمس**

وقال الإمام البصيري في هذا المعنى:

**قد تنكر العين ضوء الشمس من ... وينكر الفم طعم الماء من سقم**

**مشروعية زيارة أضرحة الأولياء والتبرك بها:**

من تقولات أدعياء المعرفة، وصفهم لأهل التصوف بالقبوريين، وينكرون عليهم زيارة أضرحة الأولياء ورفع القباب عليها، ويبدِّعون كذلك هذا الفعل وهم لا يعلمون أن زيارة أضرحة الأولياء والتبرك بها كان منهج أهل الصلاح من أئمة قرون الخيرية الثلاث الأولى. وحتى لا يقع العوام في حبائل هذه الدعاوى الجاهلة نبين مايلي:

كل مسلم مدرك لأهمية الدعاء الذي وصفه رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم بأنه (هو العبادة) (وهو مخ العبادة)، يتحرى الأماكن المباركة التي يستجاب فيها الدعاء، ويعلم أن هناك أماكن اختصها الله بأن يكون عندها الدعاء مستجابا، مثل عرفات، والبيت الحرام، وبيت المقدس، والمساجد، وغيرها.

ولنا أن نسأل عن السبب الذي جعل هذه الأماكن مباركة، فلكل مكان مبارك علّة، ولن يغيب عن نباهة المتأمل أن نزول البركة على عرفات كانت بسبب نزول ما افتدى به الذبيح سيدنا إسماعيل عليه السلام، والكعبة المشرفة ذكر العديد من الرواة أن نبي الله إسماعيل عليه وعلي نبينا الصلاة والتسليم وأمه السيدة هاجر رضي الله عنها وأرضاها مدفونان في الحطيم الذي يعرف بحجر إسماعيل ويضم جزءا من الكعبة المشرفة، وذكر القرطبي في تفسيره أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: مابين الركن والمقام إلي زمزم قبور تسعة وتسعين نبيا جاءوا حجاجا فقبروا هناك، وذكر الطبري عن النبي صلي الله عليه وآله وسلم أنه قال: كان النبي من الأنبياء إذا هلكت أمته لحق بمكة، فيعبد الله تعالي ومن معه حتى يموت فمات فيها نوح، وهود، وصالح، وشعيب عليهم السلام وقبورهم بين زمزم والحجر. ويقول سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ١٢٥ : ﴿ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ ، والمصلى اسم مكان من الصلاة بمعنى الدعاء أي اتخذوا من مقامه (عليه السلام) مكانا للدعاء، والظاهر أن قوله: جعلنا البيت مثابة الخ، بمنزلة التوطئة، أشير به إلى مناط تشريع الصلاة ولذا لم يقل: وصلوا في مقام إبراهيم، بل قال: واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، فلم يعلق الأمر بالصلاة في المقام، بل علق على اتخاذ المصلى منه، وفي آل عمران الآية ٩٧ قال جل من قائل: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾، والصحيح من الآيتين أن الآيات الإلهية التي كانت سببا في بركته وهدايته للعالمين (البيت)، منها أنه مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام، وأنه يوفر الأمن للناس، وأنه مقصدا للحج، وأنه احتوى على أجساد الصالحين من أنبياء وأولياء لا يعرف عددهم إلا الله.

ومقصد القول أن الصالحين من الأنبياء والأولياء تجلب أجسادهم بعد انتقال أرواحهم إلى الرفيق الأعلى البركة إلى مكان دفنهم، وتؤيد ذلك الآية ٢١ من سورة الكهف: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ .

و قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ القائلون هم المشركون من القوم بدليل قوله بعد ذلك: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ ، والمراد ببناء البنيان عليهم على ما قيل أن يضرب عليهم ما يجعلون به وراءه ويسترونه عن الناس فلا يطلع عليهم مطلع منهم، كما يقال: بنى عليه جدارا إذا حوطه و جعله وراءه. وهذا الشطر من الكلام بانضمامه إلى ما قبله من قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ .

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ يلوح إلى تمام القصة كأنه قيل: ولما أن جاء رسولهم إلى المدينة وقد تغيرت الأحوال وتبدلت الأوضاع بمرور ثلاثة قرون على دخولهم في الكهف، وانقضت سلطة الشرك وألقي زمام المجتمع إلى التوحيد، وهو لا يدري، لم يلبث دون أن ظهر أمره وشاع خبره فاجتمع عليه الناس ثم هجموا وازدحموا على باب الكهف فاستنبئوهم قصتهم، وحصلت الدلالة الإلهية، تأييدا لعقيدة أهل الإسلام (ليعلموا أن وعد الله(بالبعث) حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها)، ثم إن الله قبضهم إليه فلم يلبثوا أحياء بعد انبعاثهم إلا سويعات ارتفعت بها عن الناس شبهتهم في أمر البعث، وعندئذ قال المشركون ﴿ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ تحججا لطمس هذه الآية. وفي قوله: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ إشارة إلى وقوع خلاف بين الناس المجتمعين عليهم أمرهم، فإنه كلام آيس من العلم بهم واستكشاف حقيقة أمرهم يلوح منه أن القوم تنازعوا في شيء مما يرجع إليهم فتبصر فيه بعضهم ولم يسكن الآخرون إلى شيء ولم يرتضوا رأي مخالفيهم فقالوا: ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم. فمعنى الجملة أعني قوله: «ربهم أعلم بهم» يتفاوت بالنظر إلى الوجهين المتقدمين في قوله: «إذ يتنازعون بينهم أمرهم» إذ للجملة على أي حال نوع تفرع على تنازع بينهم كما عرفت آنفا، فإن كان التنازع المدلول عليه بقوله: «إذ يتنازعون بينهم أمرهم» هو التنازع في أمر البعث بالإقرار والإنكار لكون ضمير «أمرهم» للناس كان المعنى أنهم تنازعوا في أمر البعث، فأعثرناهم عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها، لكن المخالفين لم ينتهوا بما ظهرت لهم من الآية فقالوا ابنوا على أصحاب الكهف بنيانا واتركوهم على حالهم ينقطع عنهم الناس فلم يظهر لنا من أمرهم شيء ولم نظفر فيهم على يقين ربهم أعلم بهم

وقال الموحدون: أمرهم ظاهر وآيتهم بينة وبركتهم واضحة ولنتخذن عليهم مسجدا يعبد فيه الله نتبارك بهم في دعائنا، ويبقى ببقائه ذكرهم. فالمراد بالغلبة غلبة الموحدين بنجاحهم بالآية التي قامت على حقيّة البعث، واتخاذ المسجد عليهم للدعاء والتعبد بغرض التبرك، حتى يكون المكان مباركا بهم فيستجاب فيه الدعاء لله وحده الذي لا شريك له. وهذا يلهمنا بأن اتخاذ المساجد على أضرحة من تظهر لهم كرامة من عباد الله الصالحين المشهود لهم بالتزام الأوامر والنواهي الشرعية واجب، ليستفيد منه كل متوجه لله، يتحرّى الأماكن المباركة التي يستجاب فيها الدعاء، وقد ذهب إلى ذلك عدد من العلماء منهم شيخنا الشيخ الإمام محمد متولي شعراوي رحمه الله برحمته الواسعة، وشيخ الأزهر السابق المرحوم بإذن الله عبد الحليم محمود، ومفتي الديار المصرية الشيخ الدكتور علي جمعة، وشيخ الأزهر الدكتور أحمد الطيب، والشيخ يوسف الدفاعي وزير أوقاف الكويت السابق، والشيخ محمد المالكي الحجازي، والشيخ علي الجفري، وغيرهم الكثير من العلماء المعاصرين من جميع المذاهب والمدارس الفقهية، ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا أتباع مدرسة واحدة مشهورة بمخالفة المسلمين منذ نشأتها الأولى وهم أتباع المدرسة الوهابية هداهم الله إلى سوي الصراط. والأدلة كثيرة على عدم معارضة العلماء في صدر الإسلام خاصة القرون الثلاثة الأولى البناء على أضرحة الصالحين، فهذا ضريح الصحابي الجليل زيد بن الخطاب كان مزارا منذ العصر الراشدي، إلى أن هدمه أتباع محمد بن عبد الوهاب بداية القرن الماضي، وهذا أبو حنيفة النعمان بن ثابت إمام الحنفية المتوفى ١٥٠هـ. قبره في الأعظمية ببغداد مزار معروف، وروى الخطيب في تاريخه ١ ص ١٢٣ عن علي بن ميمون قال: سمعت الشافعي يقول: إني لأتبرك بأبي حنيفة وأجئ إلى قبره في كل يوم زائرا فإذا عرضت لي حاجة صليت ركعتين وجئت إلى قبره وسألت الله تعالى الحاجة عنده، فما تبعد حتى تقضى. وذكره الخوارزمي في مناقب أبي حنيفة ج ٢ ص١٩٩، والكردري في مناقبه ٢ ص ١١٢، وطاش كبرى زادة في مفتاح السعادة ٢ ص ٨٢، والخالدي في صلح الأخوان ص ٨٣ نقلا عن السفيري وابن جماعة. وقال ابن الجوزي في (المنتظم) ٨ ص ٢٤٥: في هذه الأيام (يعني سنة ٤٥٩) بنى أبو سعد المستوفي الملقب شرف الملك مشهد أبي حنيفة وعمل لقبره ملبنا وعقد القبة وعمل المدرسة بإزائه وأنزلها الفقهاء ورتب لهم مدرسا فدخل أبو جعفر ابن البياضي إلى الزيارة فقال ارتجالا.

**ألـم تـر أن العلـم كـان مضـيعا فجمعـه هـذا المغيـب فـي اللحـد**

**كـذلك كانـت هـذه الأرض ميتـة فأنشـرها جـود العميـد أبـي سـعد**

وفقيه المدينة مالك بن أنس إمام المالكية المتوفى ١٧٩، قبره ببقيع الغرقد في المدينة المنورة. قال ابن جبير في رحلته ١٥٣: عليه قبة صغيرة مختصرة البناء. وقال إن الفقهاء عدوا زيارته من آداب من زار قبر النبي الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم. والإمام موسى بن جعفر م المدفون بالكاظمية سنة ١٨٣، أخرج الخطيب البغدادي في تاريخه ١ ص ١٢٠ بإسناده عن أحمد بن جعفر بن حمدان القطيعي

قال: سمعت الحسن بن إبراهيم أبا علي الخلال [شيخ الحنابلة في عصره] يقول: ما همني أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر فتوسلت به إلا سهل الله تعالى لي ما أحب. وفي (شذرات الذهب) ٢ ص ٤٨: توفي ببغداد الشريف أبو جعفر محمد الجواد بن علي ابن موسى الرضا الحسيني، ودفن عند جده موسى ومشهدهما ينتابه العامة بالزيارة. قال أبو بكر محمد بن المؤمل: خرجنا مع إمام أهل الحديث أبي بكر ابن خزيمة وعديله أبي علي الثقفي مع جماعة من مشايخنا وهم إذ ذاك متوافرون إلى علي بن موسى الرضا بطوس قال فرأيت من تعظيمه يعني ابن خزيمة لتلك البقعة وتواضعه لها وتضرعه عندها ما تحيرنا، وعبد الله بن غالب الحداني البصري المقتول سنة ١٨٣، قتل يوم التروية، كان الناس يأخذون من تراب قبره كأنه مسك يصيرونه في ثيابهم [ص ٢٥٨ ، ص ٣٥٤ ]. وقال محمد بن فضالة: رأيت النبي ﷺ في النوم فقال: زوروا ابن عون فإن الله يحبه (ص ٣٩ ، ص ٣٤٨ ). وعلي بن نصر بن علي الأزدي (أبو الحسن البصري) المتوفى ١٨٩، مشهده بالبصرة معروف يزار. هامش الخلاصة ٢٣٥. ومعروف الكرخي المتوفى ٢٠٠ هـ ، قال إبراهيم الحربي: قبر معروف الترياق المجرب. وعن الزهري أنه قال : قبر معروف الكرخي مجرب لقضاء الحوائج ويقال: إنه من قرأ عنده مائة مرة قل هو الله أحد وسأل الله ما يريد قضى الله حاجته. وروي عن أبي عبد الله المحاملي أنه قال: أعرف قبر معروف الكرخي منذ سبعين سنة ما قصده مهموم إلا فرج الله همه. وقال ابن الجوزي في (صفة الصفوة) ٢ ص ١٨٣: عن أحمد بن الفتح قال: سألت بشرا يقصد بشر الحافي (التابعي الجليل) عن معروف الكرخي فقال: هيهات حالت بيننا وبينه الحجب. إلى أن قال : فمن كانت له إلى الله حاجة فليأت قبره وليدع فإنه يستجاب له إن شاء الله تعالى. وقال: قبره ظاهر يتبرك به في بغداد، وكان إبراهيم الحربي يقول: قبر معروف الترياق المجرب. وقال في (المنتظم) ٨ ص ٢٤٨. وعبيد الله بن محمد بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. قال الخطيب البغدادي في تاريخه ١ ص ١٢٣ : باب البردان فيها أيضا جماعة من أهل الفضل وعند المصلى المرسوم بصلاة العيد قبر كان يعرف بقبر النذور ويقال: إن المدفون فيه رجل من ولد علي بن أبي طالب ط يتبرك الناس بزيارته، ويقصده ذو الحاجة منهم لقضاء حاجته. وهذا أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي إمام الشافعية المتوفى ٢٠٤، دفن بالقرافة الصغرى بمصر المحروسة وقبره يزار بها بالقرب من المقطم وقال الجزري في (طبقات القراء) ٢ ص ٩٧: والدعاء عند قبره مستجاب. وقال الذهبي في (دول الإسلام) ٢ ص ١٠٥: إن الملك الكامل عمّر قبّة على ضريح الشافعي رحمة الله عليه. والسيدة نفيسة ابنة أبي محمد الحسن بن زيد من ذرية الحسن بن علي بن أبي طالب، توفيت سنة ٢٠٨ ودفنت بدرب السباع وقبرها معروف بإجابة الدعاء عنده وهو مجرب . وأحمد بن حنبل إمام الحنابلة المتوفى ٢٤١، قبره ظاهر مشهور يزار ويتبرك به. كذا في مختصر طبقات الحنابلة ص ١١.

وقال الذهبي ضريحه يزار ببغداد. وحكى ابن الجوزي في (مناقب أحمد) ص ٢٩٧ عن عبد الله ابن موسى قال: خرجت أنا وأبي في ليلة مظلمة نزور أحمد فاشتدت الظلمة فقال أبي: يا بني تعالى حتى نتوسل إلى الله تعالى بهذا العبد الصالح حتى يضئ لنا الطريق فإني منذ ثلاثين سنة ما توسلت به إلا قضيت حاجتي فدعا أبي وأمنت على دعائه فأضاءت السماء كأنها ليلة مقمرة حتى وصلنا إليه. وقال في ص ٤١٨: عن أبي الحسن التميمي عن أبيه عن جده أنه حضر جنازة أحمد بن حنبل قال: فمكثت طول أسبوع رجاء أن أصل من ازدحام الناس عليه فلما كان بعد أسبوع وصلت إلى قبره. ووعدت بالجلوس في جامع المنصور فتكلمت يوم الاثنين سادس عشر جمادى الأولى، فبات في الجامع خلق كثير وختمت ختمات واجتمع للمجلس بكرة ما حزر بمائة ألف، ثم نزلت فمضيت إلى زيارة قبر أحمد فتبعني من حزر بخمسة آلاف]. والأدلة في هذا المجال تطول خاصة في الثلاثة قرون الأولى من صدر البعثة المحمدية على صاحبها وآله الصلاة والسلام، المعروفة بقرون الخيرية، ولم نقرأ من أنكر على الناس إقامة الأضرحة على قبور الصالحين بغرض مباركة المكان ليستجاب فيه الدعاء، فلا يدعو المسلم مع الله أحدا، ولكنه التحري عن الأماكن التي يستجاب فيها الدعاء. ومن يقولون بتأويل لا يستقيم لحديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي صححه البخاري عن ابن عباس وعائشة ن (لما نزل برسول الله ﷺ، طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: (لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. يحذر ما صنعوا)، ولا نعرف مسلما اتخذ أحد القبور لنبي أو ولي مسجدا، بل تقصّر في مقصورة مستقلة بذاتها معزولة عن المسجد، ولا نعرف مسلما يصلي على قبر، ولا يقول بهذا أحد من السلف أو الخلف، أما إذا كان المقصود زيارة أضرحة الأولياء فنراها سنة ودليلها هذا الحديث الذي رواه البيهقي عن أبي سعيد الخدري وعائشة ل (أن أبا سعيد الخدري دخل على عائشة، فقالت له عائشة: يا أبا سعيد، حدثني بشيء سمعته من رسول الله ﷺ، وأحدثك بما رأيته يصنع، قال أبو سعيد: كان رسول الله ﷺ إذا خرج إلى صلاة الصبح، قال: اللهم أملء سمعي نورا، وبصري نورا، ومن بين يدي نورا، ومن خلفي نورا، وعن يميني نورا، وعن شمالي نورا، ومن فوقي نورا، ومن تحتي نورا، وعظم لي النور برحمتك، وفي رواية أخرى: وأعظم لي نورا، ثم اتفقا، قالت عائشة: دخل علي رسول الله ﷺ فوضع عنه ثوبيه، ثم لم يستتم أن أقام فلبسهما، فأخذتني غيرة شديدة ظننت أنه يأتي بعض صويحباتي فخرجت أتبعه، فأدركته بالبقيع- بقيع الغرقد- يستغفر للمؤمنين والمؤمنات والشهداء، فقلت: بأبي وأمي، أنت في حاجة ربك وأنا في حاجة الدنيا، فانصرفت فدخلت حجرتي ولي نفس عال، ولحقني رسول الله ﷺ، فقال: ما هذا النفس يا عائشة؟ فقالت: بأبي وأمي أتيتني فوضعت عنك ثوبيك ثم لم تستتم أن قمت فلبستهما، فأخذتني غيرة شديدة ظننت أنك تأتي بعض صويحباتي حتى رأيتك بالبقيع تصنع ما تصنع، قال: يا عائشة، أكنت تخافين أن يحيف الله عليك ورسوله؟ بل أتاني جبريل (عليه السلام)

فقال: هذه الليلة ليلة النصف من شعبان، ولله فيها عتقاء من النار بعدد شعور غنم كلب، لا ينظر الله فيها إلى مشرك، ولا إلى مشاحن، ولا إلى قاطع رحم ولا إلى مسبل، ولا إلى عاق والديه، ولا إلى مدمن خمر، قالت: ثم وضع منه ثوبيه، فقال لي: يا عائشة، تأذنين لي في قيام هذه الليلة؟ فقلت: نعم بأبي وأمي، فقام فسجد ليلا طويلا حتى ظننت أنه قبض فقمت ألتمسه ووضعت يدي على باطن قدميه فتحرك ففرحت، وسمعته يقول في سجوده: أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك، جل وجهك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، فلما أصبح ذكرتهن له، فقال : يا عائشة، تعلمتهن؟ فقلت: نعم، فقال: تعلميهن وعلميهن، فإن جبريل عليه السلام علمنيهن وأمرني أن أرددهن في السجود)، والسؤال لماذا غادر الرسول صلى الله عليه وآله مكانه بعد أن وضع ثيابه وذهب إلى بقيع الغرقد، ألا يدل هذا على أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يلتمس الأماكن المباركة التي يستجاب فيها الدعاء، وأن مدافن الصالحين يتبارك بها، والحديث الآخر الذي يؤكد هذا القول الحديث الذي صححه البصيري في إتحاف الخيرة عن ابن عباس (أن النبي ﷺ لما وجه محمد بن مسلمة وأصحابه إلى ابن الأشرف ليقتلوه مشى معهم النبي ﷺ إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم، ثم قال: انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم، ثم رجع)، لماذا للمرة الألف ذهب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى نفس المكان للدعاء لأصحابه بأن يعينهم الله على عدوهم. وأقوى الأدلة التي لا يجحدها إلا مكابر، قبر الرسول الأعظم عليه وآله أزكى صلاة وأطيب تسليم، وصاحبيه رضي الله عنهما، لم نسمع على مدة القرون التي مضت من ينكر على المسلمين الصلاة في مسجد تبارك بأجسادهم الطاهرة الشريفة، إلا هذه الفئة التي ابتلي المسلمون بها.

من هذه الأدلة كان استحسان إقامة القباب على أضرحة الصالحين ليتبارك بهم المكان، ويصبح من الأمكنة التي يستجاب فيها الدعاء، الذي لا يتوجه به المسلم لغير الله سبحانه وتعالى، وقد رأيت بأم عيني، أئمة وفقهاء مشهود لهم بالعلم والورع والتقوى يزورون مقامات الأولياء تبركا، وهم من كبار العلماء قضاة ومفتيين، وكبار مشائخ الأزهر والقرويين والزيتونة، وغيرها في بلاد شنقيط والمغرب والجزائر وتونس والشام والعراق والهند والسنغال والسودان واليمن وغيرها، وجلهم من العلماء الجهابذة العاملين الزهاد.

فهل يعود الطغاة إلى رشدهم، ويبتعدوا عن معاداة أولياء الله دون حجة أو سبب، ونحن نطلب من كل معتقد في بركة تلك الأماكن أن يتوجه إلى الله الذي لا منجى ولا ملجأ منه إلا إليه، أن يرفع أكف الضراعة متوسلا إلى الله بحبيبه صاحب الوسيلة والشفاعة، أن يرشدنا إلى سبيل الحق ويرزقنا إتباعه ويبين لنا الباطل ويقدرنا على اجتنابه. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وآله الطيبين الطاهرين، والرضا على الصحابة أجمعين والشهداء والأولياء والصالحين، ومن نسج على منوالهم إلى يوم يبعثون، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. والحمد لله رب العالمين.

**نصيحة خاصة للمريدين من أهل التصوف:**

أولا اعلم أخي أن التصوف علم ذوقي فمن ذاق عرف، ومنهج تربوي لمن يدرك أن التقوى لا تكون بمعرفة الحلال والحرام بل التقوى تكمن في إلزام النفس بما عرفت من الحق، والبداية تكون بإدراك وطأة الذنوب، وبذل الجهد في التوبة، وتدور هذه النصيحة المنقولة عن كبار الصالحين من أئمة القوم، على ثلاثة أصول وهي: الخوف، والرجاء، والحب. فالخوف فرع التوبة، والرجاء فرع اليقين، والحب فرع المعرفة، فدليل الخوف الهرب، ودليل الرجاء الطلب، ودليل الحب الإيثار (إيثار المحبوب). ومثال ذلك الصلاة في الحرم والمسجد وداخل الكعبة، فمن هرب من الدنيا إلى الصلاة في حرم إرادة الخوف من المعصية أمن من الخلق وفتنتهم، ومن طلب الصلاة داخل مسجد الرجاء أمنت جوارحه من أن تستعمل في غير طاعة الله، ومن آثر الصلاة داخل كعبة الحب أمن قلبه أن يشتغل بغير ذكر الله عز وجل.

ومن تأمل في توارد الليل والنهار تبين له أن الظلمة والنور لا يجتمعان، فإذا ظهر أحدهما عزل الآخر عن الولاية، فكذلك نور المعرفة بالله إذا ظهر عزل ظلمة المعاصي عن الجوارح، فإذا كانت حالته حالة يرضاها لساعة الأجل شكر الله على توفيقه وعصمته، وإذا كانت حالته حالة يكره الموت عندها، انتقل بصحة العزيمة وكمال الجهد، وعلم أن لا ملجأ من الله إلا إليه، كما أنه لا وصول له إلا به، فندم على ما أفسد من عمره بسوء اختياره، واستعان بالله على تطهير ظاهره من الذنوب، وتصفية باطنه من العيوب، وقطع زنار الغفلة عن قلبه وأطفأ نار الشهوة عن نفسه واستقام على طريق الحق وركب مطية الإخلاص والصدق، فإن النهار دليل الآخرة، والليل دليل الدنيا، والنوم شاهد الموت، والعبد قادم على ما أسلف ونادم على ما خلّف، يقول الله عز وجل ﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾.

اعلم أيها المريد وأنت تتلمس طريق الهداية أن تربية التصوف تشتغل على القلب، والقلوب على أربعة أنواع، رفع، وفتح، وخفض ووقف. فرفع القلب في ذكر الله، وفتح القلب في الرضاء عن الله، أما الخفض نجاكم ونجانا الله منه ففي الاشتغال بغير الله، والوقف يحفظنا ويحفظكم الله منه في الغفلة عن الله تعالى.

وعلامة الرفع ثلاثة أحوال، موافقة القلب على أحكام الشارع، وفقدان الرغبة في المخالفة، ودوام الشوق للطاعات. أما علامة الفتح فثلاثة، التوكل على الله والصدق في الأقوال والأفعال واليقين بالله.

وعلامة الخفض ثلاثة أشياء نسأل الله السلامة منها، العجب بالحال والرياء في الأعمال والحرص على الدنيا ومراعاتها، أما علامة الوقف والعياذ بالله، زوال حلاوة الطاعات، وعدم الإحساس بمرارة المعصية، وتلبيس الحرام بالحلال.

ولن يحصل المريد على الرفع والفتح، كما أنه لن ينجو من الخفض والوقف، إلا بالرعاية الربانية التي أساسها الذكر المؤسس على العلم، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، صححه السيوطي في الجامع الصغير، فالعلم يجب أن يكون نفَس المريد شكرا أو عذرا. فإن قبل عمله فبفضل من الله، وإن رد فبعدله سبحانه وتعالى، فحركة الطائع لا تكون إلا بتوفيق من الله، والسكون عن المعصية لا يتوفر إلا بعصمة من الله، ولا يستقيم للمريد ذلك إلا بدوام الافتقار والاضطرار. ومفتاح ذلك ذكر الموت في كل لحظة لأن فيه راحة من الحبس في مدارات الشهوات الزائلة، ونجاة من الشيطان وحبائله المخادعة، وقوام ذلك برد العمر إلى لحظة واحدة، ولن يلتئم ذلك إلا بالتفكر في الأوقات، ولن يتحقق التفكر إلا بتفريغ النفس من حب الدنيا، وسبب الفراغ منها هو الزهد فيها، وعماد الزهد التقوى، وسنام التقوى الخوف، وزمام الخوف اليقين، ونظام اليقين الخلوة والرجوع، وتمامهما الجهد والصبر، وطريقهما الصدق، ودليل الصدق العلم: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[البقرة:٢٨٢]. وفي كل الأحوال لا بد للعبد من النية في كل حركة وسكون، (فإنما الأعمال بالنيات ولكل إمرء ما نوى، ونية المؤمن خير من عمله) أخرجه ابن حبان في صحيحه عن الصحابي أبي أيوب الأنصاري، والنية تختلف على حسب اختلاف الأوقات، وصاحب النية نفسه في تعب والناس منه في راحة، وليس شيء على المريد أصعب من حفظ النية. وحتى تصفو نيتك لله خالصة، اجعل قلبك قبلة لسانك فلا تنطق إلا بما تعتقد، واشعر عند الذكر حياء العبودية وهيبة الربوبية، واعلم بأن الله يعلم سرّ قلبك، ويرى ظاهر فعلك، ويسمع نجوى قولك، فاغسل قلبك بالحزن، وأوقد فيه نار الخوف، فإذا زال حجاب الغفلة عن قلبك كان ذكرك به موافقا لذكره لك قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[العنكبوت:٤٥]، لأنه ذكرك وهو غني عنك، وأنت ذكرته وأنت فقير إليه، وقال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، فيكون الاطمئنان في ذكر الله للذاكرين، ووجله في ذكرهم له، قال تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢]، والذكر ذكران: ذكر خالص بموافقة القلب مع سقوط النظر إلى غير الله، وذكر صاف بفناء الهمّة عن الذكر. قال صلى الله عليه وآله وسلم: (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) مسلم في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وأجمل الذكر أن يكون شكرا لله المنعم، ففي كل ترديدة نفَس من أنفاس العبد نعمة من الله تتجدد عليه، واجب عليه القيام بشكرها، وأدنى الشكر أن يرى النعمة من الله تعالى، ويرضى بما أعطاه، ولا يخالفه باستعمال شيء من نعمه، وتمام الشكر في الاعتراف بلسان السر أن الخلق كلهم يعجزون عن شكره على أصغر جزء من نعمه، وإن بلغوا في ذلك غاية المجهود، لأن التوفيق للشكر، نعمة حادثة مضافة يجب الشكر عليها، فيلزمك على كل شكر شكرا إلى ما لا نهاية له، فإذا تولّى الله العبد حمل عنه شكره، فرضى باليسير وحط عنه ما يعلم أنه لا يبلغه ويضعفهن ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:٢٠].

اعلم أيها المريد الصوفي، أن اللباس نعمة من نعم الله عليك، ولباس التقوى ذلك خير، وخير لباسك ما لا يشغل سرك عن الله تعالي، فإذا لبست ثوبك فاذكر محبة الله الستر على عباده، فلا تفضح أحدا من خلقه بغيب تعلمه منه، واشتغل بعيوب نفسك، فاسترها بدوام الاضطرار إلي الله تعالى في تطهيرها، فإن العبد إذا نسي ذنبه كان ذلك عقوبة له، وازداد بذلك جرأة على المعاصي، ولو انتبه من رقدة الغفلة لنصب ذنوبه بين عيني قلبه نصبا، ولبكى عليه بجفون سرّه، واستولى عليه الوجل فذاب حياء من ربّه، وما دام العبد يرجع إلى حول نفسه وقوتها، انقطع عن حول الله وقوته، فاطرح همتك بين الخوف والرجاء، ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩]. فإذا قمت من فراشك، فأقم قلبك عن فراش البطالة، وأيقظ نفسك من نوم الجهالة، وانهض بكلّك إلى من أحياك ورد إليك نفَسَك، وقم بفكرك عن حركتك وسكونك، واصعد بقلبك إلى الملكوت الأعلى ولا تجعل قلبك تابعا لهوى نفسك،فإن هوى النفس يميل إلى أرض الشهوات، والقلب يميل إلى سماء الطاعات، واستعمل قول الخالق جل وعلا: ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ ﴾[فاطر:١٠]. فطهر ظاهرك وباطنك عن دنس الإساءة، واخلص أعمالك عن كدر الرياء والعجب، واجل قلبك بصافي ذكره ودع عنك ما لا ينفعك بل يضرك، فنكس رأس همتك، وأغلق باب الكبر وافتح باب الندم، واجلي عل بساط الندامة، واجتهد في إيثار أمره واجتناب نهيه، واصبر على حكمه، واغسل شرّك بترك الغضب والشهوة، واستعمل الرغبة في المغفرة والرهبة من المعصية، فإن الله تعالى مدح قوما فقال: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء:٩٠]. ولتكن صفوتك مع الله كصفوة الماء ﴿ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا ﴾ [ق: ٩]، فاغسل ببركة الله وجه قلبك عن النظر إلى غير الله، واغسل يدك عن الامتداد إلى غيره، وامسح رأسك عن الافتخار بغيره، واغسل رجليك عن السعي لغيره، واحمد الله على ما ألهمك من دينه. واعلم أن لله تعالى عليك حقوق، يلزمك أداؤها، من ذلك السكينة والوقار والاعتبار بخلق الله برهم وفاجرهم، قال تعالى: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وغض بصرك عن نظر الغفلة والشهوة، وافش السلام مبتدئا ومجيبا، وأعن من استعانك على الحق، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر إن كنت من أهل الأمر والنهي، وارشد الضال. واعلم دائما أنك في حضرة ملك عظيم قدره، لا يقبل إلا الطاهر ولا يصعد إليه إلا الخالص، وفكر في نفسك من أنت ولمن أنت ومن أي ديوان يخرج اسمك، فإذا استخلصت نفسك لخدمته، فادخل بأمان إلى حضرته بإذنه، وإلا فقف وقوف مضطر قد انقطعت عنه الحيل، وانسدت عنه السبل، فإذا علم الله من قلبك الالتجاء إليه أذن لك فتكون أنت بلا أنت والله يرحم عبده ويكرم من التجأ تائبا إلى حضرته، ويعطي سائله ويبر المعرض عنه،

فكيف لا يقبل المقبل إليه مهما كثرت ذنوبه وقد وسعت رحمته كل شيء. فأكثر من الدعاء لله كما أمرك وكن على يقين من إجابته، فقط عليك أن تحفظ آداب الدعاء، بالنظر لمن تدعو، وكيف تدعو، ولماذا تدعو، ولماذا تسأل، فالدعاء استجابة منك للحق، وإن لم تأت بشرط الدعاء فلا تشترط الإجابة، قال مالك بن دينار: (أنتم تستبطؤون المطر وأنا أستبطئ الحجر)، ولو لم يأمر الله سبحانه بالدعاء لوجب علينا أن ندعوه،ولو لم يشترط لنا الإجابة لكنا إذا أخلصنا له الدعاء تفضل بالإجابة، فكيف وقد ضمن ذلك لمن أتى بشرط الدعاء، قال تعالى: ﴿ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾[الفرقان:٧٧]، وقال عز من قائل: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[غافر:٦٠]، وسئل أبو يزيد البسطامي عن اسم الله الأعظم، فقال فرغ قلبك من غيره وادعه بما شئت من أسمائه، وقال يحيى بن معاذ اطلب صاحب الإسم، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، (لا تعجِزوا في الدُّعاءِ فإنَّه لنْ يهلِكَ مع الدُّعاءِ أحَد) أخرجه ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة، وروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال (قال الله تبارك وتعالى من شغله ذكري عن مسألتي، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، وقال أبو الحسين الوراق، دعوت الله مرة فاستجاب دعائي فنسيت الحاجة، فاحفظ حق الله عز وجل عليك في الدعاء ولا تشتغل بحظك فإنه أعلم بمصلحتك. فاطلب السلامة، فليت من طلبها وجدها، فكيف لمن تعرض للبلاء، والسلامة قد عزّت في هذا الزمان، وهي في الخمول، فإن لم تكن في الخمول فالعزلة، وليست كالخمول، فإن لم تكن عزلة فالصمت، وليس كالعزلة، فإن لم تكن في صمت فالكلام بما ينفع ولا يضر، وليس كالصمت، وإن أردت السلامة فلا تنازع الأضداد، ولا تنافس الأشكال، كل من قال أنا فقل أنت، وكل من قال لي فقل لك، والسلامة في زوال العرف، وزوال العرف في فقد الإرادة، وفقد الإرادة في ترك دعوى العلم فيما استأثر به من تدبير أمرك، قال الله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر:٣٦].

وقال: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ [السجدة:٥].

وحتى يفهم المريد ما تعنيه العزلة، نبين له أن صاحبها يحتاج إلى عشرة أشياء: علم الحق والباطل، والزهد واختيار الشدّة، واغتنام الخلوة والسلامة، والنظر في العواقب، وأن يرى غيره أفضل منه، ويعزل عن الناس شرّه، ولا يفتر عن العمل، فإن الفراغ بلاء ولا يعجب بما هو فيه ويخلو بيته من الفضول، والفضول ما فَضُل عن يومك لأهل الإرادة، وما فِضُل عن وقتك لأهل المعرفة، ويقطع ما يقطعه عن الله تعالى، وقال عيسى ابن مريم عليه السلام (املك لسانك وليسعك بيتك وانزل نفسك منزلة السبع الضاري والنار المحرقة)، وقال: ( وقد كان الناس ورقا بلا شوك فصاروا شوكا بلا ورق، وكانوا أداءً يستشفى بهم فصاروا داءً لا دواء له). قيل لداود الطائي: مالك لا تخالط الناس؟، فقال: كيف أخالط من يتبع عيوبي، كبير لا يعرف الحق، وصغير لا يوقر، من استأنس بالله استوحش من غيره.

وقال الفضيل: إن استطعت أن تكون في موضع لا تعرف ولا تُعرف فافعل، وقال سليمان: همّي من الدنيا أن ألبس عباءة وأكون بقرية ليس فيها أحد يعرفني ولا غداء لي ولا عشاء. وقال سيد الكائنات صلى الله عليه وآله وسلم: (إنَّ مِنْ ورائكُمْ أيامَ الصبرِ، الصبرُ فيهِنَّ كَقَبْضٍ علَى الجمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهَا أَجْرُ خَمْسِينَ قالوا يا رسولَ اللهِ أجْرُ خمسينَ منهم أوْ خمسينَ منّا قال خمسينَ منْكُمْ) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد عن عبد الله بن مسعود، وفي العزلة صيانة الجوارح وفراغ القلب وسقوط حقوق الخلق، وإغلاق أبواب الدنيا وكسر سلاح الشيطان وعمارة الظاهر والباطن. وفي كل الأحوال عليك أيها المريد الصادق أن تقبل على أداء الفرائض فإن سلم لك فرضك فأنت أنت. واطلب بالنوافل حفظ الفرائض، وكلما ازددت عبادة فازدد شكرا وخوفا، قال يحيى ابن معاذ عجبت لطالب فضيلة تارك فريضة، ومن كان عليه دين فأهدى إلى صاحب الدين مثل حقه كان مطالبا بالحق إذا حل الأجل. وقال أبو بكر الورّاق، أبذل في هذا الزمان أربعة على أربعة، الفضائل على الفرائض، والظاهر على الباطن، والخلق على النفس، والكلام على الفعل. وعليك أن تتفكر في قوله عز وجل: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان:١]، واذكر كيف أحوالك واعتبر بما مضى من الدنيا على ما تراه هل أبقت على أحد، وما بقي منها أشبه بما مضى من الماء بالماء، وقد قال رسول الحكمة صلى الله عليه وآله وسلم: (لم يبق من الدنيا إلا بلاء وفتنة) صححه ابن حبان عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها. وقيل لنوح عليه السلام: كيف وجدت الدنيا يا أطول الأنبياء عمرا؟، قال كبيت له بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر. والفكرة أب كل خير، وهي مرآة تريك الحسنات والسيئات.

وختاما أيها المريد المجتهد إذا أردت لبس خرقة التصوف فعليك أولا أن تخلع الثوب الذي كنت تلبسه في أيام العادة، وأحسن ما تلبس الصوف، المنسوب إليه التصوف، وقد قيل أن أول من لبس الصوف آدم وحواء عليهما السلام، وكان موسى وعيسى ويحيى عليهم السلام يلبسون الصوف، وكان أفضل خلق الله عليه وآله الصلاة والسلام وهو أشرف الأنبياء يلبس عباءة كان مقدار ثمنها خمس دراهم، وينبغي أن لا يلبس الصوف زهدا إلا من صفي من كدر النفس، فلا تلبسوا الصوف إلا وقلوبكم نقية فإنه من لبس الصوف على دغل وغش قلاه جبار السماء، فإذا لبسه وجب أن يقوم بوظائف حروفه وهي ثلاثة: أما وظيفة الصاد فهي الصدق والصفاء والصيانة والصبر والصلاح، وأما وظيفة الواو فهي الوصلة والوفاء والوجد، وأما وظيفة الفاء فهي الفرح والتفجع. فلو لبس المرقع وجب عليه أن يؤدي حق حروفه وهي أربعة: فحق الميم المعرفة والمجاهدة والمذلة، وحق الراء الرحمة والرأفة والرياضة والراحة، وحق القاف القناعة والقربة والقوة وقول الصدق، وحق العين العلم والعمل والعشق والعبودية، وقد أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بلبس المرقع حيث قال لعائشة رضي الله عنها في حديث أخرجه ابن عدي في الكامل في الضعفاء (إنْ سرَّكَ اللحوقُ بي فلا تخالِطِنَّ الأغنياءَ ولا تستبدِلِي بثوبٍ حتَّى ترقَعيهِ) ولن يكون خافيا على أن معنى الصوف والمرقع هو التمظهر بمظهر التصوف زهدا في الدنيا وتقربا لمرضاة الله سبحانه.

**فصل في المسبحة وفضل الذكر:**

المسبحة آلة اتخذت لضبط الأعداد المطلوبة التي وردت في السنة، وهي الأعداد التي يصعب على كثير من المشتغلين بالذكر ضبطها بالأنامل أو الأصابع، والمسبحة قد عرفت منذ زمن الرسول صلي الله عليه وآله وسلم، إلا أنها لم تكن بهيئة المسبحة المعروفة عندنا اليوم، فقد اتخذ بعض الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين الحصى والنوى في ضبط أذكارهم، وقد كان لسيدنا أبي هريرة ط خيط فيه ألفا عقدة لا ينام من الليل حتى يسبح به الله عز وجل. وقول الرسول ﷺ «اعقدوا الأنامل بالتسبيح فإنهن مسئولات مستنطقات» لا يعارض اتخاذ مسبحة إنما هو توجيه للأفضل لا مصادرة للمفضول، وربما صعب ضم الأصابع وبسطها على البعض في الذكر الكثير فيكون اتخاذ المسبحة مهما للذاكر، والواحد منا يستعمل المسبحة بالأنامل فيكون قد جمع بين الفاضل والأفضل من توجيهات المصطفى صلي الله عليه وآله وسلم، والنظر إلى المسبحة يذكر المسلم بذكر الله عز وجل بل إن استعمال المسبحة وضبط الأعداد باعث للهمة ومنشط للذكر وهذه فائدة جليلة. ولكن يجب على متخذ المسبحة أن تكون نيته خالصة لوجه الله تعالى من غير رياء ولا سمعة. وقد رُئيت في يد أبي القاسم الجنيد يوما سبحة فقيل له أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحةً؟، قال «طريق وصلت به إلى الله لا أفارقه»، ورُئِيت في يد الحسن البصري سبحة فقيل له يا أستاذ مع عظيم شأنك وحسن عبادتك تتخذ السبحة، فقال «شيء استعملناه في البدايات ما كنا نتركه في النهايات أحب أن يذكر الله بقلبي ويدي ولساني»، والذي يقول إن المسبحة بدعة من مدّعيٍّ نصرة السنة نقول له إن علمك بالسنة قاصر وفهمك ضامر لأن السنة جاءت على ثلاثة أوجه، إما أن تكون سنة فعلية أو قولية أو تقريرية، فالمسبحة من السنن التقريرية التي أقرها الرسول ﷺ ولم ينكرها. وإذا علمنا أن الإكثار من الذكر قد أمر الله تعالى به في محكم تنزيله وحثت عليه السنة النبوية المطهرة ورغبت فيه فلا نجد عجباً في اتخاذ المسبحة منذ زمن الرسول ﷺ، وإليكم بعض ما ورد في ذلك من الآيات القرآنية الكريمة وأحاديث الرسول ﷺ.قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢]، وقال جل شأنه: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:٤٥]، وقال جل من قائل : ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]، وحسبك أن الذكر كان خاتمة المراقي الإيمانية في قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥].

أما ما ورد من الأحاديث النبوية في الحث على الذكر والترغيب فيه فمنها: عن أبي هريرة ط، (قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»). متفق عليه. وعنه ط أن رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم قال: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه».. وقال: «من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر».. متفق عليه. وعن ثوبان ﵁ كما رواه مسلم في صحيحه، قال:

(كان رسولُ اللهِ ﷺ، إذا انصرف من صلاتِه، استغفر ثلاثًا وقال: اللهمَّ ! أنت السلامُ ومنك السلامُ . تباركت يا ذا الجلالِ والإكرامِ. قال الوليدُ:فقلتُ للأوزاعيِّ: كيف الاستغفارُ ؟، قال : تقول : أستغفرُ اللهَ ، أستغفرُ اللهَ»)، وقيل للأوزاعي وهو من رواة الحديث كيف الاستغفار؟ قال: يقول: «أستغفر الله أستغفر الله» رواه مسلم. وعن أبي هريرة ﵁ عن رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم قال: من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وحمد الله ثلاثا وثلاثين وكبر الله ثلاثا وثلاثين وقال تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر».رواه مسلم.وعنه ﵁ قال: «سمعت رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم يقول سبق المفردون، قيل ومن المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيرا والذاكرات » رواه مسلم. وعن جابر ط قال سمعت رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم يقول: «أفضل الذكر لا إله إلا الله» رواه الترمذي. وقال حديث حسن. وعن عبد الله بن بسر ﵁ أن رجلا قال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فأخبرني بشيء أتشبث به قال: «لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله» رواه الترمذي وقال حديث حسن. وعن أبي الدرداء ﵁ قال: (قال رسول الله ﷺ «لقيت إبراهيم ليلة أسري بي فقال يا محمد أقرئ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وإنها قيعان وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) رواه الترمذي وقال حديث حسن. وكما وردت الآيات والأحاديث في الحث والترغيب في ذكر الله وردت أيضا بالزجر والتقريع في عدم ذكر الله ومجافاته. يقول الله تعالى في كتابه العزيز واصفا المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء آية ١٤٢]. وقال جل شأنه : ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه آية ١٢٤ ١٢٦].

وقال تعالى لنبييه موسى وهارون: ﴿ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴾ [طه: ٤٢]. وأما ما ورد في هذا المعنى من الأحاديث فمنها: عن أبي موسى الأشعري ط عن النبي صلي الله عليه وآله وسلم قال: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره مثل الحي والميت» رواه البخاري، وجاء في رواية مسلم (مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت). وقال ﷺ: «ما قعد قوم مقعدا لم يذكروا الله سبحانه وتعالى فيه ولم يصلوا على النبي ﷺ إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة» أورد هذا الحديث الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين الجزء الأول ص ٢٩٦ وخرجه الحافظ العراقي في تخريجه على كتاب الإحياء المسمى «المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار» حيث قال ما قعد قوم.... إلخ،ورواه الترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة.

أما الأحاديث التي وردت في المسبحة ودلت على جواز استعمالها فمنها ما أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه وأبي داود في سننه والحاكم النيسابوري في مستدركه وصححه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: (رأيت النبي ﷺ يعقد التسبيح بيده) وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والترمذي والحاكم عن بسيرة وكانت من المهاجرات قالت قال رسول الله ﷺ «عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس ولا تغفلن فتنسين التوحيد واعقدن بالأنامل فإنهن مسئولات ومستنطقات». «وأخرج الترمذي والحاكم والطبراني عن أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها أنها قالت: (دخل علي رسول الله ﷺ وبين يدي أربعة آلاف نواة أسبح بهن فقال: ما هذا يا بنت حيي؟ قلت أسبح بهن قال «قد سبحت منذ قمت على رأسك أكثر من هذا» قلت علمني يا رسول الله قال قولي «سبحان الله عدد ما خلق من شيء»)صحيح أيضا. ويستفاد من هذا الحديث الصحيح أن الرسول ﷺ أقر التسبيح بالنوى مما كانت تفعله السيدة صفية أم المؤمنين ولا يدل إرشاده إليها إلى الأفضل على إنكاره لتسبيحها بالنوى. وأخرج أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححه. عن سعد بن أبي وقاص أنه دخل مع النبي ﷺ على امرأة وبين يديها نوى أو حصى تسبح فقال «أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا وأفضل قولي سبحان الله عدد ما خلق في السماء سبحان الله عدد ما خلق في الأرض سبحان الله عدد ما بين ذلك وسبحان الله عدد ما هو خالق والله أكبر مثل ذلك والحمد لله مثل ذلك ولا إله إلا الله مثل ذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك» ، وفي جزء هلال الحفار ومعجم الصحابة للبغوي وتاريخ ابن عساكر من طريق معتمر بن سليمان عن أبي بن كعب عن جده عن بقية عن أبي صفية مولى النبي ﷺ أنه كان يوضع له نطع (بساط من جلد)

ويجاء بزنبيل (القفة الكبيرة) فيه حصى فيسبح به إلى نصف النهار ثم يرفع فإذا صلى الأولى أتي به حتى يمسي، وأخرج الإمام أحمد في الزهد قال حدثنا عبد الواحد بن زياد عن يونس بن عبيد عن أمه قالت: رأيت أبا صفية رجل من أصحاب النبي صلي الله عليه وآله وسلم وكان جارنا قالت فكان يسبح بالحصى، وأخرج ابن سعد عن حكيم بن الديلمي أن سعدا بن أبي وقاص كان يسبح بالحصى، وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن مولاة لسعد أن سعدا كان يسبح بالحصى أو النوى، وقال ابن سعد في الطبقات أخبرنا عبيد بن موسى أخبرنا إسرائيل عن جابر عن امرأة حدثته عن فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب أنها كانت تسبح بخيط معقود فيها (أي الخيط معقدا كالسبحة)، وأخرج عبد الله ابن الإمام أحمد في زوائد الزهد من طريق نعيم بن محرز بن أبي هريرة عن جده أبي هريرة أنه كان له خيط فيه ألفا عقدة فلا ينام حتى يسبح به. وأخرج أحمد في الزهد حدثنا مسكين بن نكير أخبرنا ثابت بن عجلان عن القاسم بن عبد الرحمن قال كان لأبي الدرداء نوى من نوى العجوة في كيس فكان إذا صلى الغداة أخرجهن واحدة واحدة يسبح بهن حتى ينفدن. وأخرج ابن سعد عن أبي هريرة ط أنه كان يسبح بالنوى المجزع (الذي حك بعضه حتى ابيض شيء منه وكل ما فيه بياض وسواد فهو مجزع). وقال الديلمي في مسند الفردوس أخبرنا عبدوس بن عبد الله أبو عبد الله الحسين بن فتحويه الثقفي قال: حدثنا محمد بن هارون بن عيسى بن منصور الهاشمي قال: حدثني محمد بن علي بن حمزة العلوي قال: حدثني عبد الصمد بن موسى قال حدثتني زينب بنت سليمان بن علي قال حدثتني أم الحسن بنت جعفر بن الحسن عن أبيها عن جدها علي مرفوعا «نعم المذكِّر السبحة»، وفي الحديث ضعف محتمل للأخذ به في فضائل الأعمال. وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري أنه كان يسبح بالحصى، وفي سنن أبي داود من حديث أبي نصرة الغفاري قال: حدثني شيخ من طفاوة قال تثويت (تضيفت) أبا هريرة فلم أر رجلا أشد تشميرا ولا أقوم على ضيف منه قال فبينما أنا عنده يوما وهو على سرير له ومعه كيس فيه حصى أو نوى وأسفل منه جارية سوداء وهو يسبح بها حتى إذا أنفد ما في الكيس ألقاه إليها فجمعته وإعادته في الكيس فرفعته إليه. وأخرج ابن أبى شيبة عن زاذان قال أخذت من أم يعفور تسابيح لها فلما أتيت عليا قال اردد علي أم يعفور تسابيحها والحديث موقوف على علي ويستفاد منه أن زاذان قد أخذ تسابيح أم يعفور على سبيل الإنكار لما تفعل وعندما أتى إلى سيدنا علي أمره بإرجاع هذه التسابيح إلى صاحبتها دالا بهذا الفعل على جواز اتخاذ المسابيح.

**قول في مشروعية الحضرات والذكر الجماعي:**

اعتاد مشايخ الطرق الصوفية وأتباعهم أن يعدوا حِلَقاً لذكر الله بالعشي والإبكار يذكرون فيها الله بصوت جهير، هذا وقد عاب بعض الدارسين على المتصوفة هذا الصنيع وزعموا أن الجهر بالذكر بدعة لم تكن على عهد رسول الله ﷺ ولم تكن على عهد سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين، الأمر الذي حتم علينا دراسة هذا الموضوع والإدلاء فيه بمأثور القول ومحفوظ السنة، وما ساقه علماء السلف الصالح تدليلاً على جواز الجهر بالذكر ومنهم الإمام جلال الدين السيوطي في رسالته (نتيجة الفكر في الجهر بالذكر) التي ضمها كتابه الحاوي على الفتاوي الجزء الثاني ص ٣٨٩.. يقول جلال السيوطي: اعتاد الصوفية عقد الذكر والجهر به في المساجد ورفع الصوت بالتهليل فهل ذلك مكروه أم لا؟. والجواب أن لا كراهة في شيء من ذلك وقد وردت أحاديث كثيرة تقتضي استحباب الجهر بالذكر وأحاديث تقتضي الإسرار به والجمع بينهما، إن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص وسيأتي بيان ذلك عقب إيراد الأحاديث الدالة على استحباب الجهر بالذكر تصريحا أو التزاما وهي أكثر من عشرين حديثا.

الحديث الأول: أخرج البخاري عن أبي هريرة ط قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى «أنا عند حسن ظن عبدي بي وأنا معه إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه» والذكر في الملأ لا يكون إلا عن جهر.

الحديث الثاني: أخرج البزار والحاكم في المستدرك وصححه عن جابر قال خرج علينا النبي ﷺ فقال: «يا أيها الناس إن لله سرايا من الملائكة تحل وتقف على مجالس الذكر في الأرض فارتعوا في رياض الجنة قالوا وأين رياض الجنة قال مجالس الذكر فاغدوا وروحوا في ذكر الله».

الحديث الثالث: أخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري م قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده».

الحديث الرابع أخرج مسلم والترمذي عن معاوية أن النبي ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال «ما يجلسكم؟» قالوا «جلسنا نذكر الله ونحمده» فقال «أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة».

الحديث الخامس: أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبى سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ «أكثروا من ذكر الله حتى يقال مجنون.»

الحديث السادس: أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أبي الجوزاء ط قال، قال رسول الله ﷺ: «أكثروا ذكر الله حتى يقول المنافقون إنكم مراءون» مرسل ووجه الدلالة من هذا والذي قبله أن ذلك إنما يقال عند الجهر دون الإسرار. وحديث أبي الجوزاء رغم إرساله فهو من صحيح الأحاديث التي تقف دليلا على جواز الجهر بالذكر عند من يرى حجية المراسيل من الفقهاء وفي الحديث توجيه صريح من الرسول ﷺ بالجهر بالذكر. هذا وقد جاء حديث أبي سعيد الخدري المرفوع إلى رسول الله ﷺ ليؤكد الدليل ويقيم البرهان على مشروعية الجهر بالذكر أيضا وقد وصف الحديث المرسل من ينكر على هؤلاء الذاكرين بالنفاق، ولا يضير الذاكرين شيئا أن يصفهم من يصفهم بالجنون أو الرياء لأن هذا الوصف مما أخبر به رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم، كما يعلم من الحديثين أنه لا يستطيع العمل بهما إلا مؤمن قوي الإيمان لا يخشى في الله لومة لائم لأن ترك العمل من أجلهم شرك والإخلاص وقوة الإيمان أن يعافيك الله من كليهما.

الحديث السابع: أخرج البيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر».

الحديث الثامن: أخرج بقي بن مخلد عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ مر بمجلسين أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه والآخر يعلمون العلم فقال: «كلا المجلسين خير وأحدهما أفضل من الآخر».

الحديث التاسع: أخرج البيهقي عن عبد الله بن مغْفِل قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله إلا ناداهم مناد من السماء قوموا مغفور لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات». وتبديل السيئات بالحسنات قد جاءت به الآية الكريمة في آخر سورة الفرقان وفي وصف عباد الرحمن يقول الله تعالى في ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان ٦٨-٧٠].

الحديث العاشر: أخرج البيهقي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «يقول الرب تعالى يوم القيامة:سيعلم أهل الجمع اليوم من أهل الكرم» فقيل ومن أهل الكرم يا رسول الله؟ قال «مجالس الذكر في المساجد».

الحديث الحادي عشر: أخرج البيهقي عن ابن مسعود قال: إن الجبل لينادي باسمه يا فلان هل مر بك اليوم لله ذاكر فإن قال نعم استبشر ثم قرأ ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾.. **الآية وقال «أيسمعون الزور ولا يسمعون الخير».**

الحديث الثاني عشر: أخرج ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ قال «إن المؤمن إذا مات بكى عليه من الأرض الموضع الذي يصلي فيه ويذكر الله فيه»، وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي عبيد قال: «إن المؤمن إذا مات نادت بقاع الأرض عبد الله المؤمن مات فتبكي عليه الأرض والسماء فيقول الرحمن: «ما يبكيكما على عبدي فيقولون ربنا لم يمش في ناحية من قط إلا وهو يذكرك»، ووجه الدلالة من ذلك أن سماع الجبال والأرض للذكر يكون عن جهر به.

الحديث الثالث عشر: أخرج البزار والبيهقي بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «قال الله تعالى عبدي إذا ذكرتني خاليا ذكرتك خاليا وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ خير منهم وأكثر».

الحديث الرابع عشر: أخرج البيهقي عن زيد بن أسلم قال: قال ابن الأدرع انطلقت مع النبي ﷺ ليلة، فمر برجل في المسجد يرفع صوته (أي بالذكر) قلت يا رسول الله عسى أن يكون هذا مرائيا قال: «لا ولكنه أواه»، وأخرج عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له ذو البجادين «إنه أواه» وذلك أنه كان يذكر الله. وأخرج البيهقي عن جابر بن عبد الله أن رجلا كان يرفع صوته بالذكر فقال رجل لولا أن خفض من صوته فقال رسول الله ﷺ: «دعه فإنه أواه».، وما نرى في هذه الأحاديث إلا دليلا ملزما وحجة مفحمة لكل من يحاول الطعن على مشايخ الطرق الصوفية الذين اعتادوا الجهر بالذكر في حضراتهم في المساجد والزوايا.

الحديث الخامس عشر: أخرج الحاكم عن شداد بن أوس قال إنا لعند النبي ﷺ إذ قال: «ارفعوا أيديكم فقولوا لا إله إلا الله» ففعلنا فقال رسول الله ﷺ: «إنك بعثتني بهذه الكلمة وأمرتني بها ووعدتني عليها الجنة إنك لا تخلف الميعاد» ثم قال: «أبشروا فإن الله قد غفر لكم» .

الحديث السادس عشر: أخرج البزار عن أنس عن النبي ﷺ قال: «إن لله سيارة من الملائكة يطلبون حلق الذكر فإذا أتوا عليهم حفوا بهم فيقول الله تعالى «اغشوهم برحمتي فهم الجلساء لا يشقى بهم جليس»، وقد ورد أيضا في رواية ابن شاهين عن جابر: «أنا جليس من ذكرني وحيثما التمسني عبدي وجدني».

الحديث السابع عشر: أخرج الطبراني وابن جرير عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته (بيوته) ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾.. الآية، فخرج يلتمسهم فوجد قوما يذكرون الله منهم ثائر الرأس وجاف الجلد وذو الثوب الواحد لما رآهم جلس معهم وقال «الحمد لله الذي أمرني أن أصبر نفسي معهم». وقد وصف الحديث أن من بعض صفات الذاكرين ثائر الرأس وجاف الجلد وذو الثوب الواحد وهذه الصفات تنطبق على بعض المتصوفة المنكر والمفترى عليهم من أدعياء نصرة السنة.

الحديث الثامن عشر: أخرج الإمام أحمد في الزهد عن ثابت قال: «كان سلمان في عصابة يذكرون الله، فمر النبي ﷺ، فكفوا فقال: «ما كنتم تقولون» قلنا كنا نذكر الله قال: «إني رأيت الرحمة تنزل عليكم»، وأخرج الإمام أحمد في الزهد عن ثابت قال «كان سلمان في عصابة يذكرون الله، فمر النبي ﷺ، فكفوا فقال «ما كنتم تقولون» قلنا كنا نذكر الله قال: «إني رأيت الرحمة تنزل عليكم فأحببت أن أشارككم فيها» ثم قال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم».

الحديث التاسع عشر: أخرج الأصبهاني في الترغيب عن أبي رزين العقيلي أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أدلك على ملاك الأمر الذي تصيب به خيري الدنيا والآخرة؟» قال بلى قال «عليك بمجالس الذكر وإذا خلوت فحرك لسانك بذكر الله».

الحديث العشرون: أخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي والأصبهاني عن أنس قال، (قال رسول الله ﷺ: «لأن أجلس مع قوم بعد صلاة الصبح إلى أن تطلع الشمس أحب إلي مما طلعت عليه الشمس ولأن أجلس مع قوم يذكرون الله بعد العصر إلى أن تغيب الشمس أحب إلي من الدنيا وما فيها). وهذا ما عليه كل الطرق الصوفية وذلك ابتغاء هذا الفضل العظيم والخير العميم الذي بشر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الحديث والأحاديث السابقة.

الحديث الحادي والعشرون: أخرج الشيخان عن ابن عباس قال: «إن رفع الصوت بالذكر حين ينصرف الناس من المكتوبة كان على عهد النبي ﷺ» قال ابن عباس «كنت أعلم إذا انصرفوا بذلك إذا سمعته».

الحديث الثاني والعشرون: أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وصححه، والنسائي وابن ماجة عن السائب أن رسول الله ﷺ قال: «جاءني جبريل فقال مر أصحابك يرفعوا أصواتهم بالتكبير».

**خاتمة:**

إذا تأملت ما أوردناه من الأحاديث عرفت من مجموعها أنه لا كراهة البتة في الجهر بالذكر بل فيه ما يدل على استحبابه إما صريحا أو التزاما كما أشرنا إليه، وأما معارضته بحديث «خير الذكر الخفي» فهو نظير معارضة أحاديث الجهر بالقرآن بحديث المسر بالقرآن كالمسر بالصدقة، وقد جمع النووي بينهما بأن الإخفاء أفضل حيث خاف الرياء أو تأذى به مصلون أو نيام والجهر أفضل في غير ذلك لأن فيه خيراً أكثر ولأن فائدته تتعدى إلى السامعين ولأنه يوقظ قلب القارئ ويجمع همه إلى الفكر ويصرف سمعه إليه ويطرد النوم ويزيد في النشاط. وقال بعضهم يستحب الجهر ببعض القراءة والإسرار ببعضها لأن المسر قد يمل فيأنس بالجهر والجاهر قد يكل فيستريح بالإسرار، وكذلك نقول في الذكر على هذا التفصيل وبه يحصل الجمع بين الأحاديث المتعارضة.

**دور متصوفة شمال إفريقيا في تحقيق مقاصد الشرع، والدفاع عن مصالح الناس المرسلة:**

يحتل موضوع التصوف أهمية كبرى في حياتنا الفكرية المعاصرة،وقد اختلفت آراء الباحثين فيتصوف العصر الحديث، حيث رأى أهل الإنصاف من البحاث الموضوعيين فيه عنصرا إيجابيا في توجيه الحياة الاجتماعية والعقلية والسياسية وخاصة في الدعوة إلى تزكية النفس والدفاع عن الأصول والثوابت والقيم وبث الحماسة في الجماهير التي انقادت لمشايخ المتصوفة، في حين رأى فيه المغرضون كثيراً من ألوان السلبية التي انحصرت في بعض النماذج من الطرقية المتخلفة المناقضة للتصوف الحقيقي في تعميم لا يستقيم عند الباحث المتأمل لوقائع التاريخ وأحداثه.إلا أنه ونتيجة لتطور مناهج البحث الذي أضحى أكثر دقة وموضوعية في الآونة الأخيرة، بدأت تبرز دراسات محكمة كانت سببا في عودة الاتجاه الصوفي بقوة إلى الواجهة، وبدء انهيار تلك الصورة القاتمة التي كانت تقدم حول هذا التيار الفكري الراقي، من التيارات التي عرفها الفكر الإسلامي طيلة عهود طويلة من الزمن. وذلك بعد سقوط الأنظمة المناوئة لهذا الاتجاه، وفشل الحركات السلفية في قيادة المجتمعات الإسلامية. حتى باتت هذه المسألة من أهم القضايا المحورية التي يدور حولها النقاش حاليا بين المفكرين المسلمين وغيرهم، فقد اعتنق الكثير من الغربيين الإسلام عن طريق التصوف الإسلامي، وأصبح التصوف اليوم هو المظهر الرئيس للإسلام بالنسبة لكل باحث منهجي موضوعي يبحث في أحوال المسلمين وحضارتهم، وأن الكثير من الدراسات حول الحضارة الإسلامية، منصبة حصرا على التيار الصوفي دون غيره، وأكثر المفكرين والفلاسفة مقروئية لدى الغربيين هما ابن عربي وجلال الدين الرومي، وهما من أقطاب التصوف الإسلامي. يقول المستشرق الفرنسي المسلم «إريك جيوفروي» أستاذ التصوف بجامعة لوكسمبورج الفرنسية: «أن المستقبل في العالم الإسلامي سيكون حتماللتيار الصوفي». ويرى أيضا أن الصوفية قد مارسوا السياسة في أحيان كثيرة كما مارسوا أدوارا ثقافية واجتماعية، «ثم إننا يمكن أن نلحظ أن هناك مدا جديدا من الأجيال الجديدة يعي الأبعاد الاجتماعية للصوفية».والملفت للنظر أن الكثير من البحاث الغربيين باتوا يدركون التأثير الصوفي على مفكري عصر النهضة الأوربي، فبدأت تبرز دراسات تتحدث عن تأثر ديكارت في منهجه المبني على الشك بفكر حجة الإسلام أبي حامد الغزالي، وتأثر من يرونه منظرا للديمقراطية الليبرالية الحديثة سبينوزا في رؤيته لوحدة الوجود بالشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي وغيرهم.

من خلال هذه المنطلقات والمعطيات أردنا الخوض في هذا الموضوع، وأن نبحث في سبب احتلال هؤلاء الصوفية هذه المكانة الرفيعة، ونرى ماذا قدم التصوف والصوفية للمجتمع الإسلامي؟، وما الذي يمكن أن يقدمه لحل أزمة العقل المسلم المعاصرة، وهل اقتصر دور المتصوفة فقط على التحرير الذاتي، وتطهير النفس من الأهواء؟، وهل مكثوا في زواياهم يرددون اسم الله الأعظم ويبحثون عن غوث الزمان، غير ملتفتين إلى ما يجري حولهم من تطورات وتغيرات؟

كما يرى بعض الناس.أم أنهم سعوا إلى تغيير واقعهم والمحيط الذي يعيشون فيه، وخدموا مجتمعاتهم عند اشتداد الأزمات وقادوها إلى بر الأمان. إن الإجابة على مثل هذه التساؤلات يتطلب أبحاثا ودراسات جادة ومعمقة سيحاول من خلالها الإجابة على كثير من الأسئلة الكبرى والهامة علماء الصوفية. وسنذكر هنا بعض من ملامح المتصوفة وتأثيرهم في منطقة الشمال الإفريقي بإيجاز شديد.

كانت أحوال المتصوفة هي السمة الغالبة على مجتمع الصحابة أيام الرسول ﷺ من نقاء وطهر وإخلاص وزهد، ناهيك عن مقاماتهم العلية، وأي مقام أعلى من صحبة خير البشر ﷺ، فقد كان عصره ربانيا مباركا. وسيلاحظ المدقق في الحياة الاجتماعية الناتجة عن الفتوحات الإسلامية الممتدة، الحال التي تداعت له أحوال المسلمين بعد انتشار دولتهم وإقبال الدنيا عليهم، وانغماس الكثيرون منهم في إشباع الرغبات والشهوات فتبدلت أحوالهم وتدنت مقاماتهم، عندها ظهر المتميزون بمجاهدة أنفسهم الحريصون على الإقتداء بحياة الرسول صلى الله عليه وصحبه المتأملون في ملكوت الله المصرون على التقوى، فتميزوا بين الناس فرادى أول الأمر مثل أويس القرني وغيره، ثم ظهر التصوف في التاريخ الإسلامي كمنحى فكري نظري بداية من القرن الثالث الهجري، وذلك في عاصمة الخلافة العباسية بغداد، على أيدي رجال شهد لهم الأعداء قبل الأصدقاء بالعلم والفضل والصلاح، وأرسوا قواعد هذا التيار الحديث النشأة، ورسموا له الأسس المنهجية التي بني عليها ولا تزال إلى الآن المصادر الأساسية لهذا العلم. وقد تنوع الاتجاه الصوفي بين المدارس التربوية الذاتية، مثل مدرسة الجنيد البغدادي، وذي النون المصري، والمدارس الإصلاحية الاجتماعية مثل مدرسة الحلاج. وفي نهاية القرن الثالث الهجري، بدأ المتصوفة ينظمون أنفسهم طوائفا وطرقا يخضعون فيها لنظم خاصة بكل طريقة، وكان قوام هذه الطرق طائفة من المريدين يلتفون حول شيخ مرشد مربي يسلكهم ويبصرهم على الوجه الذي يحقق لهم كمال العلم وكمال العمل، كما نجد ذلك في بغداد في العصر العباسي الأول عند فرقة «السقطية» نسبة إلى السري السقطي و«الطيفورية» نسبة إلى أبي زيد طيفور، و«الخرازية» نسبة إلى أبي سعيد الخراز و«المحاسبية» نسبة إلى الحارث المحاسبي.فانتقل بذلك التصوف وتطور من ظاهرة أو مسألة فردية بين الإنسان وربه إلى ظاهرة اجتماعية منظمة كثر رجالها وأتباعهم كثرة ظاهرة، ومع تطور التصوف العملي وانتشار الظاهرة الصوفية لدى الأوساط الشعبية، كثر عدد الأتباع ، والتحمال مريدون بالشيخ ونسجوا حوله هالة من التقديس والتبجيل، وبدأت تظهر الطرق الصوفية بشكلها المتعارف عليه الآن. وأول ما عرف العالم الإسلامي من الطرق: الطريقة القادرية، والمدينية، والرفاعية، والشاذلية، والخلوتية. وكان من أوائل وأحد أوتاد الطريقة الصوفية في شمال إفريقيا: الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسن الأندلسي، وقد عرفت طريقته «المدينية» شهرة واسعة وأتباعا كثيرين، في مختلف أنحاء الشمال الإفريقي، وازدادت شهرة على يد تلميذه عبد السلام بن مشيش (ت ٦٦٥هـ ١٢٢٨مسيحي)،ثم ازدادت نشاطا وأحياها من بعده شيخ الطائفة الشاذلية وتلميذ ابن مشيش:«أبو الحسن الشاذلي».

وكان لتعاليم الشاذلي الأثر الأكبر بحيث يمكن الجزم بأن معظم الطرق التي ظهرت بعد القرن الثامن في شمال أفريقيا تتصل بطريقة أو بأخرى بالطريقة الشاذلية. ومن أبرز علماء الشمال الإفريقي الذين شاع التصوف العملي وانتشر بفضلهم المرسي أبي العباس وأحمد البدوي و أبي عطاء الله السكندري وعبد الرحمن الثعالبي وأحمد زروق وعبد السلام الأسمري وامحمد بن عيسى وأحمد بن إدريس ومحمد ماضي أبو العزائم وغيرهم . ويمكن أن نرجع عوامل وأسباب انتشار التصوف في شمال أفريقيا،إلى أسباب فكرية، وأسباب سياسية، وأسباب اجتماعية:

١- أسباب فكرية: كوجود أعلام صوفية عملوا على نشر هذه الطرق، أثروا بسلوكهم وبعلمهم وبمؤلفاتهم، من أمثال الشيخ أبي مدين، والشاذلي، والملياني، والثعالبي...وغيرهم. وبدأ الفكر الصوفي يبرز علميا بعد محاولة الإمام الغزالي التوفيق بين الشريعة والحقيقة.، خاصة ما طرحه حول مراتب العقل بداية من العقل الكسبي وهو مدخل المعرفة، ثم العقل الذوقي وهو مدخل التقوى بالتزام العارف بما عرف، ثم انتظار الموهبة، وهو مدخل العلم اللدني (واتقوا الله ويعلمكم الله).

٢- أسباب سياسية: نتيجة لأسباب داخلية وخارجية تدهورت أوضاع المنطقة سياسيا لعدة أسباب أهمها وأخطرها سقوط الأندلس وقد نتج عنه أمران: الغزو الإسباني لمعظم الشمال الإفريقي، وهجرة كثير من صوفية الأندلس إلى شمال إفريقيا.

٣- أسباب اجتماعية: منها انتشار البذخ والترف عند طبقات معينة، نتيجة الثراء الفاحش، وتراجع القيم الدينية والأخلاقية حيث أهمل الخاصة والعامة الكثير من مبادئ الدين وسلوكه القويم، وقد حارب الصوفية هذا الانحراف، وقاوموا بكل السبل والطرق هذه الاختلالات، مما أدى إلى انتشارهم جماهيريا.

**وقد بدأ انتشار التصوف على مرحلتين:**

فترة التصوف النخبوي، وذلك خلال القرون السادس والسابع والثامن الهجرية: وهي الفترة التي بقي فيها التصوف يدرس في المدارس الخاصة، واقتصاره على طبقة معينة من المتعلمين، وعدم انتشاره بين الطبقات الشعبية،وبقائه في الحواضر الكبرى.

فترة التصوف الشعبي، وتعرف بفترة الانتقال من التصوف الفكري إلى التصوف الشعبي، وقد وقع ذلك في القرن التاسع الهجري، وفيها انتقل التصوف من الجانب النظري إلى الجانب العملي، وهو الانتشار الكبير للزوايا والرباطات في الريف والمدن، وانضواء الآلاف من الناس تحت لوائه، والتركيز على الذكر والخلوة، وآداب الصحبة وما إليها من مظاهر التصوف الشعبي. وبفتح باب التصوف للعامة وأهل الريف، انتقل من النخبة إلى العامة، من المدينة إلى الريف، وظهرت الطرق الصوفية الكبرى وانتشرت في مختلف أرجاء المنطقة :كالقادرية، المدينية، الشاذلية والبدوية والدسوقية والخلوتية والعروسية والعيساوية والدرقاوية والتيجانية والعزمية..... وغيرها.

وقد اتخذ التصوف منذ بداية ظهوره أبعادا اجتماعية، وذلك بسبب الظروف التي كانت تعيشها المنطقة الشمال أفريقية (ق٧، ٨، ٩هـ) وانساق الناس ورائه لما وجدوا فيه من مساواة وعدل وإحساس بالوجود والأهمية، فقد كان شكلا من أشكال التعبير عن الغضب الشعبي والتمييز الطبقي بين طبقة الأغنياء والمترفين وطبقة الفقراء والمعدمين. وكان المتصوفة الأوائل بمثابة النخبة التي تمسكت باستقلاليتها الفكرية والدينية تجاه السلطة الحاكمة، لذلك وقع اضطهادهم من طرف الحكام، وقاومهم العلماء الرسميون، وكما حدث في الشرق من اضطهاد وتشويه لرموز التصوف أصحاب الدور الاجتماعي من أمثال الحلاج، نرى أن المشهد نفسه يتكرر تقريبافي كل العصور والعهود، وهذا ما وقع مع أبي مدين الغوث أو إبراهيم الدسوقي، أو أحمد البدوي، أو الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري، أو الشيخ عبد السلام الفيتوري، أو الشيخ أحمد التيجاني، أو الشيخ محمد ماضي أبو العزايم، أو محيي الدين بن مصطفى الحسني... والقائمة طويلة.ووقع الالتقاء بين المتصوفة والشعب، في مواجهة السلطة، بسبب تموقعهم في نفس الخندق، فقد فرض عليهم الأمر فرضا، ووجدوا أنفسهم في نفس الجبهة، يقاومون الظلم والتعسف، والتمييز. وهذا ما يفسر لنا سر هذه العلاقة بين العامة أو الشعب والمتصوفة، قبل الوصول إلى مبدأ الكرامات وسلطة الأولياء على أفكار العامة وخيالهم. وسعى المتصوفة إلى حل مشاكل المجتمع واتحد الاثنان في مواجهة السلطة، واتخذا نفس الموقع ونفس الجبهة، فقاما بمواجهة الظلم والطغيان والفساد،وهذا ما يفسر لنا سر العلاقة بين العامة والصوفية، فاتحاد الهدف نابع من فكر الصوفية وعقيدتهم: (العيال عيال الله). وقد كان الصوفية على مر العصور رمز الوحدة مع المجتمع، والمطالبة علنا بحقوق الشعب ومصالحه.

بدأ هذا التلاقي بشكل عفوي، دون سابق تحضير أو تنظيم أو استعداد، ونتج عنه الكثير من النتائج الهامة لعل من أبرزها، الانتشار السريع للتصوف بين مختلف الطبقات الشعبية، وانفرد الصوفيون بقيادة الشعب بعد انهيار الدول الناتج عن سقوط الأندلس والحروب الصليبية، واستطاع المتصوفة توظيف هذه العلاقة في الدفاع عن مصالح الأمة، ولم تنقطع هذه الصلة بين المتصوفة والعامة إلى يومنا هذا، بحيث لا نزال نجد تأثيرهم قويا في المجتمعات العربية الإسلامية، بالرغم من هذا التطور الفكري والثقافي،والعولمة ودخول الأفكار الحديثة. وان بنسب متفاوتة بين منطقة وأخرى.ومن هنا نستطيع أن نفهم: لماذا اختارت الفئات الواسعة من المجتمع الانضمام والانتماء إلى هذا الاتجاه الفكري، في حين كان حكامها يتخذون مذهبا آخرا ويعتنقونه. فكان الصوفي فردا من مجتمع الناس، يأكل ويتاجر ويتزوج كما يفعلون، لكنه في نفس الوقت كان يمثل قدوة لهم ونموذجا يتطلعون إليه ويعملون على متابعة مسيرته بينهم .

لقد آثرت بعض الشخصيات الصوفية اللجوء إلى الخلوات والمقابر زهدا وتعبدا وتجردا، لكن هذا الكلام لا ينطبق على كل المتصوفة بل هي حالات استثنائية خاصة، ثم إنهم يرون أنه عندما يدعوهم الواجب، سيتخلون عن مجاهداتهم الخاصة وينتقلون إلى خدمة الصالح العام،ولعل أبرز مثال على ذلك الشيخ أحمد البدوي الذي خرج من عزلته لمقاومة الغزو الصليبي والأمر نفسه حدث مع أبي الحسن الشاذلي وتلاميذه، وكان آخرهم وليس بأخيرهم شيخ الشهداء عمر المختار الذي خرج من خلوته التي كان يعلم فيها القرآن إلى ساحات الجهاد مدافعا عن أرضه ضد جحافل الطليان الطغاة، ولا بد أن يبرز هذه الأيام من يحمل لواء المقاومة للذود عن حياض الإسلام في هذا الوقت العصيب، لقد باتت المجتمعات المسلمة في أمس الحاجة لإعادة الاعتبار للتربية الإسلامية الصحيحة وتزكية النفوس والالتزام بمنظومة الأخلاق التي بينها الشارع الحكيم. فمشكلة المسلمين تكمن اليوم في أن يلتزموا بما عرفوا من الحق، وأن يتمسكوا بشعائر الله، وأن يتجمعوا حول مرشد يهدي إلى سبل الرشاد ليتواصوا بالحق، ويربيهم على الالتزام بما عرفوا من الحق ليتواصوا بالصبر على الوقوف مواقفه، ويتحقق لهم الاستثناء من الخسران. ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ صدق الله العظيم. والله المستعان عما يصفون.

## قول في مقامات المتصوفة وأحوالهم:

### مدخل : التصوف والعقل:

العقل نور رباني غريزي في أصله، يزداد أفقه وتتسع دائرة أنواره بكثرة الاستلهام والتجربة والاطلاع ، ليضيف إلى نوره الغريزي أنوارا مكتسبة هي جوهر العلم وغايته، فكثير من المسائل لا يمكن إدراكها بالعقل المكتسب دون بحث واطلاع وتجربة، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾.، وفي الحث على وجوب استعمال العقل ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾ وقال جل من قائل: ﴿فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٌ يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج:٤٦].

وفي الحديث، قال ﷺ:(ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل) أخرجه العراقي في تخريج الإحياء، وقال كذلك للصحابي الجليل أبي الدرداء: (يا عويمرُ، ازدَدْ عقلًا تزدَدْ مِن ربِّكَ قربًاقال: قلتُ: بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ وكيفَ لي بذلك ؟ قال: اجتنِبْ محارمَ اللهِ، وأدِّ فرائضَ اللهِ تكُنْ عاقلًا، وتنفَّلْ بالصالحاتِ منَ الأعمالِ تزدَدْ بها في عاجلِ الدنيا رفعةً وكرامةً وتنالُ بها مِن ربِّكَ القربَ والعزةِ) أخرجه البوصيري في اتحاف الخيرة المهرة، والعاقل من عقل عن الله أمره ونهيه، وميّز بين الفاضل والمفضول وسعى دائما إلى الأفضل.

وفي هذا الاتجاه ظهر علم التصوف أحد قسمي علم الشريعة تميزا له عن علم الأحكام الظاهرة في العادات والمعاملات في فترة لاحقة لعصر النبي والعصر الراشد اللذين تميزا باندماج القسمين وتوحدهما في علم التوحيد ومعرفة الأحكام في طاعة الله ورسوله، وكيفية القيام بلوازمه من إخلاص في العبادة والمجاهدة بالمال والجهد والنفس وتحريا لحكم الله في كل أمر والوقوف عنده، وكان أوسعهم رياسة أسرعهم رجوعا إلى الحق مهما ظهر، وأثراهم أسخاهم ببذله في سبيل مرضاة ربه، وأوفرهم نعمة أقلهم تكلفا في الملذات وإشباع الغرائز والحاجات، وأبعدهم عن الإسراف والتبذير، وهكذا كان الأمر فالأخلاق الكريمة والأعمال المجيدة وصف عام للمسلمين في ذلك العصر المستنير بهدى النبوة وأنوار الرسالة، ولما كثرت الفتوحات واتسعت الممالك وتفرق الصحابة ومن اتصف بصفاتهم وانهارت الشورى وفقدت السلطة السياسية رشدها ورشادها وكثر المفسدون وتباعد العلماء بالاعتزال لطائفة، وطائفة أخرى آثرت الاستمرار قدر المستطاع، فاختص بعض منهم بعلم الفتوى وأحكام العبادات، وبعض آخر بالرواية وتصحيح الأسانيد، واختارت طائفة العزلة والخلوة للعبادة والتقشف والعكوف ببابه تعالى بالمراقبة ومحاسبة النفس على كل التفات لغيره فرارا بدينهم.

في القرن الثاني بعد وفاة الرسول ﷺ واكتمال الرسالة بدأت مرحلة تدوين العلوم الفقهية فكتب العلماء في الأحكام وحدود الحلال والحرام واختص أهل هذا النوع باسم الفقهاء بعد أن كان الفقه شاملا للقسمين، وقام بعض رجال القسم الثاني وكتبوا في المحاسبة والمراقبة والزهد والاقتداء في الأحوال والتدقيق في الورع والمجاهدة الذاتية واكتساب الأخلاق النبوية القرآنية، خصوا باسم الصوفية وعلمهم بعلم التصوف، قيل في اشتقاقه الكثير فنسبه البعض للصوف كابن خلدون والصفاء والصفّة، وشط البعض لدرجة ربط علاقة لا ترتبط بالموروث الإغريقي، وقال القشيري إنه لم يظهر له اشتقاق.

والمتتبع الباحث المدقق لن يغيب عنه أنهما نوعان لجنس واحد، وقسمان لشيء واحد، وفرعان لأصل واحد، لا فرق بينهما إلا بما زاد به علم التصوف من التدقيق في التخلق والتحقق بالأحوال ومحاسبة النفس ومراقبة القلب وجمع الهمة على الله بلا تشتيت ولا شغل مع الخلق أو انشغال بالدنيا، عملا منهم بتقديم وقاية النفس بالوصاية عليها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة:١٠٥]، وامتثالا لأمر القدوة – عليه الصلاة والسلام -: «من حسن إسلام المرء تركه ما لايعنيه» رواه الهيثمي عن الحسين ابن علي، والترمذي عن أبي هريرة وغيرهما، والقيام بالوصفين كاملين في آن واحد لا يكاد يتأتى إلا لنبي أو صدّيق أو ولي لله تعالى كان من ذوي الحظ العظيم، فأوتي قوة إرادة مع حكمة تجعله الوارث الكامل المستحق للخلق المحمدي، وصاحبه ممن قال فيهم- عليه الصلاة والسلام-(علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل)أخرجه محمد بن محمد الغزي في إتقان ما يحسن، ولكلّ أهلٌ، والمرء أدرى بنفسه، وحسن الظن واجب فلا سبيل إلى الإنكار إلا بحكم الشريعة، حيث لا خلاف ولا تأويل، ولا يكمل أحدهما إلا بالآخر، وإن صح أحدهما دون الآخر كما هو أكثر الحال في وقتنا المعاصر.

فأكمل الفقهاء الفقيه الصوفي، وأكمل الصوفية الصوفي الفقيه، وقد قال في ذلك أحد أهم فقهاء الصوفية قولا جميلا وهو الفقيه العلامة «أحمد الزروق» (حكم الفقه عام في العموم لأن مقصده إقامة رسم الدين ورفع منارته وإظهار كلمته، وحكم التصوف خاص في الخصوص لأنه معاملة بين العبد وربه عن غير زائد على ذلك، فمن ثم صح إنكار الفقيه على الصوفي ولا يصح إنكار الصوفي على الفقيه، ولزم الرجوع من التصوف على الفقه ولا يصح دونه ولا يجوز الرجوع منه إليه إلا به وإن كان أعلى منه مرتبة فهو أسلم وأعم منه مصلحة).

ولذلك قيل (كن فقيها صوفيا ولا تكن صوفيا فقيها)، وصوفي الفقهاء أكمل من فقيه الصوفية وأسلم، لأن صوفي الفقهاء قد تحقق بالتصوف حالا وعملا وذوقا بخلاف فقيه الصوفية فهو المتمكن من علمه وحاله ولا يتم له ذلك إلا بفقه صحيح وذوق صريح لا يصح له أحدهما دون الآخر، كالطبيب الذي لا يكفي علمه عن التجربة العملية ولا العكس.. إن مبنى التصوف تصحيح التوحيد لله تعالى، ومحاسبة النفس ومراقبة القلب والإعراض عن الدنيا بالكلية والانقطاع إلى الله بجمع الهمة عليه والاستعداد لرحمته بانتظار فرجه، ابتغاء لمرضاته واتقاء لسخطه ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢،٣]، ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ [الأنفال:٢٩]، فحين قاموا بالوصف جعل لهم مخرجا من ظلمات الجهل وذل المعصية، وجعل لهم فرقانا يهتدون به إلى باحة المعرفة، وألقى عليهم محبته التي وعد بها من اتبع نبيه ﷺ فكان لهم سمعا وبصرا وكان لهم في حضورهم وغيبتهم مصداق قوله في الحديث القدسي: «إنَّ اللهَ جلَّ وعلا يقولُ: مَن عادى لي وليًّا فقد آذاني وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترَضْتُ عليه وما يزالُ يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافلِ حتَّى أُحبَّه فإذا، أحبَبْتُه كُنْتُ سمعَه الَّذي يسمَعُ به وبصرَه الَّذي يُبصِرُ به ويدَه الَّتي يبطِشُ بها ورِجْلَه الَّتي يمشي بها فإنْ سأَلني عبدي أعطَيْتُه وإنِ استعاذني أعَذْتُه وما ترَدَّدْتُ عن شيءٍ أنا فاعلُه ترَدُّدي عن نفسِ المؤمنِ يكرَهُ الموتَ وأكرَهُ مَساءَتَه»، وقوله في حديث قدسي آخر «من تقرب إليّ شبرا تقربت إليه ذراعا» رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، فيصير لصاحب الصفة أحوالا وأذواقا وجدانية هي نتيجة مجاهدة النفس وثمرة الرياضيات العقلية والبدنية لن يشم رائحتها من لم يدخل من مدخلها الصحيح ، وقد كانت لهم آداب واصطلاحات تخصهم دون غيرهم يعبرون بها عن الأحوال العارضة في طريق الرياضة والمحاسبة من الأذواق والمواجيد وكيفية الترقي من مقام إلى مقام على حسب ترتيبها ووضعها عندهم، بحيث لا مدخل فيه لغيرهم لأنه صادر عن الوجدان والذوق والوجدانيات لا يطلب عليها دليل لمن لم يدرك مداركهم ولم يزل هؤلاء مقطوعا لهم بصحة ما هم فيه من جمهور العلماء لصحة طريقتهم وظهور ثمرات مجاهدتهم في أخلاقهم وبروز نتائجها في حياة قلوبهم وعمارتها بحب الله تعالى والتوكل عليه والإعراض عن الدنيا، ما هو أقرب لحاله ﷺ من التقشف والاجتماع في التفكر والفقر إلى الله – جل وعلا- وقلة التكلف والورع مع ما أكرمهم الله به في أنفسهم من الكمال وفي العوالم من الطوع والانقياد، وظهور الخوارق ما ملأ الصحف، واتضح للعيون على امتداد التاريخ الإسلامي بحيث لا ينكرها إلا مكابر، نفعنا الله بهم وحشرنا في زمرتهم، أولئك القوم لا يشقى جليسهم.

### مقامات المتقين عند علماء الصوفية:

قسم علماء الفقه الصوفي المتصفين بخشية الله الملتزمين بكلمة التقوى بمنّته – جل وعلا – مقاماتها إلى تسعة تُردّ إليها فروع أحوال المتقين، والفرق بين المقام والحال مادلت عليه العبارة، فالحال سمّي حالا لتحوله واختلافه، والمقام مقاما لثبوته واستقراره، فالحال مواهب لاكسب فيها للعبد (إلا من حيث انتظار الفرج لمن سلك والعناية الأزلية للمجذوب)، عما يلوح فجأة من الفهم والوجد موهبة من الله تعالى، فتحرك رغبة إلى الترقي، للتمكن من ذلك الحال والتلذذ به، ولازال يعاوده بحسب توفيقه واجتهاده إلى أن يستديم عليه فيصير مقاما.

فالأحوال مواهب ترقّي إلى المقامات، والمقامات مكاسب مادتها الإيمان والاتباع، لأن العمل هو الذي يثمر الأحوال من حيث إنه فرع الباب، وانتظار الفرج والمخرج ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١]، ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:٢].

والتقوى هي شعور القلب بعظمة المتقى، وتمّكن الشعور يُحدث في النفس بديهة الخوف من مخالفته، فإذا نبّه الشارع عن مضار إذا اجتنبها العبد يأمن مما يخاف، فلن يغتر بها مادام عاقلا، وبعد الاعتصام بما يؤمنه، لا بد من الاستطابة لما يلائمه طبعا، فيفيده الشارع أيضا أن هناك ما ينفعه، فيحرص على إحراز ما ينفع كما أمعن في الهروب مما يضر، فبهذا يتقدم الشعور على العلم (مثل الشعور بالجوع يولّد رغبة طلب الطعام ويتقدمه)، ومن هذا يفهم شيئا من معنى تقديمه – جلا وعلا- التقوى على العلم في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]، فإن الجملة استئنافية لا ترتبط بما قبلها، ولا جدال في أن الشعور نوع من العلم إلا أنه من دقته وانتفاء الكسب فيه، يسمى هداية ورشدا وقذف نور وكلها تؤدي إلى معنى متقارب.

ومن ذلك كان تقسيم المقامات عند أهل اليقين على النحو التالي: التوبة، فالصبر، فالشكر، فالرجاء، فالخوف، فالزهد، فالتوكل، فالرضى، فالمحبة الكاملة الخاصة، مقامات بعضها يثمر بعضا، فإذا صح مقام التوبة النصوح تردُ على صاحبها أحوال لذيذة تباشر لذتها القلب تدفعه نحو المداومة، فإذا تمكن منها تدفعه نحو المقام الذي يعلوها وهكذا وصولا لأعلى المقامات وهو مقام المحبة الخاصة بكمالها الكاملة بخصوصيتها، وتختلف عليه الأحوال ما دام العمل عناية من الله لتكثير الثواب واستمرار القرب والحظوة على ما يليق به - سبحانه وتعالى – فيسلّم به ولا ينكر ويعلم فلا يذكر.

وفي صحة مقام التوبة تتقدم المجاهدة والمحاسبة والمراقبة والرعاية فيدخل فيه حال الصبر ومقامه، وحال الرضى ومقامه، فمن لا يصبر في المكاره لا يثبت له قدم في المجاهدة المشتقة من الجهد في مجاهدة ما يفسد عليه ومن يفسد، وأقرب المفسدين العدو الملابس وهو النفس الأمارة بالسوء، ويليها العدو المجاور وهو الدنيا بغرورها، ويليها العدو المشارك وهو الخلق شركاء الوجود، وأثقله وأبصره بالشر وأمكره الشيطان الغرور، فلا بد من المقاومة والجد والمجاهدة بعزم وعزيمة ويقظة تامة ومعرفة ما له وما عليه، وهذا النوع من الجهاد أشد وأكبر من القتال، فالمقاتل إما أن يقتل أو يُقتل وفي كلتا الحالتين له الراحة في الدارين، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾، وقال ﷺ: (تكفّل الله لمن جاهد في سبيله، لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلمته، بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة) متفق عليه.

ولا يكون هذا إلا لمن انتصر في الجهاد الأول، فعندما سألوه عمن قاتل قتال الأبطال لحميّة أو غيرها، قال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا) متفق عليه، ولن تتكامل هذه العقيدة اليقينية في من لم يقاوم ويجاهد لتكون كلمة الله هي العليا، ولن تكمل في أحد إلا من استراح من رؤية نفسه بالمرّة وأسلمها لباريها على الصراط المستقيم، وناصب شياطينه العداء، فظهرت عليه براهين القرآن وأخلاق القدوة ﷺ وحقائق الأحوال ودقائقها حتى سد جميع المنافذ التي يتصور دخولها منها، فعامل الأفراد وشركاء الوجود كلاًّ بما أمره الخالق الشارع، ويقف عليه على غرضه هو لا على أغراضهم ، وأسقطهم وهو معهم عن أي تأثير في النفع والضر، ويستوي عنده المدح منهم والذم، يحسن الظن بمحسنهم تمسكا بوعده تعالى للمحسنين، ولا يسيء الظن بمن خالفه وقوفا على قصوره في معرفة العاقبة، فلا يحجر واسعا ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر:٥٣]، ويمارس التغيير بحسب الاستطاعة (من رآى منك منكرا...) عن الصحابي أبي سعيد الخدري رواه مسلم في صحيحه وغيره،لا يتوقف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسب مااقتضاه الشرع، ويسلم المسلمون من لسانه ويده ويسلم هو من تبعات ما هم عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء:١]، ويتجافى عن الدنيا ويسقطها من عينه بالمرّة ولا ينسى نصيبه منها باعتبارها مطية الآخرة والوازع في كل هذا الشرع، بعيدا عن كل شبهة لا يتحقق بالوقوف معه أحد في الحقيقة إلا الورع المراقب المحاسب في كل صغيرة وكبيرة (الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء عن الصحابي عمار بن ياسر. وتحقيق من أن مقام التوبة لا يتحقق إلا بالصبر والرضى، وتصدق عليه الإنابة، وهي كمال التوبة النصوح لأن شروطها الإقلاع والندم والرجوع إلى المرضي.

ويظهر أنه لا يصح مقام التوبة إلا بكمال الصبر بأنواعه الثلاثة: على الأوامر.. وهو حبس الجوارح عليها ومحاسبة النفس على كل تقصير، ومراقبة القلب للخواطر مع مراعاة الوقت أن يضيع لأن الصوفي ابن وقته، وهذا حال الخوف، فإذا استقام عليها فهو مقامه، والصبر في المصائب والبلايا عن الركون إلى الخلق بانتظار الفرج من الحق وهو حال الرجاء، فإذا استقام عليها فهو مقامه، والصبر عن الموجبات للنقص ككل ما زاد على الضرورة من شهوات المأكل والمشرب والجنس، وحب الجاه، والتكالب على طلب المال، وحب الظهور والكبرياء ونحوها من الشاغلات عن السير إلى الله –تعالى- وهذا هو عين الزهد وحبس النفس وتوطينها على ذلك حتى تسكن (مقام الصبر جملة) بقطع العقبات الباطنة وانسحابه على جميعها لا يتخلف عن واحد منها، لأن منعدم الصبر لا ترسخ قدمه في مقام ولا يتأتى عليه حال، فالأحوال تختلف على أهل المقام لترقيتهم بعزائمهم إلى أعلى، والمقامات هي موضع انتظار الفرج ومظهر الفقر والذل لرب العزة، وفي مقام الصبر يختلف عليه الرضى إلى أن تطمئن نفسه، ولا تطمئن النفس حتى ترضى ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ﴾ ، ودوام الرضى هو مقامه، وهو ثمرة التوبة النصوح والإنابة، والرضي بالعبودية لله هو الذي يقوم بها ويعدل أركانها ويصرف النعم (التي أولها نعمة الإيجاد ثم الإيمان ثم سائر النعم) في طاعة المنعم، وهو حال الشكر استدامته له يتمكن منه فيصير مقاما، وهو مقام عال «...أفلا أكون عبدا شكورا» متفق عليه.

ولا يصح للعبد أن يقوم بأعباء الشكر إلا بعد تحققه بمعرفة المنعم والإقبال إليه بالكلّيّة والإعراض عما سواه، وهو الزهد، ولا يتأتى له ذلك إلا بالصدق والاعتماد على الله –تعالى- وإسقاط غيره من العين وهو التوكل، والحقيقة لا يذوق أحد حلاوة نعم العبادة ويبتهج بفضل المنعم بصوالح العادات إلا من تحقق بهذا المقام، فيثمر له حال المحبة فبدل خوفه وصبره شكرا وزهدا، فناء عن رؤية أثر فيما زهد فيه، ولا يرى إلا ربه ويصير صبره شكرا على ما كان يصبر عليه، ويكون رضاه أنسا به تعالى، وتوبته خشية وإجلالا من هيبة رب العزة، وتوكله تمكنا، وصارت أنفاسه قربات من فنائه في الله وبقائه به، فكان أهلا لمحبته الخاصة –تبارك وتعالى- فيتولاه في الأمر والنهي، والامتثال والاجتناب، فيدرك بالحق مع الحق وهو مصطنع له –تعالى- لا رؤية لنفسه فضلا عن غيره، فيمتدحه –تعالى- ويثني عليه بما هو مدح لفعله فيلهمه المحامد له في كل أحيانه فكان طعامه وشرابه وبه قوامه كما بيّنه ﷺ يطعمني ربي ويسقيني، ألا إلى الله تصير الأمور.

## مقام التوبة النصوح:

قال الغزالي في الإحياء: ( إن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتّبة: علم، وحال، وفعل)، فالعلم هو الأول وهو مطلع هذه الخيرات باعتباره الإيمان واليقين، فالإيمان يبعث على التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة، واليقين يؤكد التصديق بانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيثير نور هذا الإيمان عند إشراقه على القلب نار التألم، كمن يشرق عليه ضوء الشمس بعد أن كان في ظلمة، ويبعث ذلك التألم بإرادته الانتهاض للتدارك بالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي لما مضى، ثلاثة معان مرتبة في الحصول.

يطلق اسم التوبة على مجموعها، وأما بيان وجوبها على الدوام وفي كل حال هو أن كل بشر لا يخلو من المعصية، فإن خلا في بعض الأحوال من خطايا الجوارح، فلا يخلو من الهم بالذنوب بقلبه، فإن خلا، فلا يخلو من وساوس الشيطان بإيراد الخواطر المذهلة عن ذكر الله، فإن خلا فلا يخلو من غفلة، والقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله وكل ذلك نقص وله أسباب، وترك السبب بالتشاغل بضدّه رجوع من طريق إلى عكسه، والمراد بالتوبة الرجوع، وهذا أصل الأشياء التي تنطبق على كل آدمي مع التفاوت في المقادير وعموم الأصل الذي لا بد منه، ولهذا قال ﷺ: «إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة» رواه مسلم في صحيحه عن الصحابي الأغر المزني أبو مالك، وأبي داود في سننه، وابن حبان في صحيحه عن الصحابي عبد الله بن مسعود ، وغيره ولهذا أكرمه ربه بقوله: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح:٢].

والتوبة النصوح، فنصوحا من النصح على وزن فعول للمبالغة في النصح، وقد قرئت نصوحا بالضم فتكون حينئذ مصدر نصحتُ له نصحا ونصوحا ليكون المعنى خالصة لوجه الله -تعالى-، وقيل اشتقاقها من النّصاح «بكسر النون» وهو الخيط ليكون المعنى (مجرّدة لا تتعلق بشيء ولا يتعلق بها شيء) وهي الاستقامة على الطاعة من غير زوغان إلى معصية، فلا يحدث النفس بعودة لذنب متى قدر عليه، وأن يترك الذنب لوجه الله -تعالى- مثلما ارتكبه لأجل هواه، مجمعا على ذلك بقلبه وشهوته، فمتى أتى الله بقلب سليم، وعمل خالص مستقيم على السُنّة، فقد ختم له بحسن الخاتمة، وأدركته الحسنى السابقة، فهذه هي التوبة النصوح، وهذا هو العبد التواب المتطهر الحبيب لله، وهذه أحوال من سبقت له من الله الحسنى ومن تداركته نعمة من الله ورحمة فتطهر بها من تلوث السوء وهو وصف من قصده بخطابه، إذ يقول في محكم كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة:٢٢٢]، وقال رسوله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى (التائب حبيب الرحمن والتائب من الذنب كمن لا ذنب له) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

لذلك ينبغي للتائب المنيب أن يبدأ بمباينة أهل المعاصي، ثم نفسه التي كان يعصي الله بها، ولا يمكّنها إلا بما لا بد منه، ثم الاعتزام على أن لا يعود إلى معصية أبدا، ويدع كل ما يضطره إلى جريرة، ولا يتبع هوى، ولا يقوى على ترك الشبهات من لم يترك الشهوات، ويخلص النية، لأن الإنسان قد يزهد في الدنيا ويعرض عن مفاسدها ويقبل على الله بطريق العلم وبذل الجهد، فيدخل الشيطان عليه من الاغترار دخلا في النية، وإن سلمت فيوسوس له أثناء العمل أو يطريه على أفواه الناس ليرى عمله في نفسه وجهده وعبادته، فيدخله الشرك الخفي، ولكي يصل التائب إلى مقام قبول التوبة حيث لا بد من الصبر لاجتياز الامتحانات من أجل المرتبة ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١]، ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:٢]، واعلم أنه على قدر أهل العزم تأتي العزائم، وعلى امتداد التاريخ لم تخل الأنبياء من الابتلاء بالجاحدين، ولم تخل الأولياء عن الابتلاء بالجاهلين (البلاء مُوكّل بالأنبياء ثم الأمثل فالأمثل) رواه الترميذي وصححه، ولكن النهاية الدائمة هي انتصار الحق على الباطل ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧]، وقد نظم الولي الصالح الشيخ أحمد بمب (الخديم) – رحمه الله – أرجوزة لطيفة في موجبات التوبة فقال:فسبعة عدُّوا من المراتب لتوبة تدرى لدى المكاتب:

| | |
|---|---|
| **توبة كافر من الكفر الشديد** | **بإذن ربه إلى الدين السديد** |
| **وتوبة المخلص من كبائر** | **وتوبة العُدُول من صغائر** |
| **وتوبة السالك لالتفات** | **من علل القلب ومن آفات** |
| **وتوبة الورع في الجهات** | **مما يسوء له من الشبهات** |
| **وتوبة المشاهدين تجري** | **من غفلات القلب خوف زجر** |

وقال أبو طالب المكي في قوت القلوب: ( يفترض على العبد إذا عصاه، الرجوع إلى مولاه، عقب وقوفه مع نفسه وإدراكه موافقة الهوى على الخطيئة، فتأخيره التوبة وإصراره على الذنب، ذنبان مضافان إلى الخطيئة، وأحكام التوبة منه اعتقاد الاستقامة على الطاعة ودوام الافتقار إلى الله – تعالى- في العصمة، ثم يتوب أبدا من الصغائر إلى الهمّ والتمنّي من الخوف والطمع في المخلوق، وهي ذنوب الخصوص إلى الطرفة والنفس والسكون إلى شيء والراحة بشيء، وهذه ذنوب المقربين حتى لا تبقى على العبد فيما يعلم مخالفة وحتى يشهد له العلم بالوفاء، فتبقى حينئذ ذنوبه من مطالعة علم الله –تعالى- لما استأثر به عنه من علوم غيبية يكاشفه بها فيكون هذا الخوف مثوبة له لما فزع من علم نفسه إلى ما لا يمكن ذكره

ولا يعرف نشره من ذنوب المقربين التي هي من صالحات أصحاب اليمين لفقدان مشاهدتها ولجهل بمعرفة مقاماتها عند العموم فيكون حال هذا المقرب الإشفاق من البعد في كل طرفة ونفس إلى وقت اللقاء، والخوف من الإعراض والحجب في كل حركة في هذه الدار إلى دار البقاء.

ومن تفصيل هذا الإجمال يكون المفترض على العبد إذا عصى مولاه الرجوع إليه، وهذا عام لجميع المراتب بنسب المقامات، والتوبة عقب الوقوف مع النفس وعدم موافقة الهوى والإصرار على المعاصي، هي توبة الكافر من كفره لأن النفس أمّارة بالسوء، والهوى مضلّ عن سبيل الله والمصرٌ ناس لربه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ **[ص:٢٦]**، وقال في المنافقين ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ [التوبة:٦٧]، فتوبة من هذه أوصافه الرجوع إلى مولاه (بلا إله إلا الله) بلسانه والعمل بالطاعة بجوارحه بعد الإيمان بقلبه، ثم إن أحكم التوبة واعتقد الاستقامة على الطاعة ودوام الافتقار إلى الله –تعالى- في العصمة فهو مخلص سالك سبيل الرشاد ثم يجتنب الصغائر ويراقبها ولا يرتكب شيئا منها استخفافا واستصغارا فتصير كل مخالفة في حقه كبيرة، فهو عدل وتوبته توبة العدول، ثم يدفع نفسه عن الهمّ والتمنّي ويصرف قلبه عنهما خوفا واستعطافا لجانب من يراه فهي توبة الخصوص، ثم إن انتفض قلبه من خوف كل مخلوق أو طمع فيه، ويعتبر رؤية الخلق شركا فهي توبة السالكين الصادقين الذين صدقوا في الزهد في كل ما عدا الله –جل وعز-، ثم إن حاسب نفسه في كل طرفة عين وتردد نفس أن يذهب سُدى فهي توبة الورع المحاسب الأواه المنيب، ثم إن انقطع إلى مولاه وارتاح لجماله وهرب من سكونه لشيء، ونسي كل راحة بشيء، ويرى كل شيء من هذا أعظم خطيئة في حقه من عظمة مولاه، ودوام حضوره فهي توبة المشاهدين وتلك ذنوب المقربين حتى لا تبقي عليه مخالفة ويشهد له العلم بالوفاء، فتبقى ذنوبه من مطالعة على الله فيه، وهو أبدا بين مشاهدة عظمة الجلال، فتعظم خشيته لتغلغله في العظمة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر:٢٨]، وبين مشاهدة الجمال فيرتاح له ويبتهج قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ **[يونس:٦٢]**، وقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف:١١٠]، نسألك اللهم التوبة النصوح التي لا ذنب بعدها ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

**الإخلاص والنية:**

قال الرسول الأكرم – ﷺ- : «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى» رواه البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب، فلا بد من تقديم النية في كل عادة أو عبادة، وإخلاصها للمولى –جل وعلا-، لتسلم العبادة من الشرك، كما قال تعالى في محكم كتابه: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ ويجب على من طمع في لقاء ربه العمل على أن تكون العادة مطية العبادة لإقامتها واستدامة القوة لها، بدقة المراقبة ودوام الحضور والمحاسبة وبذل أقصى حدود الجهد في المجاهدة، فإن الجسم لا يكون إلا ساكنا أو متحركا، إما عن اختيار أو اضطرار وفي كل الأحوال، فالنية فيه مدخل، أما في حال الحركة الاختيارية فبديهة، وإما في حال السكون، ففي الرضا بالحال الواقع، والتوكل، والتفويض، لأن الرضا بالقضاء إنما يكون عن الإخلاص في العبودية وهو النية أو بالنية كونه هو مبدؤها وهو تمامها، كما قال سهل بن عبد الله –ط- :(إنه الهاجس والسبب الأول في حدوث الهم والإرادة والعزم والقصد).

وعلامة الرضا الطمأنينة وهي السكون، فعمل النية فيه أيضا ظاهر، أما الحركة الاضطرارية كالعادات والانفعالات، فمتعلق النية بها، حسن الظن بالله، وصدق الرجاء له، وهما أساس التوكل والتفويض، فمن صحت معرفته بالله وصدق يقينه ذكر الله –تعالى في الضراء والسراء، وشكره كما اقتضته لوازم العبودية، فلزومه بالذكر، وقيامه بالشكر، لا يكون إلا عن إخلاص تام، ولا يتم ذلك إلا بصدق العزيمة على أداء الواجب للمولى –عز وجل- وهذا هو تمام النية، ولا يلازم النية في جميع الأمور والأحوال، إلا دائم المراقبة، المدرك أن الله الرقيب الحسيب مطلع على جليه وخفيه، ولذلك فهو يحاسب أنفاسه كي لا تنفلت ذرة منها إلا إلى ما خلقت له، ويتمرن على ذلك حتى يصير عادة مألوفة، ولا يقدر على ذلك إلا من جاهد في الله حق جهاده حتى انتصر فهداه –سبحانه وتعالى- سبله وكان معه في كل حال ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩].

ولهذا المقام شهود في ظاهر صاحبه، أولها: إخلاصه الدين لربه، وقصد وجهته، الرضا في جميع الحركات والسكنات، ودليله عمارة باطنه بالمراقبة، وبعده عن الغفلة والفضول، فلا تجده إلا عاملا أو ذاكرا رهبة بالذكر، ورغبة بالشكر، لا فضلة فيه لغاية غير رضا الرحمن الرحيم، قائما بالتسبيح والحمد ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ ولا يضع شيئا أو يرفعه إلا بنية صالحة، فيسري القبول من الله –تعالى- لنيته إلى الهيئة المخصوصة لأجل همته، والنية أكسير الأعمال كما في الصحيح (إنما الأعمال بالنيات) صححه البخاري، فلم يبق بعد هذه الكلمات الصادرة عن الشارع مرية في قوتها العاملة إن صدرت من المخلصين الصادقين، وما أعزّه من وصف، لا يقوم به من له أدنى حظ مع مخلوق، ومن دلائلها ملازمة الذكر باللسان في جميع الحالات والأحوال

كما كان حاله ﷺ فقد صحّ من حديث عائشة – رضي الله عنها - أنه ﷺ كان يذكر الله في كل أحيانه، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾ [آل عمران:١٩١] ذكر بالقلب واللسان والقلم والقراءة وأهمها قراءة القرآن والصلاة على من أمرنا الله بالصلاة عليه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦]، اللهم صلى وسلم على سيدنا محمد طب القلوب ودوائها وعافية الأبدان وشفائها ونور الأبصار وضيائها وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

من الذكر الاستغفار والدعاء بنية التوبة والرجاء والإقبال إلى الله بقلب منيب والعمل بالقرآن تلاوة وتدبرا، وتوسلا برسوله معلمه ومرشده – ﷺ-، ويتحول بالعلم والاجتهاد من التقليد إلى الاقتداء، ومن التمسك بالرجال إلى التمسك بالمنهج والصراط المستقيم، ويجعل عبادة الله معرفة وفطرة وغريزة تحركه بالعقل والاقتداء للاستدلال حتى يوفقه الله للدليل الحق فيتبعه ويوافي به الحق، وآيته الصدق في الطلب والتحفّز من الاضطرار، وانتظار الفرج من اللطيف الخبير، والأصل في ذلك صحة الإيمان ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَـٰمِ ﴾ [الأنعـــام:١٢٥]، ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ ﴾ [التغابن:١١]، وأن يمكنه اليقين من الترقي عن الأسباب إلى المسبب، ومن تعود الأعمال إلى الاتصاف بالأحوال، وتكون ولادة معنوية أخرى يحضنه فيها اللطف، وتربيه المشاهدة في كنف خير البرية –ﷺ-، ويكون الحب والبغض والصمت والنطق في الله ولله وحده، وفي الحديث عن أنس –رضي الله عنه- الذي رواه البخاري في صحيحه حين سأله السائل عن الساعة فقال له – ﷺ-: ماذا أعددت لها؟ فقال: لا شيء، إلا إني أحب الله ورسوله، فقال له (أنت مع من أحببت)، والحب لا يكون إلا نية تتأثر بها الجوارح على قدر إخلاص المحب بنيته، إنها النية الفطرية السليمة ، والإخلاص الظاهر الجلي، يتجلى حبا لله ورسوله، لا يهمه ما يراه الآخر، لأنه لا يخضع إلا لمقاييس الشارع الحكيم، ألم يقل الرسول الأكرم (إنما الأعمال بالنيات)، وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه وغيره عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن العباس رضي الله عنهم يوم بدر، حكاية عن حالة رسول الله ﷺ فقالا: (فجعل يهتف بربه اللهم أنجزلي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصبة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض، فمازال يهتف بربه مادّا يديه مستقبلا القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبوبكر – ط- فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كفاك من مناشدتك لربك فإنه سينجز لك ما وعدك؟؟). فيعلم من حاله ﷺ

وكلام أبي بكر أن من الدعاء ما هو كمال في العبودية وتغلغل المعرفة في النية تقديس لعظمة العظيم –جل جلاله- لا خوفاً من غيره ولا منازعة له في قضائه وقدره، كما يستفاد من كلام الصديق- ﷺ – نية كمال التصديق في مقام الصّديقية وإمامته فيه بالإخلاص، فالصدق لا يقتضي التجدد والتنوع ولا دقائق أو رقائق تلوح عليه، لأن ذلك من عوارض التغير، والصدق غير التغير وضده، إنما يقتضي النية والإخلاص والثبوت والدوام بعد كماله وهو –ﷺ- أكمل الصدّيقين صدقا ونية وبه امتاز عن غيره، وحاله – ﷺ- العلم وهو يقتضي المزيد على الدوام والاستمرار، ومعلوماته – جل وعلا – لا تتناهى، وازدياد العلم به –تعالى- يلزم منه –ﷺ- استيلاء الخشية، وتضاعف غشيانها على قلب العالم، قال الله تعال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، وقال- ﷺ: (أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له) صححه الألباني في غاية المرام عن أنس بن مالك، وقد أمر بطلب المزيد من العلم فيكون سببا لحصوله بالانقطاع له بنية الصدق وصولا للتصديق. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، وما كان دعاء الرسول- ﷺ- إلا بنية العبودية وإلا فهو الذي قال عن شجاعته إمام الشجعان علي بن أبي طالب – عليه السلام- (لقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم- قائما إلى شجرة يصلي ويدعو حتى الصبح، ولما كان يوم بدر حضر الناس والتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) كما في مسند أحمد وعمدة التفسير لأحمد شاكر، والترهيب والترغيب للمنذري والصحيح المسند للوادعي، وما كان دعاء الرسول الكريم واستنصاره إلا عبادة وعبودية رغبة في إعلاء كلمة الله وإسقاط كلمة الذين كفروا ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٦].

**مقام الصبر:**

الصبر والشكر متلازمان، لا يتم أحدهما إلا ويورِّث الآخر، قال أبو طالب المكي رحمة الله عليه «قد جعل الله –عز وجلّ- الصابرين أئمة المتقين وتتم الكلمة الحسنى عليهم في الدين»، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾.

ومعنى الصبر حبس النفس عن السعي في هواها، وإجبارها على المجاهدة لمرضاة ربها، ومنعها من الشرود والغفلة، وإلزامها بدوام الطاعة، وقمعها عن الشراهة والتشهي وكل ما يظهر سوء الأدب بين يدي الرب سبحانه، وصبرها على حسب الأدب في كل المعاملات، ويتفرع الصبر إلى معان شتى: من الصبر عن تفاوت الأهواء والشهوات إلى الصبر على الثبات في خدمة المولى، ومن ذلك ما يوجب المجاهدة الشديدة لصرف الهمة عنه وتطهير القلب منه تحسبا لأخطار الأهواء، ونزغات أشد الأعداء، وبهارج الدنيا وزينتها، ومن الآفات ما يجب كف الجوارح عنها بالكلية، وحبس النفس عن الاستمرار بالمشي فيها، ومن الصبر كذلك حبس النفس على الحق وعكوفها عليه باللسان والقلب والبدن، ومن الصبر حبس النفس على عبادة الخالق –سبحانه وتعالى- والقناعة بما قسمه صنع الرازق، ومن الصبر كف الأذى عن الخلق واحتمال الأذى منهم توكلا على المولى، والصبر على دفع البغي والبغاة، والصبر على الضبط والأحكام في كل عمل وعلم، وأعلى الصبر هو الصبر على الله بالمجالسة والتأدب في حضرته.

وقد قسم القشيري في الرسالة الصبر إلى أقسام وهي (الصبر على ما هو كسب، وصبر على ماليس بكسب، فالصبر على المكتسب نوعان، صبر على ما أمر الله به وصبر على ما نهى الله عنه، وأما الصبر الذي ليس بكسب فهو الرضى بما قدره الله من محن وفتن)، وما روى عن ابن عباس –رضي الله عنهما– (الصبر علي ثلاثة أوجه، صبر علي أداء فرائض الله وصبر علي محارم الله وصبر في المصيبة عند الصدمة الأولي) ويمكن اختصار هذه الآراء في أن الصبر نوعان، ما يلائم الطبع وما يخالفه، وفي هذا قال الغزالي (النوع الأول ما يوافق الهوى مثل الصحة، والأمن والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الأسباب وكثرة الاتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا، وما أحوج العبد إلى الصبر في هذه الأمور فإنه ما لم يضبط نفسه عن الاسترسال في الشهوات وإشباع الحاجات والركون إليها والانهماك في ملاذها المباحة، أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾.

ولا يأمن الفتنة ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴾ وفي ذلك قال بعض العارفين بالله: (البلاء يصبر عليه المؤمن، والعوافي لا يصبر عليها إلا صدّيق) وقال الخواص: الصبر هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة، وقال سهل بن عبد الله: (الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء وكذلك قالت الصحابة: ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر) حسب ما ورد في قوت القلوب.

والصبر على العوافي أن لا يجريها في مخالفة الشرع، والصبر على الغنى أن لا يبذله في الهوى، والصبر على النعمة أن لا يستعين بها على معصية، فحاجة المؤمن إلى الصبر في هذه الأمور كحاجته إلى الصبر على المكاره والفقر والشدائد.

أما النوع الثاني ما لا يوافق الطبع والهوى باختيار العبد كالطاعات والمعاصي، والصبر على المصائب والنوائب، أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار في إزالته، مثل كظم الغيظ والعفو عند المقدرة وعدم التشفي من المؤذي بالانتقام منه، ومما تقدم نعلم أن الصبر إما أن يكون فرضا أو فضلا، فالفرض هو في الصبر على الطاعة والصبر على المعصية، أما الفضل فهو الصبر على المباح غير اللازم وعلى نية القربة فيه إلى الله قبل المباشرة، والصبر على المكافأة والانتقام، والصبر مع الله في أحكامه وقضائه توكلا على الله

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور:٤٨].

والصبر في المصيبة عند الصدمة الأولى على التسخط والتبرم واتهام المولى جل جلاله .

وللصبر أربعة مقامات هي: صبر العادلين وهم: الذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون وجزاء سيئة سيئة مثلها. وصبر المتوكلين وهو الصبر على الأذى، قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [طه:١٣٠]، ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم:١٢].

﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب:٤٨]، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى:٤٠]، وصبر الراضين (الصبر على الأحكام) وهو صبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم الأمثل فالأمثل. عن الجنيد، أنه قال: المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين على المؤمن، وهجران الخلق في جنب الله شديد والمسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد والصبر مع الله –عز وجل- أشد، وقال (فسل الصبر وتجرع المرارات من غير تعبيس).

عندما يقول الله: ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ يكون أمرا بالعبادة، ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ يكون أمرا بالعبودية، وقال ذو النون (الصبر التباعد عن المخالفة والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر في ساحة المعيشة والثبات مع الله وتلقي بلائه بالرحب والسعة فهذا صبر الراضين)، وفوقه المقام الرابع صبر المتقين وهو الصبر على الله بالمجالسة له والإصغاء إليه وعكوف الهمم عليه وقوة الوجد به وهو خصوص المقربين، وفي ذلك قال مكي: (حياء منه أو تسليما له أو تفويضا إليه وهو سكون تحت جريان الأقدار وشهودها من الأنعام) فلنمسك القلم في هذا المحل من هذا الميدان من مقام الصبر الذي لا حدود له، فقد تمهد قبلنا بأجيال ولا زالت بعض آثاره باقيات مادامت على الأرض حياة.

## مقام الشكر:

قال الإمام أبو حامد الغزالي في إحياء علوم الدين «إن الشكر من جملة مقامات السالكين، وهو ينتظم من علم، وحال، وعمل، فالعلم هو الأصل الذي يورث الحال، والحال يورث العمل، فأما العلم فمعرفة النعمة من المنعم ويتعلق العمل بالقلب والجوارح واللسان.

إن العلم بذلك في حق الله تعالى لا يتم إلا بمعرفة العبد، أن النعم كلها من الله تعالى، فهو المنعم والوسائط مسخرون من عنده وبأمره وإرادته، وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس، ومعنى كونها وراءهما، أنها حال زائد عليهما من حيث إن التوحيد بعد التقديس، فإذا عرف العبد ذاتا مقدّسة، يعرف أنه لا مقدّس إلا واحد، وما عداه غير مقدس، وهذا هو عين التوحيد، ثم معرفة أن كل ما في الوجود من ذلك الواحد فقط، فالكل نعمة من الواحد المنعم، فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثانية، إذ ينطوي فيها التقديس والتوحيد وكمال القدرة والانفراد بالفعل.

والحال المستمد من أصل المعرفة هو الفرح بالمنعم، مع هيئة الخضوع والتواضع، وهو أيضا في النفس شكر متى كان الفرح بالمنعم لا بالنعمة، والإنعام، وكل ذلك يكون بالقلب واللسان والجوارح، أما القلب فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق، وأما اللسان بإظهاره الشكر لله تعالى المنعم بالتحميدات الدالة عليه، وأما الجوارح فباستعمال نعم الله المنعم في طاعته، والتوقي من الاستعانة بها على معصية

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

وكما ورد في بعض الكتب عن موسى وداود عليهما السلام كل منهما في مناجاته، عدّد نعم الله عليه وسأل الرب عز وجل «يا رب كيف أشكرك» فقال المنعم سبحانه وتعالى «معرفتك لذلك شكر» ويقول أهل التصوف السادات «إجلس على البساط وإيّاك والانبساط» وقولهم هذا ليس بحشو فإن لجميع المطالب فرضا وفضلا، ففرض الإخلاص في الإيمان أن تؤمن بأن الله واحد لا شريك له، وفي الإسلام مراعاة الشروط وكمال الأداء، وفي الإحسان إمامة العبادة لله وحده بلا إشراك ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، ومندوب الإخلاص عدم رؤيتك لنفسك عينا ولا أثرا في كل ما لربّك، وشهادتك على منته عليك بأن ألهمك وساعدك على العمل الصالح، كما تتلقى جزاءه ونعمته تفضّلا بلا استحقاق، فهو الله المتفضل الكريم المنّان أولا وآخرا وله الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم، هذا مندوب الإخلاص في حق أصحاب اليمين، أما في حق المقربين فكله فرض ولا يستحق الحمد عندهم إلا هو عز وجل، أمّا غيره فبه ليس بنفسه

فإن الحمد هو الثناء على المشكور بما أولاهم من معروف «فسر الروح الذي به تقوم الحياة في المنفوخ فيه، لم يزل ولا يزال مسبّحا بالحمد والشكر لمستحقه في عالم الغيب والشهادة»، «فكل ما سوى الله إلى الله».

هكذا الفناء في الله، والبقاء به في الصبر والشكر، في الأنس والهيبة، وحال الهيبة هو أسمى الأحوال، ومقام الأنس هو أكرم المقامات وهو المقام المحمود المختص به ﷺ الذي لم يكن شكره للنعمة بل الشكر الدائم للمنعم حتى بعد أن غفر له ما تقدم وما تأخر من ذنبه وهي نعمة من أعظم النعم فما زاده عليه الصلاة والسلام إلا حمدا وشكرا «ألا أكون عبدا شكورا» يسجد لله تقربا، فأقرب حالات العبد لربه، السجود لما فيه من نهاية التواضع وقوله عليه الصلاة والسلام «فأحمد ربي بمحامد علمنيها ربي» من حديث طويل رواه البخاري في صحيحه عن الصحابي أنس بن مالك ط، أوضح دليل على مقام الأنس فالإلهام بالثناء غاية العطف والأنس وبه ختم الله المنعم له التفوق العام في الحظوة العليا والمكانة الزلفى ﷺ.

من كانت عنده هذه الأمور، بهذه المثابة يفعل بمشيئة الله ويترك بمشيئة الله، لأن الله وحده المستحق لأن يحمد ويصغي إليه، ويتوكل عليه ويرضى عن فعله ويحب لاستحقاقه الحب، وهو الذي أوجد كل موجود بالوجود وهو غني عنه، فضلا عمَّا يترتب على وجوده بعد ذلك بحسب ما قسم له، فلا شيء يجري عليه بعد الإيجاد إلا وعليه لموجده المنَّة فيه وله الشكر، لأنه إما أن يكون ملائما لطبعه فوجوب الشكر واضح، وإما مخالفا منافرا فيجب عليه الصبر، لأن النعمة قد سبقت فيه، فليس عليه بعدها إلا الصبر مكافأة للنعمة السابقة، ثم حسن الظن بمن أنعم عليه ابتداء، فإنه على إعادة النعمة قادر، ولا مانع له من ذلك كما أن لا حامل له عليها، فالعبد مملوك لسيده ومبدعه وخالقه ومالكه وله التصرف فيه بحكم مشيئته، ومعارضته له ظلم فاحش، فما عليه في هذا الموقف إلا الصبر الجميل مع الإقرار لله بالربوبية المطلقة، ثم الشكر على ما يصبر عليه بما وعد الله به الصابرين، كرما وتلطفا، وأعلى من ذلك الفرح بكماله والغيبة في شهود جماله وعظمة جلاله سبحانه وتعالى، فلا يحسن الشكر إلا من تجمّل بالصبر، ولا يكون ذلك إلا للمتوكِّل الصادق في توكله، المعاين في حقيقة اعتصامه، واستغنى بربّه عن غيره، ورجا أجره بوعده، وخاف وعيده بزجره، وتاب إلى الله وتوجّه إليه بالشكر، ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧].

لكل موقف شكر يليق به وهو القيام بالنعمة للمنعم، بما يستحق جلاله، فعند التقصير يكون الشكر بالجد والإنابة، وعند الزلة بالحياء والخضوع، وتقصير كل حسب مقامه، فلا يكون تقصير عامة المؤمنين، كتقصير خواصهم ، وليس تقصير أصحاب اليمين كتقصير المقربين، فإذا رأيت الندم والعتاب والبكاء على الذنب من المقربين فاعلم أنه بالنسبة لغيرهم حسنة، فلديهم مجنون من طلب الشيء، أو وضعه في غير محله، وتضييع المنفعة والإلمام بغير فائدة ، وأجل المنافع عندهم الأنفاس والأوقات، يشكرون مولاهم على أنهم لم يضيعوا نفسا ولا وقتا فيما لم يخلق له، وهذا مبدأ شكرهم، في توجههم إلى المنعم بالشكر عملا وحالا، على الحقيقة فيما أقامه القضاء فيهم، سواء هو بلاء بالخير أو بالشر، ولم يتزحزحوا عن موقفهم في مشاهدة الله واستحقاقه الشكر والحمد على كل حال، فيكون بذلك مقام الشكر مقاما مستديما لا حالا عابرا، وحالهم فيه الرضى على العبد لكل ما قضاه المولى في كل موطن، فاستحقوا نعت «الشكور» خلعة نبوية ووراثة في مقام العبودية، عن الحبيب – ﷺ- «العبد الشكور» الذي لم يزل في جميع أحواله شاكرا ذاكرا ملازما لربه جل وعلا دائم الذكر له أزلا وأبدا على ما يليق بجلاله وسابق علمه، قال ﷺ لما رجع من الطائف وقد أظلمت الدنيا في وجهه ولم يلق قابلا لما أتى به من نور، وما لقيه من سفهاء ثقيف وهو راجع يرى مكة والدم ينزّ من قدميه الشريفتين في سبيل الدعوة إلى الله فتوجه إليه قائلا: (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلّةَ حيلتي وهواني على النَّاسِ يا أرحمَ الرَّاحمين أنت أرحمُ بي إلى من تكلُني إلى عدوٍّ يتجهَّمُني أم إلى قريبٍ ملَّكتَه أمري إن لم تكُنْ غضبانَ عليَّ فلا أُبالي غيرَ أنَّ عافيتَك هي أوسعُ لي أعوذُ بنورِ وجهِك الَّذي أشرقتْ له الظُّلماتُ وصلُح عليه أمرُ الدُّنيا والآخرةِ أن تُنزِلَ بي غضبَك أو تُحِلَّ عليَّ سخطَك لك العُتبَى حتَّى ترضَى ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بك) أخرجه ابن عدي وغيره عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، فمن نظر إلى الخطاب نظرة تأمل وتدبر يعلم أن الموطن موطن شدة وألم يليق به الصبر وهو ﷺ، أصبر الخلق في الضراء، ولكمال صبره واحتماله، صرف نظره عن الخلق وجعل الخطاب للربّ العزيز مفتتحا بالشكوى إليه متذللا ثم صار إلى التعزز به والابتهاج فاستحف بغيره واستعاذ بنور وجهه من غضبه وسخطه، وجعل الأمر إليه فقال: «ولك العتبى» فهو حال الشكر ثم قال «حتى ترضى» فكانت المسافة بين السكون إليه «لك العتبى» إلى منتهاها الذي هو الرضى فيكون مقام الشكر مصحوبا بالزهد والخوف والرجاء« إلى أن انتهى إلى السكون إلى ربه وعليه حال الشكر فوطأ القدم على مقامه، فقال «حتى ترضى» ليدخل في حال الرضى متمكنا من مقام الشكر، فاطمأن قلبه بمعاينة الحقائق ، ويتبين ذلك من قوله ﷺ لزيد بن حارثة ط بعد أن سأله كيف تدخل مكة وهم أخرجوك ؟ فقال: «يا زيد إن لله لما ترى فرجا ومخرجا وإن الله مظهر دينه وناصر نبيه» فكان شكره حقيقا على ما وضع له لفظه لمعاينته ـ بقدرة الله ـ المصير، فلم تكن المصائب في عينه إلا أسباب خير يتوصل بها إليه جل وعلا.

وقد قيل في مقام الشكر «هو اعتكاف القلب على بساط الشهود وبإدامته حفظ الحرمة» وقال شيخ الملامية بنيسابور، حمدون القصار، «شكر النعمة أن ترى نفسك في الشكر طفيليا، وقال الجنيد أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة وقال الغزالي» هو أقوالهم تعرب عن أحوالهم وقال «إن نظرت في هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدره وإليه مرجعه فهو الشاكر وهو المشكور وهو المحب وهو المحبوب» وقال أبو سعيد الأعرابي إنما الزهد خروج قذر الدنيا من القلب، والعبد مطالب بشكر معبوده من حيث هو عبد والرب رب، وقال أبو طالب في القوت« على المؤمن أن يشكر في القبض والمنع كما يشكر في العطاء والبسط، ثم يشهد الشاكر بقلبه شهادة يقين ويعلم أن وصف العبودية وصفه، وحكمه أحكام العبيد محكوم عليه بأحكام الربوبية، وأنه لا يستحق على الله شيئا وأن الله عز وجل يستحق كل شيء، فالعبد خلقه وصنعه والرب خالقه ومالكه، فإذا أشهد هذه الشهادة رأى لله عليه كل شيء، ورضي عنه بأدنى شيء ولم ير له على الله شيء، ولم يقنع لله منه بشيء، ولم يطالب مولاه بشيء»، وأعلى مراتب الشكر مقام الشكور وهو الذي يشكر على المكاره والبلاء والشدائد، ولا يكون كذلك حتى يشهد بأن ذلك نعمة توجب عليه الشكر بصدق يقينه وحقيقة زهده، وهذا مقام الرضى، وحال من المحبة، قال تعالى عن نوح – عليه السلام : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ﴾ [الإسراء:٣]، قالوا: لأنه يشكر الله على كل حال من خير وشر ونفع وضر، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ ﴾ [الزمر:٧]،

وقال: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾ [فصلت:٣٥]، يا رب...؟ وقال ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ ﴾ [إبراهيم:٧]، «وقال: ﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ [ق:٣٥]، إنه الشكر والزيادة إلى يوم لقاء الحبيب، فمن يتوقف عن الشكر في كل حال وهو يعلم أن في شكره زيادة الخير ممن لا تنفد خزائنه؟.

**مقام الرجاء:**

الرجاء هو انتظار مرغوب يحصل في المستقبل، وقد ورد في كتاب (قوت القلوب) «الرجاء هو اسم لقوة الطمع في الشيء، بمنزلة الخوف اسم لقوة الحذر من الشيء»، وورد في (الرسالة)، الرجاء تعلق القلب بمحبوب يحصل في المستقبل.

وكما أن الخوف يقع في المستقبل، كذلك الرجاء يحصل لما يُؤمّل في الاستقبال، وبالرجاء عيش القلوب واستقلالها، ومفاد كلام فقهاء الصوفية أن الرجاء هو تعلق القلب بمحبوب متوقع حصلت جميع أسباب حصوله، مع ارتياح ولذة في النفس لعادة لا تتخلف بين السبب والمسبب وهذا أقوى الرجاء، وقد تتفاوت قوة دون قوة بسبب إنخرام بعض الأسباب تهافتا إلى أن تتجاوز الحد الأدنى فيتحول الرجاء إلى أمنية، قال الغزالي في الإحياء «الرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده

ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بد أن يكون له أسباب، فإن كان انتظارا لأجل حصول أكثر أسبابه اسم الرجاء عليه صادق، وإن كان ذلك انتظارا مع انخرام أسبابه فهو رجاء- مادامت الأسباب معلومة-، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فيكون اسمه التمني»، وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء: إلا على ما يتردد فيه أمّا ما يقطع به فلا»، وفي الرسالة كذلك «علامة حسن الرجاء حسن الطاعة»، وعن أحمد بن عاصم الأنطاكي وقد سئل عن علامة الرجاء في العبد فقال:«أن يكون إذا أحاط به الإحسان ألهم الشكر».

ومن علامة صحة الرجاء في العبد سيطرة الخوف في باطنه على رجائه، لأن من يرجو شيئا، تحقق منه في الحصول، خاف أن يفوته، لعظمة الوجود في قلبه، وشدة الفرح والاغتباط في انتظاره، فهو لا ينفك عن خوف فوات الرجاء، ومن علاماته حسن الظن بالله، الذي ينتج عنه حسن التودد له – سبحانه- وقوة الطمع فيه، ومن الرجاء انشراح الصدر بأعمال البر وسرعة فعلها والمبادرة بها، خوف فواتها مع رجاء قبولها، ومجاهدة النفس في الطاعات وإقامة العبادات في خدمة المعبود وبذل النفس والمال سرا، وعلانية، ومن الرجاء الأنس بالله في الخلوات، والأنس بالعلماء، والتقرب بالأولياء وارتفاع الوحشة بمجالسة أهل الخير، ومن الرجاء دوام التلذذ بدوام حسن الإقبال، والتنعم بمناجاة ذي الجلال، وحسن الإصغاء إلى محادثة القريب، والتلطف في التودد للحبيب، ومن الرجاء سقوط ثقل المعاونة على البر والتقوى لحصول التلذذ بصالح الأعمال بل والمسارعة إليها والحث لأهلها عليها، والحزن على فواتها، والفرح بإدراكها كلها، إنها مجموعة خصال إذا اجتمعت في إنسان، تظهر عليه أدلة الكمال، على كرسي مقام الرجاء، وعليه حال عظيم من المحبة الخاصة.

لا يوجد الرجاء إلا والخوف قرينه، قال مكي أبو طالب في القوت«فشاهد خوفه هروبه من الخلق وانزواؤه عن الدنيا إلا أهل الله وما يضطره إليه الدين، وتبطن الخوف في رجائه جعله يمعن في الفرار من كل مثبّط ويستشعر الوجل من مداناة كل قاطع»، وإذا أراد الله بعبده أمرا، هيأ له أسبابه فتجد العبد الصالح يطيع ربه مُلتذا، لا كعبد السوء يساق بالعصا، وفي الحلية عن زين العابدين علي بن الحسين-عليهما السلام- كان يقول: «إن قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وآخرين عبدوه رغبة فتلك عبادة التجار، وقوما عبدوه شكرا فتلك عبادة الأحرار»، والحر الكريم إذا امتثل أمر ربه يمتثله على صراط مستقيم ويمضي فيه فرحا، إذا اصطدم به البلاء يلاقيه بصدر رحب فيصدق في الرجاء لينزل الوعد بالثواب عنده منزلة ما أنجز فيزداد عملا ويزداد قربا، وإذا أحاط به الإحسان يتقلب فيه بالشكر فيلهم المحامد ويلقن أذكاره كما في الرسالة، ويراقب في جميع أنفاسه موقع حسن طاعته فيصرفها فيها»، ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠].

وقال مكي في قوت القلوب: «ومن علامة حسن الظن بالله، التملق له وقوة الطمع فيه، والتملق هو التودد والتلطف والطمع والحرص على المطلوب، فالتودد للملك من شعائر العبودية، وحسن التلطف من آداب التطفل، وأتم الخلق بذلك أنبياء الله وملائكته، لأنهم أقرب إليه سبحانه. والأصدق في التفعل هو الأقرب للفعل، ومن أسمائه تعالى الودود الذي تفضل على الخلق بموهبة التخلق به، ليكون لهم سببا في وده وكونهم من أهله وعبادتهم التلطف ببابه، فالأخص بوده – تعالى – هو الأكثر توددا إليه.

وقد كان خطاب الأنبياء والملائكة لله عز وجل دائما باسم (الرب) وهو أجمع لآداب الطلب والعبودية، لأن أول ما يتصوره المتلطف في الحاضر ربوبيته –تعالي- وتتضمن جميع أوصاف الكمال، ثم مربوبيته هو وضمنها جميع أنواع الذل والخضوع والافتقار، ولا يخفى ما في ضمنها من التلطف لذكر الطلب لما فيه من الإقرار بالعجز والفقر والشهادة له تعالى بالغنى، والقدرة، فاسم الرب أنسب اسم يقرع به العبد باب سيده، فحسن الظن بالرب يزيد في حسن التملق والتلطف ويزد في قوة الطمع في نواله، وأعلم الناس بالله أحسنهم به ظنا، وأحسنهم به ظنا أقواهم فيه طمعا، وأعلم الناس بربه محمد ﷺ فكان الغاية في قوة التودد في دعاء ثقيف (فإلى من تكلني) وهو الذي يقول: (سلوا لي الله الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله.الحديث) ابن تيمية في مجموع الفتاوى عن عبد الله ابن عمرو، يبيتهل إلى الله تعالى في أن يكون معه في نفسه وفي دينه، لأن الدين الحق ذاتي فيه ﷺ، ثم يطمع إليه فيما هو أكبر حظا على الإطلاق ليكون مخصوصا به، غاية الرجاء الكامل وما ذلك إلا لمزيد معرفته بالله ورجاء قربه دون غيره من جميع المخلوقات، فكان مزيد علمه في أنه –تعالي- لا يتعاظمه شيء يعطيه، جعله يطلب الدرجة الرفيعة المخصوصة وقد سبق له من ربه الكريم العظيم أن أعطاه ما سأل، وأجابه فيما طلب، ولذلك نصح أمته ﷺ بالدعاء وفتح لهم بابه وتشريعه تبيينا لما نزل إليهم فتبعه الصحابة والأولياء وسائر المؤمنين، وكان من ذلك ما دلنا على أن مزيد علم العبد، قوة طمعه في الله لمزيد حسن ظنه به – عز وعلا-، وصدق اتباعه لسنة من لا ينطق عن الهوى« وإن كان الطلب عن إلهام فدلالة الاختصاص بالمطلوب، وإن كان مجرد حسن ظن، فهو درجات بحسب درجة المعرفة والمكاشفة في علوم الله سبحانه وتعالى للعبد، وهو دلالة على صحة الإيمان وفيه الخير كله.

إن للإنسان في كل مقام من مقامات اليقين حالا من الرجاء، كما أن له في كل رتبة من مراتب المعارف ما يسمى ظنا بالنسبة لما هو أعلى من الكشوفات، فحسن ظنه ﷺ بنيل (الوسيلة) أقوى من كل يقين، ورجاؤه الفوز بها فوق كل محقق في حق غيره، والأمور كلها نسبية، قال تعالى: ﴿ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ [الأحقاف: ٣١]

فما هي الوسيلة الأعلى من هذا..؟! فلا رجاء دون علم وعمل، والعلم والعمل هما إجابة داعي الله، قال الفضيل بن عياض: «إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا، فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنّة»، ولن يتمكن العامل من القيام بعمل يجمع الوصفين إلا بالعلم، فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول ﷺ لا يمكنه قصده، وإن لم يعلم معبوده لا تمكنه إرادته، ولولا العلم لما كان عمله مقبولا، فالعلم هو الدليل على الإخلاص وهو الدليل على المتابعة على صراط مستقيم، وهو في غاية النفاسة، وفي الصحيح «من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه»، وما هو أنفس من نهج يوصل العبد إلى لقاء ربه المحبوب؟.

إن صدق الرجاء يزيد الإنابة وإخلاص المحبة لمن يرجوه، وفي القوت «الرجاء هو قرّة عين المحبين المخلصين، وسرور لأهل الكرم والحياء، وروح وارتياح لأهل العصمة والوفاء، ينتفعون به، ويشتد عندهم الحياء عنده، ويروح به كرمهم، وترتاح إليه عقولهم، فهؤلاء يستخرج منهم الرجاء وحسن الظن من العبادات ما لا يستخرجه الخوف، إذ المخاوف تقطع على أكثر المعاملات، فصار الرجاء طريقا لأهله، وصاروا راجين»، وقيل «الرجاء ثقة الجود من الكريم الموجود»، وقيل «الرجاء رؤية الجلال بعين الجمال» وقيل «قرب الرب من ملاطفة القلب» و «سرور الفؤاد بحسن المعاد» وقيل «الرجاء هو النظر إلى سعة رحمة الله تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه فحسبي الله ونعم الوكيل.

## مقام الخوف:

قال أبو طالب المكي في كتابه الرائع قوت القلوب «واعلم أن الخوف عند العلماء غير ما يتصور في أوهام العوام، وغير ما يعدّونه من القلق والاحتراق أو الوله والانزعاج لأن هذه خطرات وأحوال ومواجيد للوالهين وليست من حقيقة العلم في شيء بمنزلة مواجيد بعض الصوفية من العارفين في أحوال المحبة من احتراقهم وولههم، والخوف عند العلماء إنما هو اسم لصحيح العلم وصدق المشاهدة، فإذا أعطى عبد حقيقة العلم وصدق اليقين سمّي خائفا.

ولذلك كان النبي ﷺ أخوف الخلق من الله ،لأنه على حقيقة العلم، وكان أشدهم حبا له، لأنه كان في نهاية القرب، وقد كان حاله السكينة والوقار في المقامين معا، والتمكين والتثبيت في الأحوال كلها ولم يكن وصفه القلق والانزعاج ولا الوله والاستهتار، وقال القشيري في الرسالة: «الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام»، وقيل الخوف:« حركة القلب لجلال الرب»، وعن إبراهيم بن شيبان أنه قال: «إذا سكن الخوف القلب أحرق مواضع الشهوات منه، وطرد رغبة الدنيا عنه» وقال ابن الجلاّء: «الخائف من تأمنه المخوفات»

فالخائف ليس الذي يبكي ويمسح عينه، إنما الخائف من يترك ما يخاف أن يعذّب عليه، فصدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهرا وباطنا، وفي ذلك قال ذو النون المصري: الناس على طريقة ما لم يزل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا عن الطريق، إن الخوف يكسب الخائف المحاسبة والمراقبة والورع، فيتدارك ما فات بالوجل والتوبة ويلهج بالاستغفار إلى أن ينتهي إلى المشاهدة والأنس فتغشاه الهيبة من الإجلال والتعظيم بمزيد العلم المقتضي لحال الخشية العظمى، وفي كتاب المواهب اللدنية «الإجلال تعظيم مقرون بالمحبة فالخوف لعامة المؤمنين والخشية للعلماء العارفين والهيبة للمحبين والإجلال للمقربين وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف وتكون الخشية»، كما قال ﷺ: (...إنني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية) البخاري في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين ﵂، وقال: (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا) رواه البخاري في صحيحه عن أنس ابن مالك ﵁، وفيهما دلالة على اختصاصه ﷺ بمعارف خاصة قد يطلع عليها غيره من المخلصين من أمته، ومن هذا المنطلق يكون مقام الخوف هو الخامس من مقامات اليقين، قال الله -عز وجل- ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣] فرفع العلم على العقل وجعله مقاما فيه، ومعنى رفع المقامات بعضها على بعض الإحاطة ثم زيادة على خصوص موضوع لفظ المضاف، فإذا قلنا رفع العلم على العقل معنى ذلك أن دائرة العلم أوسع من دائرة العقل المجرد عن العلم، فالعقل هو الذي ينتبه للعلم، والعلم هو المنبّه «بكسر الباء وتشديدها» من الله تعالى ابتداء، والمنبه عليه هو العلم بمعنى المعلوم، فكل من عقل ما نبّه به فهو العاقل، وكان العلم أرفع منه لأنه السبب الأول في الحركة للتعلم وهو مقصود المتحرك الذي هو العقل أيضا فلذلك يكون العلم هو الأرفع لأنه المبدأ والأشرف لأنه الغاية المطلوبة لذلك يعتبر الحكماء المبادئ والأوليات للمدركات ضرورة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، فجعل الخشية مقاما في العلم حققه بها، والخشية حال من مقام الخوف، والخوف اسم لحقيقة التقوى، والتقوى معنى جامع للعبادة، وهي رحمة الله تعالى للأولين والآخرين، وينتظم هذين المعنيين قوله -جل وعلا- : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١٣١]، وهذه الآية قطب القرآن ومداره عليها، فالخوف اسم جامع لحقيقة الإيمان، وهو سبب اجتناب كل نهي، ومفتاح كل أمر، ولا يوجد شيء يحرق شهوات النفس فيزيل آثار آفاتها إلا مقام الخوف، وإذا كان العلم كسب الإيمان، فالخوف كسب المعرفة، وكل مؤمن بالله تعالى خائف منه ويكون خوفه على قدر معرفته بالله وقربه منه، فخوف العموم بظاهر القلب عن باطن العلم بالعقاب

وخوف الخواص وهم الموقنون بباطن القلب عن باطن العلم بالوجود، وأما خوف اليقين فهو للصديقين من شهداء العارفين عن مشاهدة ما آمنوا به من الصفات المخوفة، وقد قرأت في قوت القلوب (فأما خوف الخصوص فهو ألا يجمع مالا يأكل ولا يبني ما لا يسكن ولا يكثر فيما عنه ينتقل بل يؤثر بالموجود منه، ويعد نفسه منتقلا في الحال ولا يغفل عما إليه يرحل بل لم ينح غير ما إليه يرتحل)، وقال ابن الشيخ العارف العلامة عند ذكره لأحوال أهل التقى في كتابه الفتوحات ( أن مساكن السائحين الغيران والكهوف وفي الأمصار ما بناه الغير أسوة بحال رسول الله ﷺ فإنه ما وضع لبنة على لبنة) وما يقصده هنا غير المسكن الأصلي لم يكن له ﷺ استراحات أو مقار غير مسكنه بالرغم من كثرة تنقله وسفره في سبيل الدعوة لله تعالى وتبليغ رسالته، بل إنه ﷺ أقصى ما ادخره قوت كفاف عامه ونفقة أهله وما بقي فلذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وكان يبني المساجد ويحفر الخنادق وكل ذلك تعبّد منه بالقيام بالأسباب مما آتاه الله من حكمته وتشريع لأمته لتبليغ رسالته.

إن الخوف المحدود من مقامات اليقين، لا يحصل إلا للموفق، فبعد الإيقان بالآخرة وحسابها وميزانها وأهوالها وأنعمها كذلك، يحصل الخوف من أمورها الهائلة فيجتمع الهم في طلب النجاة ولا يجدها إلا في سلوك سبيل الناجين وسادتهم الرسل وسيدهم محمد ﷺ وعليهم، واقتفاء الموقف لسنتهم دليل على كياسته، فحصلت له الراحة في الحال والطمأنينة فلم يحد عن هذا المنهج لتكتمل تقواه وتأتيه البشرى، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس:٦٣-٦٤]، وهذا إذا تمكن العبد من ملاحظة ما يكون من فيض المدد وشهده من عين المنّة ومحض الجود، وشهد مع ذلك فقره إلى ربه في كل لحظة وعدم استغنائه عنه طرفة عين، وأنشأ له ذلك سحاب سرور وبمجرد انبساط تلك السحب في سماء قلبه فملأت أفقه أمطرت عليه وابلا من الطرب بما هو فيه من لذيذ السرور الذي لن يذوق طعمه دنيا وآخرة من لا يخاف مقام ربه ويتقيه.

***

**مقام الزهد:**

لقد وصف الله تعالى، أهل الزهد بالعلم، وسماهم العلماء، بعد أن وصف قارون الذي خرج على قومه في زينة أذهلت ضعاف القلوب، كما هو حالنا الآن، فقال جل وعلا: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص:٨٠]، ليكون هذا الارتباط اليقيني بين العلم والإيمان، إنهم الزاهدون في الدنيا ومصالحها الفورية ربحا أو خسارة، وديدنهم إدراك واع لحقيقة مؤكدة اسمها الثواب والعقاب العاجل والآجل ولذلك بشرهم الخالق سبحانه وتعالى فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [القصص:٥٤].

وجاء في أغلب التفاسير« بما صبروا على الزهد في الدنيا» وأضاف الخالق المبدع المنعم: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤]، قيل على الفقر للحاجة، فالحرية لديهم أقوى من الحاجات وتقوى الله بالعبودية لجلاله معرفة وعلما، وقد ذكر النص القرآني كلام الله المنزل أن الدنيا سبعة أشياء في قوله: {﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ [آل عمران:١٤]، فأوهام الشهوات التي زينت للناس ابتلاء ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف:٧]، ليست هي الحاجات، فالعلاقة بين الرجل والمرأة حاجة ضرورية سامية تنقلب إلى كارثة إنحطاطية إذا اختصرت اقتصارا على دائرة الشهوة دون اعتبار لمضامينها الأساسية والضرورية، ومن النص فهمنا أن الشهوة دون اعتبار لمضامينها الأساسية والضرورية إنحطاط دنيوي، أما الحاجات غير ذلك، لأنها ضرورة، فإذا لم تكن الحاجة دنيا دلّ ذلك أنها لا تُسمّى شهوة، وإن كانت قد تشتهى لأن الشهوة دنيا، ولذلك يجب التفرقة بين الأسماء لإيقاع الأحكام، فعمل المؤمن على إشباع الحاجات الضرورية واجب أومباح تتأكد حريته بامتلاكه لحاجاته دون السقوط في دوامة الشهوات التي لا تنتهي، والانخداع بزينة الدنيا المزيفة، والصبر على ابتلائه بفتنتها، والتفريق بين الزهد والحاجة والرغبة والاشتهاء، فالزاهد له فضل ينفصل به عن الراغب هو أنه لا يفرح بعاجل موجود من حق النفس، ولا يحزن على مفقود، وأن يأخذ من كل شيء عند الحاجة إلى الشيء، ولا يتناول عند التوفر إلا سد الفاقة ولا يطلب الشيء قبل الحاجة وخالص الزهد إخراج الوجود من القلب، ثم إخراج ما خرج من القلب عن اليد، وهو «عدم الموجود على الاستصغار له والاحتقار»، والتقليل من شأن الحاجة لهوان الدنيا عنده وصغرها في عينيه فبهذا يكون الزهد ويكون الإنسان الأنموذج الحر السعيد.

ثم ينسى الزاهد زهده في زهده فيكون حينئذ «زاهداً في زهده»، لرغبته في سبب زهده « مزّهده وبهذا يكمل الزهد ويكون لبه وحقيقته وهو أعز الأحوال في مقامات اليقين، وهو الزهد في النفس وليس الزهد لأجل النفس، ولا الرغبة في الزهد للزهد، وهذه مشاهدة الصديقين، وزهد المقربين، لذلك تجد الزاهد المقرب في حالتي الفقدان والوجدان مثلا أعلى في تصرفاته وسلوكه لعباد الله الصالحين، بإدباره عن الدنيا وإقباله إلى الآخرة وفراره من العاجلة إلى الآجلة يقينا، بل فنائه عمّا سوى الله، وبقائه بالله ولا تخطر له الدنيا على بال إلا إذا ذكرت أو تصورت له في ثوب حال من الأحوال فيراها ببصيرته الواعية العارفة أقذر خبث وأخبث رجس.

ورد في قوت القلوب «يصح الزهد للعارف مع وجود الأشياء عنده، إذا لم يقتنها لمتعة نفسه، ولم يتملكها ويسكن إليها، بل كانت موقوفة في خزانة الله سبحانه وتعالى عنده التي هي يده وإرادته، منتظرتان حكم الله فيها، ومحنة ذلك استواء وجودها وعدمها، والمسارعة إذا رأى حكم الله فيها إلى تنفيذه فيكون بذلك كأن ما في حوزته لغيره... ثم قال: وهذا المقام زائد على الزهد لم يخرج منه بل كان مخصوصا منه بخصوص وهو مقام التوكل.

ورد في الرسالة للقشيري عن الإمام الثوري «الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس أكل الغليظ ولا لبس الخشن» وفيها عن الجنيد« سمعت السرّي يقول: إن الله سلب الدنيا عن أوليائه وحماها عن أصفيائه وأخرجها عن قلوب أهل وداده، لأنه لم يرضها لهم»، وقال تعالى: ﴿ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ ﴾[الحديد:٢٣]، وعن الإمام (الصرر أباذي) أنه قال: «من زهد في الدنيا أتته الدنيا راغمة، وقال يحيى بن معاذ: «الزهد يورث السخاء»، ومن نصائح الشيخ أحمد بمبا، مؤسس الطريقة المريدية «إذا أردتم النجاة من فتنة أبناء الدنيا فاتركوها لهم، فمن لم يجد فلا يطلب، ومن وجد فليبذل، وإن أردتم النجاة من الشيطان فلا تلابسوا أمتعته، فإن يستعيذ منه ويمسك متاعه لا يعيذه ويقول له: إن ترد البُعد منّي فأخرج إليّ متاعي أتركك، وأمتعة الشيطان هي الحرام والمكروه واللغو، فمن تركها وخرج منها بالكلية ودخل في الواجب والمندوب وصرف المباحات إلى صلاحها يسلم من الشيطان ومن مضرته.

ولا يكون الزاهد زاهدا إلا إذا تحقق في مقام الزهد أن يكون عليه حال الصبر في كل تلون من تلوناته وتحول من تحولاته، قال أحمد بن حنبل: «للزهد ثلاثة أوجه: ترك الحرام وهو زهد العوام، وترك الفضول وهو زهد الخواص، وترك ما يشغل العبد عن الله تعالى وهو زهد العارفين» وقال تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ [الحجرات:٧]

قال الشبلي: «أعلى الزهد، الزهد فيما سوى الله»، وقال المكي أبو طالب في قوت القلوب: «تفاوت الزاهدون على نحو علو المشاهدات، فمنهم من زهد إجلالا لله تعالى، ومنهم من زهد رجاء موعد الله تعالى، ومنهم من زهد مسارعة منه لأمر الله تعالى، ومنهم من زهد حبا لله تعالى وهو أعلاهم.

وفي هذا العصر الذي أظهرت فيه الدنيا أعظم زينتها، وسلطت علينا كل فتنتها، يعتقد الكثيرون، أنهم قادرون عليها، وغاب عنهم أنها ابتلاء عظيم كلُ منّا في حاجة ماسة لكل عزائم صبره ليفر من الحرام، فقط الحرام، ويزهد فيه مكتفيا بنجاه العوام وزهدهم ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف:١٠]. ولله الأمر من قبل ومن بعد ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

**مقام التّوكّل:**

التوكل من أعلى مقامات أهل اليقين، وأشرف أحوال المتقين، قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ فجعل المتوكل حبيبه وألقى عليه محبته، وقال –عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم:١٢]، فرفع المتوكلين إليه وجعل مزيدهم منه فقال –جلّت قدرته ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق:٣]، أي كافيه مما سواه، ومن كان الله كافية فهو معافيه وشافيه ولا يسأل عمّا فيه، ويروي عن بعض الصحابة «التوكل نظام التوحيد وجماع الأمر»، وفي إجابات بعض الصالحين عند سؤالهم أي الأعمال أفضل؟ فأجاب (التوكل وقصر الأمل فعليكم بهما) وعن أبي الدرداء: «ذروة الإيمان الإخلاص والتوكل والاستسلام للرب عز وجل»، وعن سهل بن عبد الله التستري: «العلم كله باب من التعبد، والتعبد كله باب من الورع، والورع كله باب من التوكل»، فليس للتوكل حدٌّ ولا غاية ينتهي إليها، وعنه كذلك: «التقوى والزهد كفّتا الميزان، والتوكل لسانه»، وعلى هذا المنوال فإن التوكل من أعلى درجات المقربين. قال الغزالي: «التوكل في ذاته غامض من حيث العلم إن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد، والتثاقل عنها بالكلية طعن في السنة وقدح في الشرع، والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسبابا تغيير في وجه العقل وانغماس في غمرة الجهل، وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد والنقل والعقل والشرع في غاية الغموض والعسر ولا يقدر على كشف هذا مع شدّة الخفاء إلا جهابذة العلماء الذين اكتحلوا بفضل الله تعالى بأنوار الحقائق، فأبصروا وتحققوا، ثم بالإعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا»، وقد كان دون شك على حق، فإن الإفصاح عن حقيقة التوكل من غير إخلال ببعض من جملته، والإعراب عن أصله من غير فساد لمادته صعب إلا بالاعتدال في الحقائق والأحوال ولا مناص من الأخذ بحدّ اللفظ من كلام حجّة الإسلام الإمام الغزالي فإنه أكثر تفننا في تحقيق التفسير وتحقيق الأقوال، والأخذ كذلك من كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي فإنه أكثر تعمقا في تحقيق معاني الحقائق ونأخذ في هذا الشأن عن بعض أفراد الصوفية لأنهم أكثر تقييدا بما تنبئ به الأحوال القائمة في نفوسهم المعربة عن مقاماتهم، لأن معرفة أصول الشيء التي عليها يبني ويؤسس لا ترتاح نفس المطالع المتأمل إلا بها.

قال الغزالي في الإحياء: «التوكل مشتق من الوكالة، يقال وكّل أمره إلى فلان أي فوضه إليه واعتمد عليه فيه، ويسمّى الموكل إليه متّكلا عليه ومتوكّلا عليه مع اطمئنان نفسه إليه ووثوقه ولم يتهمه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزا أو قصورا، فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده»، وقال أبو طالب: «التوكل فرض وفضل، ففرضه منوط بالإيمان وهو تسليم الأقدار كلها للقادر، واعتقاد أن جميعها قضاؤه وقدره، ألم تر إلى ربّك كيف أقسم بنفسه في نفي الإيمان عن من لم يحكم الرسول فيما اختلف عليه من حاله فقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]، وأما فضل التوكل فإنه يكون عن مشاهدة الوكيل فهو في مقام المعرفة ينظر بعين اليقين، كما قال العبد الصالح: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ [هود:٥٥]، فظهرت منه قوّة عظيمة بقوة، وأخبر عن عزيز بعزّ، فكأنه قيل له ولم ذلك وأنت بشر مثلنا ضعيف؟ فقال: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ [هود:٥٦]، فكأنه سئل عن تفسير توكله كيف سببه، فأخبر بمشاهدة يد الوكيل آخذة بنواصي دوابّ الأرض فقال: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ [هود:٥٦]، ثم أخبر عن عدله في ذلك وقيام حكمته، وأنه وإن كان آخذا بنواصي العباد في الخير والشر والنفع والضر، فإن ذلك مستقيم في عدله فقال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود:٥٦].

قال تعالى في فرض التوكل: ﴿فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة:٢٣]، وقال في مثله: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس:٨٤].

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ تكررت في خمس سور [آل عمران ١٢٢و١٦٠، والمائدة ١١، والتوبة ٥١، وإبراهيم ١١، والمجادلة ١٠، والتغابن ١٣].

وقال ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ [آل عمران:١٥٩]، ومن ذلك فإن التوكل لا يتحقق إلا بالزهد، والخوف، والرجاء، والعمل بالشكر، وذلك لأن الزاهد لم يزهد في الفاني إلا لمزيد رغبته في الباقي، فإن من ترك الأشياء لا لشيء فهو غافل، والزاهد الممدوح من آثر الآخرة على الأولى، ولا يكون ذلك إلا لمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى المضل، ولا يعمل للآخرة إلا من صدق رجاؤه، وحسن ظنّه بالله ووثق بنصره

وهذا هو التوكل الحق بعينه، فيعمل عملا إيجابيا بحسن الظن، ويفر إلى الله، ويعتصم به وحده مما يخاف فلا يعبأ بغيره، فيثيبه الله، ويسلبه الطمع في الخلق بقدر ما يطمعه في الحق، إلى أن يسكن قلبه وتشتد عزيمته بالحق وتسقط الأسباب من عينه بمسبب الأسباب، ويطمئن بذكر الله عن الميول لذكر غيره، وينقطع إليه رهبة ورغبة فيصدق توكله، فيطالب بالرضى عن الوكيل بكل ما أجرى من قضائه وقدره، فيكرم بفتح عين يقينه ليرى رأفته بعباده سبحانه وجميل لطفه ووافر نعمته، وأنه الواحد المريد الفعّال لما يريد لا يسأل عما يفعل، وأن الكامل لا يصدر منه إلا الكامل، فيرضى به ربا، ويفوّض إليه الاختيار والتدبير عبودية، ويقوم بالأسباب تعبّدا، لا خوفا من شيء ولا رغبة في شيء غيره، فيستحق المحبّة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، فهل يدرك المسلمون هذه المفاهيم؟. أم إنهم يرون غير ذلك، ولهذا تراهم يفوضون أمورهم لأعدائهم الذين لا يريدون إلا ذلهم واستعبادهم دون وجه حق، ويتركون عزة الحق، فهل من يعتقد هذا له أن يدّعي أنه لازال على الإسلام، أما آن لأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن تراجع مواقفها وتعود لأصولها وتعمل على توفير أسباب خيريتها وشروطها ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾

[آل عمران:١١٠]، وهل يملك المسلم الحق المحتسب إلا إنكار ما يحدث في عالمنا اليوم، يقول أبو طالب المكي: (إن العبد إذا تم خوفه من الله، أزال الله خوف المخلوقين عن قلبه، وحوّل ذلك في قلوب المخلوقات فصارت هي تخافه إن لم يخفها، كما إذا كملت مشاهدة العبد وقام بواجبات شهادته، وعينت تلك المشاهدة وجود الكون مع الله عز وجل فلم يرها، وقام له القيوم بنصيبيه من الملك لما تفرّغ قلبه لمعاينة الملك، فنظر العبد الذليل إلى سيده العزيز، فقوي بنظره إليه وعزّ بقوته به واستغنى بقربه منه)، هل لا زال لبصيرتنا مساحة تدرك ما نقول أم أن شاشتها مشغولة برؤية صورة الطغاة المستغولة وذاكرتنا أصابها فيروس ممارستنا غير الشرعية والخفية فلم تعد لها قدرة على استحضار مخزونها الثقافي الحضاري، وهل ندرك أنه لا قوة إلا بالله، فهو حسبنا ولا شك أنه نعم الوكيل»؟.

**مقام المشاهدة والرضا والمحبّة:**

الرضا: ذروة مقامات اليقين بالله الذي قال في كتابه المنزل وذكره الحكيم: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، فمن أحسن الرضا عن الله، جازاه الله بالرضا عنه، فقابل الرضا بالرضا وهذا غاية الجزاء، ونهاية العطاء وهو قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ وردت في أربع سور، [المائدة ١١٩، والتوبة ١٠٠، والمجادلة ٢٢، والبينة ٨]، وقد رفع الله الرضا على جنات عدن وهي من أعلى الجنات، كما فضّل الذكر على الصلاة فقال جلّ من قائل: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢]

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[العنكبوت:٤٥]، فالذكر عند الذاكرين المشاهدة، ومشاهدة المذكور في الصلاة أكبر من الصلاة، وهو أحد الوجهين في الآية الكريمة أما الوجه الثاني فهو ذكر الله للعبد أكبر من ذكر العبد لله، وقد قال عبد الله الساجي: (من خلق الله عباد، يستحيون من الصبر، يتلقفون مواقع أقداره بالرضا، تلقفا)، وقال عمر بن عبد العزيز: (أصبحت ومالي سرور إلا في مواقع القضاء)، فالرضوان عن الله سبحانه وتعالى همُّ الذاكرين لله بما يحب ويرضى، فالرضوان الأكبر جزاء أهل الذكر الأكبر، وهذا أحد المعاني في قوله في الحديث القدسي: (من شغله ذكري عن مسألتي، أعطيته أفضل مما أعطي السائلين) الزيلعي في تخريج الكشاف وغيره عن عمر بن الخطاب ط، أي الرضا عنه لأن السائلين يسألونه لهم فأعطاهم العفو، والذاكرون ذكروه فأعطاهم الرضا عنه عز وجل قال المكي في قوت القلوب: (إن عابدا عبد الله دهرا طويلا فرأى في المنام أنه قيل له فلانة الراعية رفيقتك في الجنة فسأل عنها حتى وجدها، فاستضافها ثلاثا، كان يبيت فيها قائما وتبيت هي نائمة، ويظل صائما وتظل مفطرة، فقال لها: مالك عمل غير ما رأيت؟!، قالت: ما هو إلا ما رأيت فلم يزل يقول تذكّري، حتى قالت خصيلة واحدة هي فيَّ، إن كنت في شدة لم أتمنّى أني في رخاء، وإن كنت في مرض لم أتمنّ أني في صحة، وإن كنت في شمس لم أتمنَّ أني في ظلّ) فوضع العابد يَدَهُ على رأسه وقال: أهذه خصيلة؟ هي والله خصلة عظيمة تعجز عنها العبَّاد، وقال أبو الدرداء: (ذروة الصبر للحكم الرضا بالقدر لأنه إذا أحبّ الله عبدا ابتلاه، فإذا صبر اجتباه، فإذا رضي اصطفاه) فالرضا عن الله –عز وجل- والرحمة للخلق وسلامة القلب وسخاوة النفس والنصيحة للمسلمين، مقام الأبدال من الصديقين، فالصبر على الأحكام مقام المؤمنين والرضا بها مقام الموقنين.

إن التجاء العابد لربه بيقين أنه لا ملك إلا ملكه، ولا حال للعبد الصالح منه إلا الرضا فضلا عن الصبر تحت مجاري أقداره، والشكر له، بمنّه عليه بمعرفة جلاله، ونفوذ إرادته في الأمور كلها: (فهو لا يسأل عما يفعل)، فإن عومل الأمر بهذه المكرمات من تأييد، وحفظ، ونصر عيانا حاضرة، كيف لا تختلف عليه أحوال المحبة في مقام الرضا وهو العبد الذي يرضى في مواقف الصبر ما دام البلاء، ويشكر على ما يصبر عليه، ولندرك ملامح شخصية أهل الرضا والمحبة نسلط الضوء على نماذج من صدر الإسلام تربت على منهج رسوله تحت إشرافه فكان لهم القدوة والأسوة والمثل، فقد روي أن (رسول الله ﷺ قدم من غزاة فدخل المسجد، فصلى ركعتين، ثم بدأ ببيت فاطمة قبل بيوت نسائه، فرأت على وجهه آثار التعب والإجهاد فتألمت لما رأت، وبكت فسألها: ما يبكيك يا فاطمة؟ فقالت: أراك قد شحب لونك، فقال لها يا فاطمة إن الله عز وجل بعث أباك بأمر لم يبق على ظهر الأرض بيت مدر ولا شعر إلا أدخله به، عزا أو ذلا، يبلغ حيث يبلغ الليل) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء عن أبو ثعلبة الخشني، هذا هو التوكل الكامل والصبر العظيم، فالرسول ﷺ يعلم أن الله بالغ أمره، وهذا لم يمنعه من بذل الجهد

والجهاد في سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله، ولأن الأب هو القدوة والمحبوب فلم تكن تلك العاطفة وتلك العناية والمشاركة مع أبيها الرسول ﷺ من فاطمة عليها السلام هي كل ما تقدمه من حب وإيثار واهتمام، ومشاركتها له في شدته وعسرته إنها جاءت يوم الخندق والرسول ﷺ وصحبه منهمكون في حفر الخندق، لتحصين المدينة، وحماية دار الإسلام، جاءت فاطمةُ رضوانُ اللهِ عليها بكِسرةِ خبزٍ لرسولِ اللهِ ﷺ فقال : ما هذه الكِسرةُ ؟ قالت : قرصٌ خبزتُه، ولم تَطِبْ نفسي حتى أتيتك منه بهذه الكسرة فقال رسولُ اللهِ ﷺ: أما إنه طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام، أخرجه العراقي في تخريج الإحياء عن أنس بن مالك. من مثل تلك التربية والمواقف كانت فاطمة البتول صورة مشرقة لجهاد المرأة المسلمة في صبرها واحتمالها، ومشاعرها وكل إمكانياتها تشد بها أزر الإسلام وتكافح جنبا لجنب مع أبيها وأخيها وزوجها وأبنائها في ساحة واحدة، وخندق واحد، لتدون في صحائف التاريخ درسا عمليا تتلقاه أجيال النساء في هذه الأمة المسلمة ليتعلمن حياة الإيمان، ويكتشفن عمق العمل البناء، الذي تتركه عقيدة التوحيد في حياة المرأة المسلمة، جهاد ومهمات، بعيدة عن اللهو والعبث والضياع مشغولة بالعطاء الاجتماعي والبناء الروحي وحمل الرسالة وصناعة الأجيال.

لذلك كان الزهد والعبادة والتصوف النقي صفة طبيعية واضحة في حياة أهل البيت عليهم السلام، فهم المثل الأعلى، والقدوة الرائدة، ومنهجهم في الزهد والعبادة هو منهج الإسلام، بصفائه وصوفيته وأصالته، كما بلّغه وطبّقه وعلّمه رسول الله ﷺ فلم يكن الزهد والعبادة عندهم إلاّ تعاليا على متع الحياة، وتساميا على أوطارها الفانية وصياغة للحياة وملء أبعادها وفق مشيئة الله وصفاء العلاقة معه وشدة الارتباط به – سبحانه وتعالى- فكان ذلك الحب الإلهي العظيم، وكان الرضا المتبادل بين الرب وعباده المخلصين، ومن هذه المآثر والعبر، (جاءت هندُ بنتُ هُبَيرةَ ل إلى رسولِ اللهِ ﷺ وفي يدِها فتخٌ من ذهبٍ أيْ خواتيمُ ضِخامٌ فجعل رسولُ اللهِ ﷺ يضرِبُ يدَها فدخلتُ على فاطمةَ ؓ تشكو إليها الَّذي صنع بها رسولُ اللهِ ﷺ فانتزعتْ فاطمةُ سلسلةً من عنقِها من ذهبٍ قالت هذه أهداها أبو حسنٍ فدخل رسولُ اللهِ ﷺ فقال يا فاطمةُ أيغرُّك أن يقولَ النَّاسُ ابنةَ رسولِ اللهِ ﷺ وفي يدِك سلسلةٌ من نارٍ ثمَّ خرج ولم يقعُدْ فأرسلت فاطمةُ ؓ بالسِّلسلةِ إلى السُّوقِ فباعتها واشترت بثمنِها غلامًا وقال مرَّةً عبدًا وذكر كلمةً معناها فأعتَقتْه فحدَّث بذلك النَّبيَّ ﷺ فقال الحمدُ للهِ الَّذي أنجَى فاطمةَ من النَّارِ)أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب، هذه صورة من مفهوم الزهد عند الرسول الأعظم وآل بيته عليه وعليهم الصلاة والسلام والبركة دوام، تعال عن الذهب والمال، وترفع على الحلي وتحرر من زخرف الدنيا وسلطانها، وتحويل كل ما فيها ليكون أداة ووسيلة لتحرير الإنسان وإنقاذ إنسانيته، فماذا لو اقتدينا واهتدينا وقطعنا من المعاصم والأعناق حلينا لتحرير الأنفس والأمّة؟!

ونساهم في بناء المجتمع الإسلامي الحر ونكتب كما كتبوا كلمة مضيئة في كتاب الحرية تقرأها الأجيال كما قرأنا ، وتعرفها النساء من بعدنا كما عرفناها بعد فاطمة الزهراء عليها السلام ، وتعيها الأسر والطبقات الحاكمة الجاثمة على الصدور فتقرأ أن المال والثروة وجدت لخدمة القيم الإنسانية الخالدة وتحرير الإنسان وصون كرامته لا لاستعباده ومصادرة حريته، فهذا هو منهج رسول الله ﷺ في الحياة وهكذا رسم الطريق واضحا جليا أمام الأجيال وهكذا ربى ابنته الحبيبة لتكون مثلا حيا للمرأة المسلمة وقدوة للفتاة المؤمنة ونموذجا رساليا في دنيا الإنسان وقد قال عنها الحسن البصري: (ما كانت امرأة في هذه الأمة أعبد من فاطمة، فكانت تقوم حتى تتورم قدماها) وحسبنا أن نقول أن فاطمة كانت امرأة «مسلمة» وكفى بهذه الهوية علو مقام، ورفعة درجة، وسمو منزلة عند الله تعالى.

والمثل الإنساني الآخر تربية رسول الله ﷺ الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الذي قال: (وقد علمتم موضعي من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة والمنزلة الخاصة، وضعني في حجره وأنا ولد، يضمني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل ... ولقد كنت أتبعه كالفصيل إثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علما، ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة، وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي وأشم ريح النبوّة. وعنه عليه السلام كذلك: (كنت أدخل على نبي الله كل ليلة، فإن كان يصلي سبّح، فدخلت، وإن لم يكن يصلي أذن لي فدخلت) وقال عنه رسول الله ﷺ: (أنا مدينة العلم وعلي بابها) حسنه السخاوي في المقاصد الحسنة، وقال في حقه الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة:٥٥-٥٦]، كما جاء في تفسير العياشي والقمي وغيرهما.فقد ذكر عدد من المؤرخين والمفسرين إنها نزلت في علي بن أبي طالب، وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة أن سائلا دخل مسجد رسول الله ﷺ يسأل المسلمين المعونة فأشار الإمام علي إلى أصبعه وهو راكع، فانتزع السائل خاتما من أصبعه وتصدق به وهو راكع فنزلت فيه هذه الآية، ومن بديع أقواله عليه السلام: (إلهي أفكر في عفوك فتهون علي خطيئتي، ثم أذكر العظيم من أخذك فتعظم علي بليتي... آه إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها، وأنت محصيها فتقول خذوه فياله من مأخوذ لا تنجيه عشيرته ولا تنفعه قبيلته ولا يرحمه الملأ إذا أذن فيه بالنداء) وقال كذلك: (طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة، أولئك الذين اتخذوا الأرض بساطا، وترابها فراشا، وماءها طيبا، والقرآن دثارا، والدعاء شعارا، وقرضوا من الدنيا تقريضا على مناهج عيسى ابن مريم)

وقال ما تركت صلاة الليل منذ سمعت قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم (صلاة الليل نور)، ولا ليلة الهرير «من ليالي صفين الحاسمة التي اشتبك فيها الفريقان طوال الليل دون هوادة»، لقد عظم المعبود عز وجل في نفس علي كرم الله وجهه فصارت عبادته تعبيرا عن الحب له والشوق إليه، واستشعار أهليته للعبادة دون سواه، ومن أجل ذلك كان لا يعبد الله خوفاً من عذابه ولا طمعا في جنته ولا فيما أعده من نعيم للمتقين وإنما سما في علاقته بالله تعالى إلى أعلى الدرجات أسوة بأستاذه الرسول الكريم ﷺ.

وقال قولته المشهورة: إن قوما عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وإن قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوما عبدوا الله شكرا فتلك عبادة الأحرار.

ومن نصائحه لأئمة الحق. «على أئمة الحق أن يتأسوا بأضعف رعيتهم في الأكل واللبس، ولا يتميزون عليهم بشيء لا يقدرون عليه ليراهم الفقير فيرضى عن الله تعالى بما هو فيه ويراهم الغني فيزداد شكرا وتواضعا»، وقال عن الدنيا: «والله ما كنزت من دنياكم تبرا، ولا ادخرت من غنائمها وفرا، ولا أعددت لبالي ثوبا طمرا، ولا حزت من أرضها شبرا، ولا أخذت منه كقوت أتان دبرة، ولهي في عيني أوهي وأوهن من عفصة مقرة»، هذا التواضع والزهد واليقين هو الدافع لقوة الموقف ويقول قولته: (وأيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بخزامته حتى أورده منهل الحق وإن كان كارها...) ولم تكن هذه المبادئ التي يتحدث عنها أمنيات وأفكارا طرحها في دنيا الفكر وإنما جسدها واقعا حيّا قبل أن يطرحها فكرا، فكان القول عنده يعقب العمل أو يجري على طبيعته، وهذه هي صفات أهل اليقين وأحوال مقام الرضا والفائزين بالمحبة العظمي «رضي الله عنهم ورضوا عنه»، مقام ما بعده مقام، فطوبى لأهل اليقين ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور:٣٧]، وهم القوم لا يشقى جليسهم، اللهم اجعلنا من المتأدبين معهم والمتأسين بإمامهم وسيدهم وقدوتهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا.

## حزب الوقاية لمن أراد الولاية:

**"بسم الله الرحمن الرحيم"**

اللهم يا حي يا قيوم بك تحصنت فاحمني بحماية كفاية وقاية حقيقة برهان حرز أمان بسم الله .

وأدخلني يا أول يا آخر مكنون غيب سر دائرة كنز ما شاء الله لا قوة إلا بالله .

وأسبل عليَّ يا حليم يا ستار كنف حجاب صيانة نجاة واعتصموا بحبل الله.

وابن يا محيط يا قادر عليّ سور أمان إحاطة مجد سرادق عزّ عظمة ذلك من آيات الله .

وأعذني يا رقيب يا مجيب واحرسني في نفسي وديني وأهلي ومالي وأولادي بكلاءة إغاثة إعاذة وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله .

وقني يا مانع يا دافع بآياتك وأسمائك وكلماتك شر الشيطان والسلطان، فإن ظالم أو جبار بغي على أخذته غاشية من عذاب الله.

ونجني يا مذل يا منتقم من عبيدك الظالمين الباغين عليَّ وأعوانهم فإن هم لي أحد منهم بسوء خذله الله وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله .

واكفني يا قابض يا قهار خديعة مكرهم واردد‌هم عني مذمومين مذؤومين مدحورين بتخسير تغيير تدمير فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله .

وأذقني يا سبّوح يا قدّوس لذة مناجاة أقبل ولا تخف إنك من الآمنين بفضل الله .

وأذقهم يا ضار يا مميت نكال وبال زوال فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمدلله .

وآمني يا سلام يا مؤمن صولة جولة دولة الأعداء بغاية بداية آية لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله .

وتوجني يا عظيم يا معز بتاج مهابة كبرياء جلال سلطان ملكوت عز عظمة ولا يحزنك قولهم إن العزة لله.

وألبسني يا جليل يا كبير خلعة جلال جمال كمال إقبال فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله.

وألق يا عزيز يا ودود عليَّ محبة منك فتنقاد وتخضع لي بها قلوب عبادك بالمحبة والمعزة والمودة من تعطيف تأليف يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله.

وأظهر عليّ يا ظاهر يا باطن آثار أسرار أنوار يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله.

ووجه اللهم يا صمد يا نور وجهيَ بصفاء جمال أنس إشراق فإن حاجوك فقل أسلمت وجهيَ لله.

وجملني يا بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام بالفصاحة والبلاغة والبراعة واحلل عقدة لساني يفقهوا قولي برقة رأفة رحمة ثم تلين جلودهم وقلوبهم لذكر الله.

وقلدني يا شديد البطش يا جبار السيف الهيبة والشدة والقوة والمنعة من بأس جبروت عِزة وما النصر إلا من عند الله.

وأدم عليَّ يا باسط يا فتاح بهجة مسرة رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري بلطائف عواطف ألم نشرح لك صدرك وبأشائر بشائر ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله.

وأنزل اللهم يا لطيف يا رءوف بقلبي الإيمان والاطمئنان والسكينة لأكون من الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله.

و أفرغ عليّ يا صبور يا شكور صبر الذين تذرعوا بثبات اليقين . كم من فئة قليلة غلبت فئةٍ كثيرةٍ بإذن الله.

واحفظني يا حفيظ يا وكيل من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي ومن تحتي بوجود شهود جنود له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله.

وثبت اللهم يا قائم يا دائم قدمي كما ثبت القائل وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله.

وانصرني يا نعم المولى ونعم النصير على أعدائي نصر الذي قيل له أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله.

وأيدني يا طالب يا غالب بتأييد محمد ﷺ المؤيد بعزيز توفير إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله.

واكفني يا كافي يا شافي الأعداءِ والأسواءِ والأدواء بعوائد فوائد لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله.

وامنن عليّ يا وهاب يا رزاق بحصول وصول قبول تيسير تسخير كلوا واشربوا من رزق الله.

وتولني يا وليّ يا عليّ بالولاية والعناية والرعاية والسلامة بمزيد إيراد إسعاد إمداد ذلك من فضل الله.

وأكرمني يا غني يا كريم بالسعادة والسيادة والكرامة والمغفرة كما أكرمت الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله.

وتب عليّ يا تواب يا حكيم توبة نصوحاً لأكون من الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله.

وألزمني يا واحد يا أحد كلمة التقوى كما ألزمت حبيبك سيدنا محمداً ﷺ حيث قلت فاعلم أنه لا إله إلا الله.

واختم لي يا رحمن يا رحيم بحسن خاتمة الناجين والراجين قل يا عبادِيَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله.

وأسكني يا سميع يا قريب جنة أعدت للمتقين دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله. يا ألله يا ألله يا ألله يا ألله... يا رب يا رب يا رب يا رب... يا نافع يا نافع يا نافع يا نافع... يا رحمن يا رحمن يا رحمن يا رحمن.... يا رحيم يا رحيم رحيم يا رحيم.،،، أسألك بحرمة هذه الأسماء والآيات والكلمات سلطاناً نصيراً ورزقاً كثيراً وقلباً قريراً وقبراً منيراً وحساباً يسيراً وأجراً كبيراً. وصلي الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً.

## الفهرس